الرسالة المحمدية وشواهدها

بقلم

محمود عبد الوهاب فايد

المدرس بالأزهر بالقاهرة

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

الناشر

مكتبة القاهرة

لصاحبها: علي يوسف سليمان

شارع الصنادقية بميدان الأزهر بمصر

١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد :

فهذه دراسة تناولت فيها شخصية النبي صلى الله عليه وسلم من خلال كتب السنة التي حفظت لنا آثاره ، وسجلت لنا أخباره ، وقد اقتبست منها بعض شواهد رسالته وأبرزت طرفا من سمات عظمته ، وسيجد فيها القارىء شعاعا من ضوئه المتألق الذي هدى الناس ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، وسيتنسم منها عبيره الفياح الذي أشاع ولا يزال يشيع في النفوس الرضا والبهجة ، والأنس والمتعة ولا أقول إنني جلوت كل قسمات الرسالة أو أوفيت على الغاية فرسالة النبي صلى الله عليه وسلم أشبه بالشمس تغمر العالم بنورها، وتعمه بحرارتها ، ولا يمكن لأحد أن يحيط بكنهها أو يدرك جميع جوانبها ، وإن كانوا جميعا يهتدون بأشعتها ، وينعمون بدفئها .

والله أسأل أن يجد فيها أبناء هذا العصر ما يحملهم على اقتفاء آثار الرسول صلى الله عليه وسلم واستجلاء شخصيته وإدراك معالم رسالته حتى ترتبط أرواحهم به ويخلصوا في حبه ، ويقتدوا بسيرته .

ويومئذ تأمن الإنسانية سعار أرباب المذاهب المادية ، وتعيش تحت ظلال الرسول صلى الله عليه وسلم في صفاء روحي ، وهناء نفسي ،

بعيدة عن كل مصادر الخوف ، ومثيرات القلق ، ومضلات الفتن (وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) صدق الله العظيم .

محمود عبد الوهاب فايد
المدرس بالأزهر

المقدمة

قبل أن نتحدث عن الرسول صلى الله عليه وسلم يلزمنا أن نتحدث عن الذى أرسله وهو الله تعالى ، وهل قام الدليل على وجوده ؟ كذلك يلزمنا أن نتحدث عن التدين وهل هناك ضرورة له ؟ كما يلزمنا أن نتحدث عن الرسالة وحاجة الناس إليها .

دليل وجود الله تهدى إليه الفطرة

قام الإسلام على الاعتراف بالله والتصديق بوجوده ، وفى تقرير هذه العقيدة يسلك بالإنسان سبيل الفطرة ، فيدله على ما تهدى إليه العقول السليمة، وتحكم به الأذهان البريئة من المرض والغرض ، يرشده إلى الدليل الذى يستوى فى فهمه العام والخاص فيقول عز وجل « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون» سبحانك ربى لقد اهتدى إليك هذا الأعرابى القح ولم يرعسرا فى الوصول إليك والاستدلال عليك فقال هذا المثل السائر « البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أفلا تدلان على الحكيم الخبير » .

إن الدليل على وجود الله مركوز فى الفطرة وهو قائم على نظرية السببية تلك النظرية التى يتلقاها الإنسان عقب الولادة لأول عهده بالدنيا فعندما تلقمه الأم ثديها يتحرك فمه حركة تدر عليه اللبن ويجد من آثارها الشبع والرى وعندما تقع حواسه على المسموعات والمرئيات وغيرها يجد لها فى نفسه آثارا متنوعة مطردة الأسباب يستعين بها على معرفة ما حوله ومن حوله (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) . وكل إنسان مدفوع بحكم غريزة حب

الاستطلاع إلى معرفة نفسه ، والعالم الذى يعيش فيه فهو مشغوف بتقصى هذه الآثار مولع بالكشف عنها والبحث عن أصلها ومنشئها ، وبحكم نظرية السببية التى نشأ وشب عليها يربط وجود هذا العالم البديع المثال ، والمحكم الصنع الرائع المظهر والمخبر — يربط وجوده بخالق قادر قاهر ، حكيم عليم، عظيم الشأن واسع السلطان ، وتأبى هذه النظرية التى فطر عليها أن يكون العالم وليد الصدفة ، موجودا بلا موجد ، وأثرا بلا مؤثر ، وهل تنتج — بالصدفة — كائنات بديعة على سنن الحكمة وتسير وفق نظام دقيق لاتخرج عليه ولا تحيد عنه ؟ وهل تتكرر المصادفات وتتعدد الفلتات بحيث تنسجم حلقاتها ، وتتآلف ليتم هذا الإبداع المجسم فى كل هذه المخلوقات ؟ وهل تتمخض الصدفة التى لم تسبق بعلم وإرادة عن عالم متماسك الأجزاء قوى البناء، بالغ الروعة والإتقان ، يضم بين أقطاره نفوسا لها علم وإرادة وعقولا لها تمييز وإدراك ، إن نظرية السببية كما قلت تجعل العقل يستبعد بل يحيل أن يكون العالم موجودا من غير موجد ، وكيف يقتنع بذلك وهو فى الحوادث الفردية الضئيلة لايرتضى هذا المنطق ولايقبل أن يستبعد الفاعل أو يتجاهله وإلافسد العالم واختل نظام الحياة وتعطلت دور القضاء ، وأمكن أن تقع نعمة بلامنعم وجريمة بلا مجرم (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) .

نعم . إنه لايعقل أن تكون الصدفة أساس هذا الإبداع المجسم المحسوس الملموس فى أنحاء العالم قال الرياضى الفرنسى (هنرى بوانكاريه) إن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب ؛ ويقول سقراط زعيم فلاسفة اليونان : — وهذا العالم الذى يظهر لنا على هذا النحو لم يترك فيه شىء للمصادفة بل كل جزء من أجزائه متجهة نحو غاية وتلك الغاية متجهة نحو غاية أعلى منها .. وهكذا يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة وحيدة . من أين نشأ هذا النظام الكامل مع تفرعاته، المحفوف بالعظمة والجلال من كافة نواحيه . ليس من الممكن أن يحمل ذلك

على المصادفة فلو أمكننا أن نقول إنه نشأ من تلقاء نفسه لصح لنا أن نقول إن ألواح (بوليكلث) و (زويكسيس) حدثت من تلقاء نفسها وإذا ما نظرنا إلى أن العناصر التى تحتوى عليها الكائنات كثيرة إلى درجة لايمكن أن يحصرها العقل كان من المحال أن نحمل وجود كل ذلك على المصادفة فلا بد إذن من وجود مدبر أعلى وهو الصانع الوحيد وهو حاضر غالب أى عالم قادر ومع هذا فمن المستحيل إدراكه بالحواس فهو كالشمس التى تمس جميع الأبصار لكنها لاتبيح لأحد أن ينظر إليها » .

لم تصح إذن نظرية الصدفة :

ولا يعقل كذلك أن ينسب الإيجاد إلى المادة وهى لاشعور لها حتى ترتب وتنسق ولا قدرة لها حتى تؤثر وتخلق فهى منفعلة لافاعلة ، متأثرة لامؤثرة وهى قابلة لأن يفاض عليها أية صورة فاختصاصها بشكل معين لابد أن يكون من مهيمن واسع السلطان حكيم بالغ الحكمة .

والإنسان لايعقل أن يوحد نفسه فالمعدوم لايهب نفسه الوجود وفاقد الشيء لايعطيه ولوكان هذا الوجود من صنعه لأمكنه أن يستبقيه فالاستبقاء أسهل من الإيجاد ومادام ذلك خارجا عن حدود إمكانه فلا بد أن يكون وجوده الأول من صنع حكيم خبير وصدق الله العظيم إذ يقول (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) ذلك هو دليل وجود الله وهو يقوم على نظرية السببية التى نشأ عليها الإنسان من عهد الطفولة ، وبحكم غريزة حب الاستطلاع التى ولدت معه يندفع إلى تلمسه ، ويتولى العقل — وهو مارك فيه بحكم الفطرة — مهمة الفصل فى هذه القضية ، فمادة الدليل وآلته والحامل عليه ، كل ذلك مركوز فى الإنسان قائم به متصل بذاته أتم اتصال .

لاعجب إذن إن قلنا : — إن كل إنسان يشعر من قرارة نفسه أن للعالم إلها يتولى أموره ويصرف شئونه ، ويتعهده ولا يغفل عنه ، إذ لو غفل عنه

لاختل النظام ، واضطرب حال الكون (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم) .

ذلك أمر فطرى لا يجحده إلا مكابر ، ولا ينكره إلا عنيد ، ومهما كابر المكابرون ، وعاند المعاندون فلا بد أن يرتدوا إلى حكم الفطرة ، ويرجعوا إلى قضية العقل ، ويعودوا إلى الله طوعا أو كرها ، فعندما يطالعون كتاب الكون وينظرون فى هذه المملكة الواسعة ، يعودون وأنفسهم مبهورة دون أن يحيطوا بأطرافها ، أويلموا بمحتوياتها ، أويصلوا إلى أسرارها يرون هذه المملكة على اتساعها وكثرة ما بها لا خلل فيهـا ولا تفاوت ولا اعوجاج ولا اضطراب (صنع الله الذى أتقن كل شىء) (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) وكلما أجالوا الفكر وأنعموا النظر وجدوا لذة تدفعهم إلى الاستزادة ورأوا جديدا ينفى عنهم السأم والملل ويدعوهم إلى الاستمرار فى التأمل ، وفى النهاية يعودون وهم يرددون « سبحان الذى أحسن كل شىء خلقه » (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

وعندما يفتر هذا الشعور أو يتجاهله المرء لظروف عارضه ، وعندما يعرض عن آيات الله فى الكون ، ويصم أذنه عن ندائها ، ويغفل أو يتغافل عن خالقها وبارئها ، تأخذ بتلابيبه الخطوب حتى تضطره إلى الرجوع لربه ، فيعود بعدها إليه مستغيثا به ، وهاتفا من أعماق قلبه (لا إله إلا الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنا لله وإنا إليه راجعون) (وإذا مس الإنسان ضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) .

« وبعـد » : فان شعور الإنسان بوجود الله شعور قوى لا يزول ولا ينمحى أثره ، ويشهد له هـذا الحوار وقد دار بين رجلين مؤمن

وشيوعى ملحد . قال الملحد لصاحبه وهو يحاوره : أنا لاأومن بإله كما تؤمن أنت وما الله الذى تؤمن به وتزعم وجوده سوى خرافة تعاقب عليها البشر، فرد عليه صاحبه المؤمن : أكفرت بالذى دلت عليه دلائل الكون الناطقة، وشهدت بوجوده آياته الصادقة : إنى أستبعد على مثلك فى عقله الذكى وفؤاده الألمعى أن يكفر بالله الذى خلقه وسواه وأنعم عليه ورعاه . فرد عليه الملحد فى سرعة ولهفة : أتكذبنى فى دعواى ! والله والله والله العظيم إنى ملحد هل كفاك هذا اليمين ؟ هل صدقت ؟ فأجابه المؤمن على الفور كفانى كفانى ، لقد جرى لسانك على مقتضى فطرتك وانطلق معبرا عما استكن فى نفسك ويستقر فى قلبك ، فأقسمت بالله العظيم يمينا لاحنث فيه وذلك دليل شعورك به وإيمانك المستتر بوجوده وعظمته .

وذات يوم وقعت لى حادثة مع أحد الطلاب فقد سألنى ما الدليل على وجود الله ؟ قلت له: وجودك ووجود هذا العالم البديع المحكم ، فسأل فى عجب: كيف أومن بمن لم أره ومن لم يره أحد ؟ فقلت له : هل لديك عقل تفكر به ؟ قال نعم ، قلت له : هل رأيته أو رآه أحد ؟ قال : لا ، قلت له فكيف نصدق أن لك عقلا ولم يره أحد منا ؟ قال: تصرفاتى المتزنة تشهد بعقلى وتفكيرى، قلت له: كذلك هذه الصنعة البديعة التى نشاهدها فى هذا العالم تدل على وجود الله؟ فسلم عندئذ وأبدى اقتناعه .

ومرة قال تلميذ لأستاذه الفيلسوف: إنى معجب بفلان المصور الذى يخرج لنا هذه الصور البديعة فرد عليه أستاذه من ذا يستحق الإعجاب أكثر الذى يصور صورة لاروح فيها أم الذى يصور صورة بها روح . بقيت لنا كلمة أخيرة نقولها للذين ينكرون وجود الإله ، لو أن أحدكم عثر على كتاب مخطوط فسأل من خطه ؟ فقيل له القلم ، أليس يقول إن ما احتواه من علم وحكمة ونظام لايمكن أن يصدر من جماد لاإدراك له فلابد أن يكون وراءه يد عالم حكيم هى التى حركته ، وإذن فلماذا تجحدون أن يكون وراء كتاب

الكون البديع يد منشيء أبدعته . لماذا تنكرون مبدع الكون؟ إن هذا لشيء عجاب ، وأخيرا فانا نقول لمن يؤلهون المادة إن ماتجهلونه أكثر مما تعلمونه فانكم لاتزالون تكتشفون كل يوم جديداً وذلك دليل جهلكم من قبل كما قال الشاعر :

كلما أدبنى الدهر   أرانى نقص عقلى
وإذا ماازددت علما   زادنى علما بجهلى

إننا نقول لهم هل عدم قيام دليل فى أذهانكم على وجود الله يصح أن يكون دليلا على عدم وجوده ؟ أترون الكهرباء والراديوم والميكروبات كانت معدومة قبل أن يتم اكتشافها ؟ وأى فرق بينكم وبين البهائم التى لاتعترف بغير المحسوس ، أستغفر الله فالبهائم تسبح بحمدالله وهى حين تضرب تدرك على الفور أن فاعلا أحدث بها هذا الضرب فتلتفت نحوه ، أما أنتم فتنكرون البديهيات ، وتجحدون الضروريات، وتقولون بوجود أثر دون مؤثر ، ونظام من غير منظم ، وحكمة من غير حكيم .. خبرونى كيف تحتاج حركة المرور فى إحدى المدن إلى ثلة من الجنود تتولى تنظيمها وقد تقع مع ذلك حوادث اصطدام .. ولاتحتاج ملايين الكواكب السيارة إلى من يدبر حركتها ويحفظ نظامها ويوجهها ذلك الاتجاه السليم .

يقول هرشل الفيلسوف المشهور « انه كلما اتسع نطاق العلماء تحققت وكثرت الأدلة على وجود خالق حكيم على كل شيء قدير ، وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعيات والرياضيات يهيئون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم إعلاء لكلمة الخالق » .

ويقول كاميل فلامريون بعد أن تساءل « من أين نشأت هذه الكائنات؟ يستطيع كل باحث أن يفكر ليصل إلى حل هذه المسألة الخطيرة . وعلى أية حال كان الجواب فإنه لايخلو من أمر يستوقف النظر ، ولكن الإنسان إذا

ما رأى المهر الحديث الولادة يقفز وراء أمه ليلتقم ضرعها والفروج عندما يخرج من البيضة يبحث عن الغذاء فى الأرض ، والبطة عندما تشم الهواء بعد الفقس تبحث عن ضحضاح ماء لتسبح فيه . . إذا رأى الإنسان كل هذه المحاولات من الحيوانات الحديثة العهد بالحياة .. أيتمالك نفسه منعزوها إلى الإلهام الذى يتولاها بالعناية والإرشاد؟ وهل هذا الإلهام إلا أثر من آثار رحمة الله بهذه الكائنات الضعيفة ودليل محسوس على أنه لايخلق خلقا ويتركه مجرداً من الإرشاد؟ وإذاكان المثال عندما يعجن الجبس ليصنع منه تمثالا يصدر فى عمله عن تقدير لكل مايستدعيه كمال ذلك التمثال فان الله عز وجل قد قدر كل ما أراد أن يبرزه إلى عالم الشهادة من الكائنات ووهب لكل منها حاجته من القوى والذرائع ، ولم يغفل صغيرة ولا كبيرة مما يحتاج إليه فى بقائه وحفظ نوعه وأعد له العمل الذى يقوم به فى الحياة ، هذا هوالله الحق الذىلاتدرك العقول كنه ذاته ولكنها تدرك أنه لايصدر فى جميعمصنوعاته إلا عن حكمة لاتحد بحد ، وعلم لايبلغ مداه إلا هو » .

ولنا مثل أخير نسوقه إلى الطبيعيين ، هذه الساعة التى ترونها تسير فى دقة ونظام تقولون إنها مدينة فى سيرها لسلسلة أسباب هى آلاتها المتداخلة التى يرتبط بعضها ببعض ، ولكن هل ترون أمرها ينتهى عند هذا الحد ؟ كلا فالساعة لم توجد من تلقاء نفسها بل العقل يحتم أن لها صانعا تولى صنعها وأشرف على تركيبها ، وقد لا يكون لدى الإنسان علم بشخصيته أوجنسيته فكيف تنكرون أن يكون وراء هذه الساعة (الشمسية) التى نعتمد عليها إذا غربت أو أشرقت فى ضبط ساعاتنا ، كيف تنكرون أن يكون وراءها صانع حكيم قدير ، حقا إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

الوجود وأنواعه

الوجود : ماقابل العدم ، وهو نوعان :

١ — وجود واجب ، أى لايقبل الانتفاء أصلا لذاته فهو مستمر أزلا وأبدا فلا يسبق بعدم ولا يطرأ عليه عدم . لأنه لو سبق بعدم أوطرأ عليه العدم لأصبح الواجب غير واجب وهذا باطل بداهة ، ويسمى هذا الوجود بالوجود الذاتى نظرا لأن ذاته هى التى اقتضته (وهذا هو وجود الله) .

٢ — وجود ممكن ، وهو مايقبل الانتفاء ، ويسمى هـــذا بالوجود العرضى لأنه وجود عارض ولا تقتضيه الذات ، وهذا هووجود ماسوى الله أى وجود العالم .

الله موجود

١ — بالنظر فى العالم نرى أشياء لم تكن موجودة ثم وجدت ، وأخرى كانت موجودة ثم انعدمت وهذه الكائنات إما أن يكون وجودها واجبا أو مستحيلا أو ممكنا .

لاسبيل إلى القول بوجوب وجودها لأن واجب الوجود لذاته لايلحقه عدم كما لايسبقه عدم ولا سبيل إلى القول باستحالة وجودها لأن وجودها قد تحقق .

فتعين أن نقول : إن وجودها ممكن وعرضى ، والموجود الممكن حادث لأنه يحتاج إلى من يهبه الوجود ، وذلك لأن وجوده كعدمه كلاهما مساو للآخر بل العدم أولى لسبقه فترجيح المرجوح يحتاج إلى مرجح ، فالممكنات الموجودة محتاجة بتمامها إلى موجد لها ، فاما أن يكون الموجد عينها أوجزأها أو خارجا عنها .

لاسبيل إلى القول بأنها أوجدت نفسها لأن هذا يستلزم أن تكون موجودة في حالة كونها موجدة (بكسر الجيم) لأن المعدوم لايهب غيره الوجود ففاقد الشيء لايعطيه ، ويستلزم أن تكون معدومة في حال كونها موجدة (بفتح الجيم) لأن إيجاد الموجود تحصيل حاصل ، وهو باطل ، فعلى تقدير أنها أوجدت نفسها يلزم أن تكون موجودة معدومة في وقت واحد وهذا ظاهر البطلان .

ولاسبيل إلى القول بأن جزءها أوجدها لأنه إن كان أول الموجودات لزم أن يكون موجداً لنفسه ، وإن كان مسبوقا بغيره لزم أن يكون موجدا لنفسه ولماسبقه ، وكلاهما باطل لما قررناه قبل فتعين أن يكون السبب وراء جملة الممكنات الموجودة ، ولايوجد موجود وراءها سوى واجب الوجود — وهو الله — فيكون هو الذي وهبها الوجود . قال أحد الفلاسفة : « إذا فرضنا أنه كان هناك وقت ليس فيه شيء مطلقا أى لاشيء قائم بغيره ولاشيء قائم بنفسه من القدم لزم ألا يكون غير العدم ، والعدم لايصلح لإيجاد شيء فلابد أن تكون تلك الحقائق الأبدية التي تدرك بالنظر في الوجود جارية على سنة معينة بلا تحول ولا تبدل وهي صادرة من الله .

٢ — إذا رددنا كل حادث — من الحوادث التي نراها — إلى ماقبله إلى غير نهاية فمن هو منبع هذا الوجود غير المتناهي ؟ لايمكن أن يكون منبعه ذوات الممكنات لأنها في أصلها عدم ، فبقي أن يكون من خارجها وهو الواجب المطلق .

يقول بعض الفلاسفة « إن إنكار السبب الأول للأشياء بمنزلة عدم الأسباب بالكلية فليس بمعقول أن الحلقة من السلسلة تحتاج إلى مايمسكها من الحلقات الأخرى والسلسلة كلها لاتحتاج إلى ممسك » .

الأدلة النقلية على وجود الله

القرآن :

قال تعالى : (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء) .

العهد القديم : — تكوين ١ : ١ فى البدء خلق السموات والأرض . أشعياء ٣٧ : ١٦ أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض أنت صنعت السموات والأرض .

العهد الجديد :— أعمال : ١٤ : ١٥ نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل إلى الإله الحى الذى خلق العالم وكل مافيه هذا إذ هو رب السماء والأرض — ٢٨ لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد .

شبهة واهية

يتمسك هؤلاء الماديون بأذيال شبهة واهية فيقولون : إذا كان للعالم رب يقوم عليه ويستند فى وجوده إليه فما سر هذه الشرور التى نجدها . والمصائب التى نشاهدها، ونقول فى الرد على هؤلاء : لأمر ما شاء الله أن يكون فى العالم خير وشر ، وحق وباطل حتى يكون هذا مظهرا لكمال قدرته وبرهانا على عظيم قوته ، ودليلا على سعة سلطانه ، وتحقيقا لمعنى حلمه وغفرانه ، وعدله وإحسانه (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وليكون أيضاً مظهراً لضعف المخلوق وعجزه فيظل دواما على ارتباط بخالقه ، يستعين به ويطلب منه الغوث والنجدة (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) (فإذا مس الإنسان ضر دعانا) وليدفعه الحرص على توقيها والتخلص منها إلى التنقيب فى الكون ، ومواصلة البحث والتفكير ، فتتكشف له أسرار تزيده إيماناً بالله ، وتزدهر

حركة العلوم والفنون تبعا لما يتوصل إليه من نتائج مدهشة كهذه التى توصل إليهافى عالم الطب والصيدلة والتشريح ووظائف الأعضاء والطبيعةوالكيمياء، وغير ذلك من العلوم التى عليها حياة الإنسان ، وتقدم العمران ولاننسى أن هذه الشرور مدعاة إلى تنوع الأعمال وإلى كمال توزيعها على وجه يتم فيه الارتباط فهذا مجرم وذاك ضابط وذلك وكيل نيابة ، وهذا قاض وذاك محام وذاك أمير ، وهذا سجن وذاك بناء وهؤلاء عملة ، وهذا سجان وذاك واعظ وذاك طبيب وظائف مختلفة وبيوت مفتوحة ، دعت إليها ألوان الشر ، وقضت بها ظروف الجريمة ، وإذا كانت تدل على شىء فانما تدل على ما بين الشر والخير من الارتباط ، وتنادى بما بينهما — رغم هذا التعارض — من التماسك وتشير إلى بديع قدرة الله فى إقامة الخير والشر على نظام فذ ، وأسلوب بديع ، وترمز فى النهاية إلى أن العالم وحدة متماسكة غير متخلخلة الأجزاء ولامتفرقة الأوصال شره ممسك بتلابيب خيره ، وخيره آخذ بحجز شره . تلك سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الدين ضرورى لصلاح الفرد والمجتمع

يتكون الإنسان من عناصر مختلفة وقوى متنوعة كل واحد منها له حاجاته ومطالبه فهو حيوان كسائر الحيوانات له عناصرها وطبائعها ، وهو فوق ذلك يمتاز عنها بالعقل — وبتوجيه هذه القوى الطبعية والعقلية يسلك الإنسان طريقه فى عالم الأحياء ، فغرائزه الحيوانية تعينه على تحصيل مايلزمه من مطالب فى سبيل المحافظة على ذاته ، وقواه العقلية تشرف على تنظيم هذه المطالب وتحاول أن تختار لها أيسر السبل ، لكن هذه القوى والغرائز ليست فى حالة انسجام على الدوام . فكثيرا مايحاول بعضها أن يشبع نفسه على حساب ماعداه ، وإذن فلابد من حاكم يفصل بينها بالعدل ، والعقل وحده لايمكن أن يقوم بهذه المهمة إلا إذا كان بعيدا عن المؤثرات الأجنبية ،

وهيهات أن يتيسر له ذلك ، فالتقاليد والعادات ، والأهواء والنزعات ، وظروف البيئة الخاصة والعامة كلها لها دخل كبير فى جميع مايصدره العقل من أحكام فلم يبق أمل - إذن - إلا فى هذه القوة الغيبية القدسية التى يشعر بسلطانها ويحس بعظمتها ، ويجد لها فى نفسه هيبة وخشية .

على أن مطالب الإنسان لاتقف عند المطالب الجسمية فهو فى حاجة إلى مطالب روحية ، وهذا هو الفارق بينه وبين بقية الحيوانات ولا يمكن أن تكمل إنسانيته بالماديات ، - وإنكار الروح وعدم الإعتراف بخواصها هو أصل البلاء ومصدر الشقاء ، يقول الفيلسوف شارل : « لما فقد الناس التصديق بوجود الروح صارت منابع الأخلاق مهددة بالنضوب وأحست الجمعية الإنسانية من نفسها بأنها قد دخلت فى دور الفتن والانحلال الذى يعقبه عادة التلاشى والفناء » ومادام الإنسان فى حاجة إلى غذاء روحى فمن أين له أن يستمد هذا الغذاء ؟ ليس هناك سوى الدين فهو الذى يكفل حاجة الروح ، ويوفر لها مطالبها ، ويتعهدها بما تحتاجه ويغذيها ، ويمدها بمايصلحها ويقويها ، ويصل بينها وبين الخالق على أساس قوى متين ، وهذا شىء خارج عن اختصاص الأخلاق والقوانين .

وأخيراً فالإنسان لايمكن أن يعيش وحده لأنه مدنى بالطبع ، ولأنه مجبول على حب الحياة والحياة تتطلب منه مطالب كثيرة تدعوه إلى أن يحتك بالكون وما فيه ومن فيه فى سبيل المحافظة على ذاته ، وهذا يضطره إلى أن يستعين بغيره فى الحصول على حاجاته وقد تتعارض رغبات الأفراد ، ويشتد الحرص بينهم ، فينشأ الخلف ويتفاقم النزاع ويضطر كل منهم إلى أن يحتمى فى قبيلته ، ويتقوى بمن يلوذ به ، وكثيرا مايتطور النزاع إلى شجار دموى تزهق فيه النفوس وتطيح فيه الرؤوس والغلبة فى الغالب للأقوى ، والنزاع ليس مقصورا على الأفراد ولا على القبائل والجماعات بل كثيرا ما يقع بين الأمم المختلفة والدول المتجاورة نتيجة للرغبات التى تسيطر على

رؤساء الدول ، والميول التى تتحكم فى قلوب حكامها ، والمطامع التى تلعب بهم وتدفعهم ذات اليمين وذات اليسار ، وهكذا يصبح العالم مسرحا لصراع دموى لا يهدأ فيه بال أمة ، ولا يطمئن فيه إنسان وتصبح الحياة جحيما لا تطاق ، فلو ترك الناس وشأنهم يسيرون وفق رغباتهم ، ويمشون حسب أهوائهم لانقطع حبل الأمن ، وعاث الناس فى الأرض الفساد فلا بد من دين يوحى به إله العالم إلى رسول يبعثه إلى خلقه ، ويرسله إلى عباده ، دين تجرى عقائده فى شرايينهم مجرى الدم يحميهم من الردى ، ويسلك بهم طريق الهدى ، دين من إله له السيطرة على قلوبهم وعقولهم ، ونفوسهم وجوارحهم ، يرقبونه فى السر والعلن ، يخشونه فى الملأ والخلاء .

قد يقال : إن إصدار القوانين يكفى فى إزاحة الشر وحماية المجتمع وصيانة السلام ، ونقول : إن القوانين لا تحول دون ارتكاب الجريمة لعوامل متنوعة ، فقد يعتقد المرء أنها جائرة وأنها تأخذ أكثر مما تعطى فيحاول أن يتخلص منها بالتخلص من أصحابها ، وفى هذه الحالة يسير المحكوم فى طريق الإجرام ، وقد تكون القوانين سليمة لا مأخذ للمحكوم عليها ، وإنما مأخذه منصب على الحاكم الذى طفق يتأولها لصالح ميوله ورغباته .

وهذا إجرام من الحاكم كثيرا ما يتولد عنه إجرام المحكوم ـ فما الذى يحفظ وحدة الأمة ، ويضمن سلامتها ؟ لا شىء إلا الدين فهو الذى يحول دون هوى الراعى وثورة الرعية ويمسك زمام الأمن ويحافظ على كيان الفرد والجماعة ، ويحمى السلام العالمى ويكفى العالم نتائج الصراع الدموى الذى يكاد يودى به ويجر عليه الخراب والدمار . لا أقول ذلك تحيزا إلى الدين ، ولا تعصبا له ، وإنما استنتاجا من وقائع الحياة ، واعتمادا على ما نشاهده فيها .

وهب أمة شاع فيها المروق ، وانتشرت بينها الزندقة وكثر فيها الإلحاد فليس لديها وازع دينى ولا رادع روحى ، وكل ماتخشاه أن تقع تحت طائلة العقاب متى ثبت عليها جرم اقترفته أو وزر اجترحته . أليس من السهل على كل فرد فيها أن يتخطى هذا العقاب تحت ستار الظلام بشىء من الاحتيال ويسير من التفنن مسايرة لهواه ، ومكايدة لخصومة ؟ ومن من الناس لاعدو له ؟ ومن منهم تجرد من الأهواء والشهوات ؟ أحسب أن من المكابرة أن نجحد ما للدين من فضل فى مقاومة الشرور ومحاربة الآثام .

يقول الفيلسوف جمال الدين الأفغانى فى رسالة الرد على الدهريين ص ٧٢ « ليس للشهوة قامع ولا للأهواء رادع إلا الإيمان بأن للعالم صانعا عالما بمضمرات القلوب ومطويات الأنفس سامى القدرة واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه فى حياة بعد هذه الحياة » .

ويقول أرسطو فى كتاب العالم ص ٦ ما ملخصه « إن تقليدا قديما انتشر عن آبائنا الأولين بين البشر طرا يفيد بأن كل شىء صدر عن الله وبالله وكل طبيعة تقوم وتحفظ بعون الله وهو وإن كانت لا تراه الخليقة المائتة يرى بأعماله ويعرف من مبروءاته وهو واحد ولكن له أسماء عديدة متأتية عن اختلاف أفعاله البادية فى الكون ، فهو والحالة هذه مبدأ ومرجع كل موجود يضع لكل الطرق المستقيمة المؤدية إليه ويقتص من المتعسفين عنها بعدله الذى يقضى أن يقتدى به كل من يرغب فى سعادة المستقبل ويروم أن يكون سعيدا منذ الآن » .

أجل : إن الدين هو الحصن الذى يحمى المجتمع من الفساد ، ويحفظه من الاضطراب ويربيه على الخلق القويم ، ويهديه إلى الصراط المستقيم ، وما إخال أحدا يمارى فى هذا إلا أن يكون مكابرا ، وهذه هى فرنسا لم يحمها من التدهور والانحلال ، والسقوط والاضمحلال ماعرفت به من المهارة فى صوغ القوانين ووضع الدساتير ، فتردت فى مهاوى الرذيلة ومنيت بشر

هزيمة ، ووقف بيتان رئيس حكومتها يومذاك يقول على مرأى ومسمع من العالم أجمع :

« لقد أتت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية ، فإنى أدعوكم قبل كل شىء أن تنهضوا بأخلاقكم » .

هذه صيحته فى وجوه قومه وأبناء دولته ، ونحن نقول : ليس يقاوم الشر ويقضى على الميوعة ، ويصلح الأخلاق ، ويعلى شأن الأمم ، عامل كعامل الدين ، وحسبك لتعلم هذا أن توازن بين رجلين ، أحدهما ملحد خارج على الأديان ، فهو إن فارق الشر أو فارقه الشر ، فإنما يحاول النجاة بنفسه ، والتخلص من صرامة القانون ، وفى الساعة التى تتيسر له فيها الجريمة فى أمان من الناس ، يقدم عليها دون أن يردعه رادع ، أو يمنعه مانع والآخر متدين له بجانب ذلك الوازع ، وازع آخر يلازمه ولا يفارقه ، هو وازع الدين ، يزعه فى سره وجهره ، فى بيته ومتجره ، فى طريقه وممشاه ، فى كل مكان . واستمع معى إلى هذه الواقعة ، لتعرف ما للدين من بالغ الأثر ، وقوة التأثير .

قال أسلم : بينما أنا مع عمر بن الخطاب ، وهو يعس بالمدينة ، إذ عيى ، فاتكأ على جانب جدار فى جوف الليل ، وإذا امرأة تقول لابنتها : قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، قالت لها : يا أماه ، أو ما علمت بما كان من عزم أمير المؤمنين ؟ قالت : وما كان من عزمه يا بنية ؟ قالت : إنه أمر مناديه فنادى : لا يشاب اللبن بالماء ، فقالت لها : يا بنية ، قومى إلى اللبن فامذقيه بالماء ، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادى عمر ، فقالت الصبية لأمها : يا أماه ، ما كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلاء ، وهل يغيب عنا رب عمر إذا غاب عنا عمر ؟ .

وعمر يسمع هذا كله ، فقال : يا أسلم ، علم الباب ، واعرف الموضع ،

ثم مضى فى عسه فلما أصبح ، قال : يا أسلم ، امض إلى الموضع ، فانظر من القائلة ، ومن المقول لها ، وهل لها من بعل ؟ فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيم لا بعل لها ، وإذا تيك أمها ليس لها بعل ، فأتيت عمر فأخبرته ، فدعا عمر ولده فجمعهم ، فقال : هل فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه ؟ لو كان بأبيكم حركة إلى النساء ماسبقه منكم أحد إلى هذه الجارية ، فقال عبدالله : لى زوجة ، وقال عبد الرحمن : لى زوجة ، وقال عاصم : يا أبتاه لا زوجة لى فزوجنى فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم فولدت له بنتا وولدت البنت عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

هذه قصة صريحة فى أن الدين يقضى على مالا يقضى عليه القانون من الجرائم .

وتفيد أنه خير ضمان لسعادة الإنسانية وهناءة البشرية .

ما الذى حرم أمير المؤمنين عمر لذة النوم بالليل ، وكلفه البحث عن أحوال الرعية فى جنح الظلام حتى عى ؟ إنه الدين .

ما الذى منع الفتاة من ارتكاب جريمة الغش وعمر لا يراها ؟ إنه الدين .

ما الذى أهل بائعة اللبن لتكون زوجة لابن حاكم المسلمين ؟ إنه الدين .

نعم . الدين . فالدين ضرورى لكى يحيا الإنسان حياة هانئة مطمئنة فى مجتمع هادىء متماسك تغمره السعادة ، وتسوده المحبة ، وتتردد فى جوانبه أصداء النعيم ، الدين ضرورى لمقاومة الجرائم ، ومكافحة الشرور والرذائل ، والقوانين وحدها لا يمكن أن تطهر المجتمعات مما تموج به من خبث وفساد ، وأنى لها ذلك وهى لا سلطان لها إلا على مايقع تحت قبضتها ، وما يحدث على مشهد من سدنتها .

وأكثر الجرائم تدبر بليل ، وتحاك فى الظلام ، وتقع فى الخفاء ، فلو ترك الأمر للقانون وحده لاحتال المجرمون على التخلص منه ، والتهرب من سلطانه ، والنجاة من أحكامه بالابتعاد عن أعين الرقباء ، وإخفاء معالم الجريمة ، والتزيى بزى الأبرياء . .

ولو ترك الإنسان وشأنه دون دين لاستطاع الهوى أن يتحكم فيه ، ويسيطر عليه ولأمكن لشهوته أن تتغلب على عقله، وتسخره فى خدمتها، فيصبح تفكيره محصوراً فى دائرتها، يتفنن فى سبيل إرضائها وإشباع رغباتها ، ولجاز أيضا أن يتمكن منه الغضب فيجمح به حتى يستبيح انتهاك الأعراض ، وسلب الحقوق ، وسفك الدماء ، واستعباد الضعفاء .

لاسبيل لحماية الأخلاق وصون الآداب ، وحفظ الحقوق ، ووقف العدوان ، ومنع التلاعب إلا بتربية النفوس على الدين ، وطبعها بطابعه ، وصبغها بتعاليمه ، فالدين له حوك فى الصدور وأثر فى القلوب دونه أثر القوانين، الدين نعمة على الفرد والجماعة ، راحة للنفس لأنه يساير فطرتها ، ويوافق طبيعتها وهناءة للمجتمع لأنه يقوى روابطه ويوثق علائقه ، ويزكى عواطفه، ويسير به قدما نحو الخير والفضيلة ، الدين هو الذى يحرك مشاعر الإنسان نحو إخوانه المنكوبين ، وزملائه البائسين فيسارع إلى نجدتهم ويخف إلى معونتهم ، ويضحى بجزء من ماله فى سبيل هناءتهم ، الدين هو عماد التربية ، وحصن الفضيلة ، ويكفى أن دعوته دعوة حارة تمتزج بالعاطفة ، وتختلط بالقلب ، وتسرى فى حنايا الضلوع ، وتخالط اللحم والعظم ، وذلك لأنها تتأسس على الإيمان بالله ، وتقوم على محبته ومرضاته ، وتربط بين العمل والجزاء الدنيوى والأخروى ، فمن فاته الجزاء فى الدنيا لم يفته فى الآخرة .

إن أساس الدين هو الإيمان بالله ، إيمان الناس بإله يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء (يعلم مافى السموات ومافى الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) .

هذا الإيمان إذا تمكن فى القلب ، وسيطر على شعور الإنسان، واستولى على أحاسيسه حال بينه وبين الجريمة فى السر والعلن ، طمعا فى الثواب ،

أوخوفا من العقاب ، أوحرصا على رضا الله ونيل محبته ، فالدين لاريب — أعمق أثرا وأعظم نفعا ، وأكثرفائدة ، فهو يؤدى وظيفته فى جميع الظروف والأحوال ، يرقى بالفرد والمجتمع إلى أعلى درجات الكمال ويحمى حمى الدولة من كل خطر يعرضها للزوال .

الدين جندى أمين ، وحارس يقظ ، يؤدى واجبه فى الليل والنهار ، فى السر والعلن ، وإذاكان هنالك عصر يحتاج إلى الدين فى صيانة الأمن ونشر السلام ، فإنما هو هذا العصر الذى اخترعت فيه القنبلة الذرية وصارت مهمة الأمن الدولى شاقة لايضطلع بها إلا من صفت روحه ، وسلمت فطرته ، وهدأت نفسه ، ونأى عن الغرض والهوى ، وكل ذلك لايتحقق إلا بالتربية الدينية والإيمان بالله واليوم الآخر .

قد يسأل بعض الناس ماتقول فى حكمة عثمان « إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن » ؟ ونقول: إنه لاتنافى بين ماذكره وماندعيه فالقرآن جاء بالسلطان وحث على طاعته فى حدوده التى وضعها . نعم نظر عثمان إلى القرآن وحده كأداة فى الزجر والوعظ ونظر إلى الكثرة الساحقة وكلها خبيث (ولو أعجبك كثرة الخبيث) (وما يؤمن أكثرهم إلا بالله وهم مشركون) (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) .

فأولئك الخبثاء الذين لايدينون بالقرآن أوضعف إيمانهم به — وما أكثر هذا الفريق — لايقومهم سوى رهبة السلطان . ولا ينفع معهم سوى بأس الحاكمين هذه هى وجهة عثمان فى كلمته المأثورة — ولو أنه نظر إلى المتدينين وحدهم ، إلى هؤلاء الذين امتزج الدين بدمائهم ولحومهم فتقشعر جلودهم عندما يسمعون أحدا يقول قال الله أوقال رسول الله ، ويذوبون من خشية الله ، ولا يخشون أحدا : سلطانا أو غيره ، وإنما يخشون الله (الله نزل أحسن

الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) لو نظر رضى الله عنه إلى هؤلاء وحدهم لقال معنا : « إن الله ليزع بالقرآن أقوى مما يزع بالسلطان » .

ولكن أنى لنا بالصالحين والمتدينين الذين يخشون الله فى السر والعلن ؟ (وقليل ماهم) (وقليل من عبادى الشكور) حقا لو تشبعنا بالدين وتمسكنا بآدابه وتشبثنا بأهدابه لرأيناه أظهر أثرا من القانون فى حماية المجتمع ومقاومة الآثام ومحاربة الإجرام .

قد يقول بعض الناس : إن هنالك قوما ينكرون وجود الله وبالتالى ينكرون الأديان ويجحدون فضلها وإن شئت فقل يرونها سيئة الأثر بالغة الضرر — وهؤلاء الذين ينكرون الإله ولايدينون بدين نفر قليل ليس لهم وزن وهم جميعا من الشواذ الذين خرجوا على الفطرة فلم يستجيبوا لنداء العقل وأصموا آذانهم عن سماع هاتف القلب، ومرجع شذوذهم مرض أصاب فطرتهم وانتاب بصيرتهم، نتيجة خرافات شاعت فى بعض الأديان ، ولايدفع هذا أن يكون بعض هؤلاء معروفا بسلامة العقل وقوة المدارك ، فقد يكون الإنسان نابغة فى فن عقيما فى آخر .

يقول الشيخ محمد عبده : « إن الذين ينكرون وجود الله تعالى قليلون فى مجموع البشر فهم مرضى الأرواح أو العقول من هذه الجهة وإن صحت أفكارهم من جهة أوجهات أخرى، ومرض الروح أوالعقل عرض يطرأ على بعض الناس كمرض البدن فمرض الجسد مهما كثر لايعد هو الأصل فى المزاج وكذلك مرض العقل والروح لايعد هو الأصل وإن كثر المرضى به » .

وتأييدا لكلامنا نقول إن سكان الكرة الأرضية يربون على ألفى مليون يعترفون جميعا عدا فئة ضئيلة بإله خالق حكيم ، فهل يمكن أن يكون هذا الإجماع من هذا العدد بعيدا عن الحق وأن يكون زعم هذا النفر الشاذ صحيحا لايعدو الصواب .

إن إجماع هذه الملايين على الاعتراف بالإله فى هذا العصر وفى العصور السالفة ومن بينهم حكماء وزعماء وقادة ومصلحون ، دليل وأكبر دليل على سفه أولئك الجاحدين وخبلهم وضعف إدراكهم خصوصا فى هذه الناحية .

يقول مازينى أحد رجال إيطاليا المعروفين فى محاضراته (واجبات الإنسان) .

« إن الله موجود ولست اليوم أحاول البرهنة على وجوده ، فقد يستلزم ذلك كفرا به وإلحادا . الله موجود لأننا موجودون وهو فينا وفى شعور الإنسانية جمعاء وفى كل مايحيط بها من عوالم وإنا لنشعر بذلك فى كل الأوقات فنشعر به فى ساعات الضيق والشدة كما نشعر به فى حالات السرور والنعمة ولم يكن أول ملحد فى الأرض إلا أحد هؤلاء المجرمين الذين أخفوا جرائمهم عن كل الناس وظنوا أنهم قد يتخلصون بإنكارهم لوجود الله من شهادة الشاهد الذى لاتخفى عليه خافية ، ومن وخز الضمير الذى يلازمهم ويؤنبهم ولعله كان من الجبارين الذين كانوا يعيثون فسادا فى الأرض فتحكموا فى أرواح الناس وفى حرياتهم وحاولوا أن يتحكموا كذلك فى توجيه خضوعهم وعباداتهم فألهوا أنفسهم أو ألهوا ماشاءوا من المواد والطبائع .

ولقد جاء بعد هذا الصنف من الناس آخرون أدى بهم الانحراف الفلسفى وقصر النظر إلى تكوين نظريات إلحادية ولكنهم كانوا من القلة بمكان ، وكان يمنعهم الخجل والحياء من الظهور ، وجاء بعد هؤلاء آخرون أنكروا الله ووجوده لما رأوا من الأفكار البدائية والمبادىء اللامعقولة التى تحيط باسمه والتى تنسب إليه ، ولكن لم يكن ذلك الإنكار إلا لأجل محدود ، لم يتخلصوا أثناءه من كل أنواع العبادات بل عبدوا الطبيعة أو العقل ، ويبغض الآن كثير من الناس الأديان لما اتصل بها من فساد وانحطاط من غير تفرقة بين الخبيث والطيب ، فلما رأوا أن من القسيسين ورجال الدين من يدنس اسم الله لقاء دراهم معدودات ويفاضل بين الله والإنسان ويفضل جانب

الأخير عندما يدعوه نظره القاصر إلى ذلك ورأوا أن الدين قد استعمله القوى أداة بطش وجبروت ليخضع به الضعفاء وذوى الحاجة .

لما رأوا ذلك وأمثاله أنكروا الأديان ، ولكنهم لم يكونوا على حق فى ذلك فليس لنا أن ننكر الشمس وأثرها فى الحياة الأرضية حين يحجبها عنا البخار المتكاثف ، وليس لنا أن نرفض الحرية الشخصية ونلعنها لأن الأشخاص يستغلونها استغلالا سيئا ، وليس لنا أن ننكر الأديان كذلك لأنه قد أسىء استعمالها أودخلها كثيرمن الأباطيل والأكاذيب بفعل الإنسان وذلك لأن لها من القوى الذاتية مايسمح لها بالخلود على الرغم مما يلصقه الناس بها من أباطيل وأوهام ولابدأن يموت الكذب يوماما ولابدأن تفتضح الأباطيل وينكشف أمرها ويبقى اسم الله مطهرا من جميع الأرجاس وخالدا أبد الآبدين وذلك هو سر بقائه الخالد فى النفوس على الرغم مما قد يعتريها من شك وتردد » .

إرسال الرسل

قام الدليل على وجود الله — كما أسلفنا — ومن أبرز الصفات التى يتصف بها المولى سبحانه صفة الحكمة ، وهى صفة يشهد لها هذا العالم الذى يضم بين أطرافه أنواعا متباينة ، وقوى ومواهب متفاوتة ، واستعدادات وخصائص مختلفة ، لكنه على الرغم من هذا يبدو فى وحدة متناسقة يرتبط بعضها ببعض ، ويجد كل منها فيه مايحفظ كيانه ، ويدعم أركانه ، ويفى بحاجاته على نظام رصين وسنن بديع .

وبالتأمل فى طبيعة الإنسان ، والبحث فى أحواله نجد أن المولى خلق فيه قوتين تتجاذبانه قوة تسوقه إلى الشر بما أودع فيه من شهوة وغضب ، وقوة تسوقه إلى الخير بما أودع فيه من عقل وتفكير ، ونلاحظ أنه بين

هاتين القوتين يعيش طول حياته فى صراع دائم ، ونزاع مستمر ، وكثيرا ماتخدعه الدنيا بزخارفها ومفاتنها فيميل إلى جانب الشر وينحرف تجاه الرذيلة، وكثيرا مايصطدم بغيره نتيجة التنافس على مطالب الحياة ، فيختلف ويتنازع وينحرف وتزل قدمه ، وينزلق إلى مهاوى الجريمة من أجل هذا كانت قوة الخير فى حاجة إلى ظهير يعينها ، ونصير يشد أزرها .

فالعقل وحده لايكفى لهداية الإنسان ، ذلك لأنه مهما سما محدود الطاقة يقصر عن معرفة المغيبات ويعجز عن اكتناه عالم الغد ، ويتعسر عليه فهم حياته الدنيوية من جميع جوانبها فى حاضرها ومستقبلها كذلك ليس بممكن أن ننتزع العقل من أحضان البيئة ونستخلصه من براثن الهوى ، وإذا أمكن هذا لفريق من الناس لم يمكن لدى كثير منهم ، والعقول نفسها إن سلمت من المؤثرات الأجنبية تتفاوت فى تفكيرها وتختلف فى فهمها ، وتتباين فى حكمها فهذا يرى الشىء مليحا وذاك يراه قبيحا ، فلو ترك الناس وعقولهم لوقع التضارب والتعارض ، ولو أمكن لجماعة أن يضعوا قانونا يستند إلى محض تفكيرهم لم يكن لهذا القانون فى نفوس الآخرين من الهيبة مايحملهم على الإذعان له والرضا به والابتعاد عن مخالفته ، وإذا احترموه فى الظاهر وأمكن لهم أن يتهربوا منه فى الخفاء لم يتوانوا لحظة واحدة فى الخروج عليه والتنصل منه بل لو قدروا على إلغائه وسن قانون جديد يتمشى مع رغباتهم ويتفق مع ميولهم وأمزجتهم لفعلوا .

لهذا كان لابد من نصير آخر سوى العقل يعين على الخير ، لابد من نصير له قداسة فى نفوس الناس يؤمنون بسلطانه وعلو شأنه ، ويؤمنون بقوته وحكمته ، ومن هنا كانت الحاجة إلى رسالات الله ترشد الناس إلى الخير ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ، وتردع قوى الشر ، وتؤكد مايسهل على العقول إدراكه ، وتوضح مايلتبس عليها فهمه ، وتهدى العباد إلى شئون الآخرة الغيبية وما يتعلق بالحياة الأخرى التى قوى الشعور بها

فى نفوس الجماهير . وتأخذ بيدهم إلى طريق الله ، تعرفهم مايجب له وما يستحيل وما يجوز ، وتظهر زيف العقائد الفاسدة والنزعات الضالة ، والمبادىء المنحرفة ، والتقاليد الممقوتة لتقوم صلات قوية بين العباد بعضهم مع بعض وبينهم وبين الله .

والحاجة إلى الرسالة تقتضى تمشيا مع الحكمة أن يوجد الله أناسا على درجة ممتازة وكفاءة عالية ، ومواهب رائعة يصلحون أن يكونوا موطن سره ، ومهبط وحيه ، ليكونوا دعاة هدى ، ورسل إصلاح .

إن حكمة الله تعالى تأبى أن يدع الإنسان — وهو الذى كرمه وجعله خليفة فى أرضه ومنحه قوة التفكير والتعبير (خلق الإنسان علمه البيان) تأبى هذه الحكمه أن يدع الإنسان هملا ويتركه سدى ، ولايمتن عليه — كما امتن على غيره — بما يحفظ عليه كيانه ، وما يحقق له هناءته ، ويضمن له سعادته .

وتقضى هذه الحكمة بأن يرعى هذا النوع الإنسانى ، ويواليه بما ينفعه ويصلحه ويؤهله لمواصلة السير فى ركب الحياة فى صفاء ومحبة .

ولاعجب إذا علمنا أن الله اتخذ قرارا إلهيا منذ هبط بالإنسان إلى الأرض (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .

وتنفيذا لهذا القرار تتابعت الرسالات وجاءت رسل الله بشرائع وإرشادات (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) (وإن من أمة إلاخلا فيها نذير) .

أرسل الله إلى عباده رسلا من أنفسهم ومن أنفسهم ليكونوا دعاة له ،

وهداة لخلقه ، وليكونوا مثلا طيبة ، وقدوة صالحة ، ونماذج عالية يحتذون بها وليكونوا حجة لله على من أرســلوا إليهم (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) - (الله أعلم حيث يجعل رسالته) (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) — (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) .

إن الإيمان بالله يستتبع الإيمان بالرسل ، والإيمان بالرسل يقوى الإيمان بالله، ويحمل فى طواياه تنزيه الله تعالى عن العبث والظلم والسفه ، ويضع أمام الناس مثلا بشرية عالية يقتدون بها وينهجون على نهجها فى مراقبة الله والإحسان إلى خلقه دون انتظار أجر ، وهذا مما يعين الإنسان على كبح شهواته ومنع نزواته ، والسمو بنفسه ، والبعد عن مواصلة التهم ، كذلك يعين على صفاء النفوس وتآلف القلوب ، وترابط الناس على أساس من المحبة ، وإشاعة السلام فى جنبات الأرض .

ولاريب أن ماشرعه الله مما أوحى به إلى رسله أحكم مما وضعه الإنسان فالمولى هو الذى خلق الإنسان ويعلم ظاهره وباطنه ومايفيده وما يضره قال تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وقال (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) وقال (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) .

وقال (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) وقال (أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ، وقال « وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) .

وسبحانه أعلم بالظروف التى وجد فيها الإنسان وبالكون الذى يعيش فيه قال تعالى (وربك أعلم بمن فى السموات والأرض) وقال (يعلم مابين

أيديهم وماخلفهم) وقال (يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها ومايتزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

وقال (يعلم ما فى السموات وما فى الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم) ، فما يشرعه الله من أحكام يكون أوفى باحتياجات الناس وأكثر انسجاما مع طبائعهم وظروفهم وأصلح لنفوسهم ، ولا يمكن أن يتساوى حكم بشر يتلاعب بهم الهوى ، ويوسوس لهم الشيطان ، وتجمح بهم النفوس بحكم الله العلى القدير الحكيم الخبير الملك القدوس العزيز العليم .

من أجل هذا جاءت رسالات الله ، وتعاقبت شرائعه ، وتتابعت رسله ، وأنزلت كتبه ، تعالج شئون الإنسان وأحواله ومطالبه وظروفه فى كل زمان ، حتى انتهى الأمر إلى محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) .

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

لقد جرت سنة الله أنه يبعث رسله حين تشتد حاجة العالم إليهم ، وحين يضل الناس عن سبيل الله الذى يصلهم بربهم ويصل بعضهم ببعض ، وليعرفهم ماينجيهم فى الآخرة ، فإنهم لايهتدون إلى ما يفيدهم فيها وهى مغيبة عنهم إلا برسول كما لايهتدون فى الدنيا إلى ماينجيهم من سمومها إلا بطبيب .

وجريا على هذه السنة أرسل الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العالم كله بعد أن فسد الناس وضلوا واختلفوا وتقاطعوا وبعد أن اشتدت

حاجته إلى رسالة تصلح العقائد ، وتداوى النفوس ، وتؤلف بين القلوب وتربط الناس بعضهم ببعض ، وتوجههم جميعا فى وحدة منسجمة متآلفة إلى بارئهم وخالقهم ليقوموا بواجب الشكر له على ما أنعم به عليهم ، وأسداه إليهم ، وما أرسل به رسوله من عقائد صافية ، وعبادات هادية ، ومعاملات حكيمة ، وأخلاق كريمة ، وتشاريع قويمة تقوم على أساس من الحق والخير والفضيلة (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) .

محمد صلى الله عليه وسلم

أسماؤه :

له أسماء كثيرة ، وتعدد الأسماء يدل على شرف المسمى ، ومن هذه الأسماء ما رواه جبير بن مطعم رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن لى خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب » أخرجه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى ومالك . وفى رواية الترمذى « أنا العاقب الذى ليس بعدى نبى » .

نسبه :

عن واثلة بن الأسقع يقول : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٧٨٢ وأخرجه الترمذى وأحمد .

وعن مالك بن أنس عن الزهرى عن أنس قال : خطب النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أنا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبدمناف، ابن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرهما فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شىء من عهر الجاهلية وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمى فأنا خيركم وخيركم أبا » .

رواه البيهقى كما فى البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٧٧ ، وبلوغ الأمانى ج ٢٠ ص ١٧٧ ، ونحوه فى طبقات ابن سعد ج ١ ص ٥٥

ونص على هذا النسب ابن القيم فى زاد المعاد ج ١ ص ٤٨ ثم قال ونسبه إلى عدنان «معلوم الصحة متفق عليه بين النسابين ولا خلاف فيه ألبتة ومافوق عدنان مختلف فيه ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وفى النسب الشريف يقول بعضهم :

محمد عبد الله مطلب هاشم — مناف قصى مع كلاب بن مرة
فكعب لؤى غالب مضر مالك — كذا النضر نجل كنانة بن خزيمة
فمدركة إلياس مع مضر كذا — نزار معد ثم عدنان تمت

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

بعد ما قدمنا من حديث عن عقيدة الألوهية وضرورة التدين ، وبعثة الرسل نبدأ فى بيان الشواهد التى تشهد بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله :

(محمد رسول الله) — هكذا نطق القرآن ، والقرآن كلام الله ، (ومن

أصدق من الله حديثا) ، والشواهد المتضافرة المتكاثرة تؤكد صدق رسالته عليه الصلاة والسلام ويكفي أن نتأمل بعمق ونزاهة حال الداعي صلى الله عليه وسلم ثم حال دعوته ثم حال أتباعه المؤمنين به فبالنظرة الفاحصة الخالية من الهوى والغرض يتجلى لنا أنه عليه الصلاة والسلام رسول بحق .

الشاهد الأول

حال الداعي والدعوة

ولنعد إلى العصر الذى نشأ فيه صلى الله عليه وسلم والبيئة التى تربى فيها ، ولنعد إلى سيرته نتأملها وندرسها ، وقد حفظها لنا الرواة وسجلوها حتى كادوا يستوعبون كل حركاته وسكناته كل أفعاله وأقواله ، ماذا نرى ؟

(ا) نرى أنه عليه الصلاة والسلام نشأ فى عصر سادت فيه الجهالة ، وعمت فيه الضلالة نرى أنه شب بين قوم أميين وثنيين غير موحدين يكفرون باليوم الآخر ، ويحيون حياة اللهو يتعصبون للأهل ، ويفتخرون بالأنساب ، ويتقاتلون لأتفه الأسباب ، كانوا قبائل متدابرة وعشائر متناحرة ، لم تكن لهم دولة لها مقومات الدولة من حكومة لها سلطان ، وجيش يدفع العدوان ودستور يفصل الحقوق والواجبات ، وقانون يبين العقوبات ، فى هذا العصر وفى هذه البيئة نشأ عليه الصلاة والسلام .

(ب) ويتحتم علينا أن نعرف حاله صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة وبعدها لنصدر أحكامنا عن بينة :

١ — لقد نشأ عليه الصلاة والسلام راجع العقل ، ثاقب الفكر ، عظيم النفس ، كريم الخلق ، يربأ بنفسه عن السفاسف والنقائص ، وعاش إلى سن الأربعين يتمتع بين قومه بحسن السمعة ، ونباهة الذكر ، مشهورا بينهم بالصدق والأمانة ، يدل على ذلك واقعتان نكتفى بهما :

الواقعة الأولى : ما جرى عند بناء الكعبة فقد اختصمت القبائل فيمن

يضع الحجر الأسود ، كل قبيلة تريد أن تضعه في موضعه فقال أبو أمية بن المغيرة —وهو يومئذ أسنهم— حكموا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل عليكم من باب هذا البيت ففعلوا فكان أول داخل محمداً صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا جميعا وفي صوت واحد هذا الأمين رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر أخذ صلى الله عليه وسلم الحجر ووضعه على ثوب وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف منه ففعلوا حتى إذا رفعوه ودنوا من موضعه وضعه عليه الصلاة والسلام بيده وبنى عليه ، هذه الواقعة تشهد بما كان له في نفوس قومه من مكانة طيبة نتيجة مااشتهر به من صفة الأمانة وعظم الخلق ، كذلك تشهد بقوة عقـــله ، وألمعيته وحسن فطانته ، وبقدرته البالغة على معالجة المشكلات ، وإن بدت أمام الناس مستعصية الحل ، فقد عرف كيف يرضيهم جميعا بحكمة فائقة ، فقد أشركهم جميعا في حمل الحجر ، وفي الوقت نفسه فاز وحده بشرف وضعه .

الواقعة الأخرى : وقد رواها ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين صعد صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي ويابني فهر ، يابني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم ماجربنا عليك إلا صدقا ، قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . قال أبو لهب : تبا لك يامحمد ألهذا جمعتنا ، فنزلت (تبت يدا أبي لهب وتب) » أخرجه الشيخان والترمذي ، هذه الواقعة تشهد ببعد نظره عليه الصلاة والسلام فقد رأى بحكمته أن يعرف رأيهم فيه وظنهم به قبل أن يفجأهم بأمر رسالته ، وفي جو صاف خالص من الكدورات — بعيد عن الشوائب صارحوه وأجابوه على الفور : ماجربنا عليك إلا صدقا(١) .

---

(١) مثل ذلك ماقاله النضر « قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به اتهمتموه » .

من هاتين الواقعتين نستيقن أن الصدق والأمانة صفتان لازمتان لمحمد صلى الله عليه وسلم من قبل الرسالة .

٢ — كذلك نشأ عليه الصلاة والسلام منذ صباه يتحاشى عبادة الأصنام، وينفر من القرب منها فى طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٥٨ « إن قريشا كان لها صنم تنسك له النسائك وتعكف عنـده يوما فى السنة ، وكان عليه الصلاة والسلام يتجنبه ، فقال له عمه أبو طالب وعماته : إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، وفى سفره إلى الشام التقى ببحيرى الراهب فقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ، وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما أو لعله أراد أن يختبره فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم لا تسألنى باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئا بغضهما . قال : فبالله إلا أخبرتنى عما أسألك عنه قال سلنى عما بدا لك ...

قال البيهقى عن محمد بن عمرو بإسناده قال زيد بن حارثة « فوالذى أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما قط حتى أكرمه الله تعالى بالذى أكرمه » .

كذلك نشأ عليه الصلاة والسلام عزوفا عن الملاهى ، وقد هم مرتين أن يسمع عزفا بالغرابيل والمزامير فعصمه الله فيهما وألقى عليه النوم ليلته فما أيقظه إلا مس الشمس . تراجع البداية والنهاية ج ٢ ص ٣١١ ، ٣١٢ (الغرابيل : الدفوف لأنها تشبه الغربال فى استدارته) .

ولما شب ونما عوده حبب إليه الخلاء والتعبد ، أخرج البخارى بسنده عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة « حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاء الحق وهو فى غار حراء » .

مما سلف يتبين بالبرهان أنه ظل إلى عهده بالرسالة مشهودا له بالعقل

الحكيم والخلق الكريم ، والميل إلى حياة الجد ، والبعد عن أماكن اللهو ، والترفع عن عبادة الأوثان .

وهنا — وبعد هذه المقدمة — نسأل أيمكن لهذا الذى عرف بالأمانة واشتهر بالصدق فيما بين الناس أن يتجرأ على الكذب وأن يكون أول من يتجرأ عليه ، الإله الذى يدعو النـــاس إليه ، رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ؟

ونسأل أيضا ولماذا خرج على حكم البيئة ، وللبيئة سلطانها وتأثيرها ؟ لقد عاش أربعين سنة كاملة وسط قوم مغرقين فى الجهالة ، منهمكين فى الضلالة ، فلم تنتقل إليه عدواهم ، ولم تصبه بلواهم ، فنهج منهجا فذا لايشبه منهجهم ، وسلك مسلكا بريئا لايتفق ومسلكهم ؛ وفى جواب السؤال الأول يقضى علينا المنطق السليم أن نقول : إن محمدا صلى الله عليه وسلم الذى كان يتحرى الصدق مع الناس أربعين سنة لايمكن أن يتجرأ على الكذب على ربه ، ذلك الذى كان يخوف الكاذبين من عقابه ويهددهم بعذابه ، فالحق أنه صادق فى دعواه ، وأنه — كما قال — رسول من عند الله ، وفى جواب السؤال الثانى لامناص من أن نقول : إن هناك قوة عليا كان لها سلطان على قلبه ، وحوك فى صدره وأثر فى نفسه ، انمحى أمامها كل أثر للبيئة ، وهذه القوة هى التى صنعته وصقلته وهى التى طبعته على ما نشأ عليه من صفات كريمة واتجاهات سليمة ، إنها قوة الله (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون) .

هـذه حاله قبل الأربعين ، أما حاله بعد الأربعين فنلاحظ أنه بدأ فجأة ودون سبق دعوى منه طيلة الأربعين سنة — نلاحظ أنه بدأ يعلن أنه رسول من عند الله ، ويتحمس فى دعوته ، لايثنيه عنها وعد أو وعيد ، عرضوا عليه المال والملك ، وآذوه واضطهدوه وسلقوه بألسنة حداد ، وكانوا عليه سوط عذاب ، ومع هذا ظل صابرا محتسباً ، ويؤمل الخير ويرجوه لنفسه ولأتباعه ، وتحقق فعلا فى النهاية ما أمله ورجاه : وكلل الله بالظفر مسعاه .

نعم . لقد مرت عليه أربعون سنة ، لايخطر بباله أن يمتن الله عليه بمثل ماامتن به قال تعالى (قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) .

مر عليه شرخ الشباب وهو الوقت الذى تجيش فيه الصدور بالآمال والأمانى ، فلم تبدمنه كلمة فيها تلميح برسالة ، أو إشارة لنبوة وفى الوقت الذى تهدأ فيه النفوس الثائرة ، وتسكن فيه الآمال الفائرة ، بدأ يثور ثورة غيرت مجرى التاريخ ، أعلن أنه رسول الله ، ورسالته لاتقتصر على العرب وحدهم ، ولا على أهل عصره دون سواهم ، بل رسالته عامة تشمل كل الذين فى عهده ، وكل الذين يجيئون من بعده ، (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ونبحث عن مفهوم هذه الدعوة ، ويثير الانتباه أن الذى جاء بها أمى نشأ بين أميين مغرقين فى الأمية لكن أول كلمة وجهت إليه ، وأنزلت عليه كلمة (اقرأ) .

ونعجب بل يعجب هو لهذا الأمر ولكن دهشته تزول على الفور حين يحس بفيوضات من الله تحل به ، ونفحات منه تتنزل على قلبه وبعدها منح من مالك الملك شهادة تخرية رشحته بحق ليكون أستاذ البشرية ، ومعلم الإنسانية ، وهادى البرية ، يرشدها إلى كل خير تحتاجه فى حاضرها ومستقبلها وصدق الله العظيم إذ يقول (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

بقى أن نجوس وسط هذه الدعوة لنتعرف عليها ثم بعد ذلك نبحث عن هدفه منها ، وقصده من تبليغها ثم نبحث عن آثارها فى نفوس الذين آمنوا

بها ، وأخيرا نعرف ما حققته لهم من عز وظفر ، وسيادة وسعادة .

لقد جاء صلى الله عليه وسلم ليربط بين الناس وإله الناس عن طريق العقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة ، فدعاهم إلى الإيمان بالله وحده والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله قال تعالى (يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) وقال (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) .

وكذلك جاء يربط بين الناس بعضهم مع بعض عن طريق المعاملة الكريمة ، والسياسة الحكيمة ، فدعاهم إلى العمل النافع ، والتعاون المثمر ، والعدل البرىء ، والإحسان المجدى ، فلا بطالة ولا تواكل ، ولا تعاون على الشر ولا تعصب للباطل ، ولا عكوف على الشهوات والمنكرات ، ولا عدوان على الحرمات ، ولا إهمال للحقوق والواجبات .

قال تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) وقال (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) وقال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) وقال (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) .

وقال (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

وهنا نسأل ـ : أكان يمكن أن يتلقى دعوة التوحيد من مجتمع وثنى يقول « أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب » ؟ أكان يمكن أن يتلقى عقيدة البعث والإيمان باليوم الآخر من مجتمع يقول (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) .

ويقول فى سخرية واستنكار : (هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد) — ويقول (وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) أكان يمكن أن يتلقى الأمر بأن للفقير حقا على الغنى يجب أن يسلمه من مجتمع يقول (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) ؟

أكان يمكن أن يتلقى هذا التوجيه الكريم (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) أكان يمكن أن يتلقى مثل هذا التوجيه من مجتمع يباهى بالأحساب ويفاضل بين الأنساب ، ولا يسوى بين بنى آدم ويقول كبراؤه فى صلف وكبرياء (لن نؤمن لك حتى تطرد من معك من الفقراء والضعفاء) .

أكان يمكن أن يتلقى الدعوة بالوقوف إلى جانب الحق عن وعى وبصيرة وتقليم ظفر العصبية الجاهلية ، من مجتمع يعيش عليها ، ويفاخر بها ويحارب فى سبيلها ؟

أكان يمكن أن يتلقى الأمر بمحاربة المنكرات من مجتمع يمارس الشرور ، ويعاقر الخمور ، ويبالغ فى الفجور ؟ لقد كان كل شىء يدل على أنه صادق فى دعواه ، وأنه كما كان يقول — رسول من عند الله ، أميته ودعوته، أمى يعلم الأميين بل يعلم المتعلمين إلى يوم الدين وفى كشف ماجاء به من علوم ونظم وقوانين وذخائر رائعات يتخصص النوابغ ليظفروا بأرقى الشهادات :

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

أمى يتخرج من جامعته الإسلامية حكام وساسة وجنود وقادة وفقهاء وحكماء ، وحساب وكتاب ، ومحدثون ومدرسون ، ووعاظ ومفتون ، وقضاة عادلون ، خرجت هؤلاء وهؤلاء وما كان سقفها سوى الجريد وفراشها سوى الحصباء ، ودعوة جامعة لكل خير مانعة من كل شر ، صالحة لكل زمان

ومكان يستبعد العقل أن توحى بها أرض تموج بالشهوات والأهواء ويؤكد الفكر الخصيب أنها وحى من السماء .

الشاهد الثانى

مسارعته إلى ماكان يدعو إليه واشتغال قلبه دواما بذكر الله

ولنعد مرة أخرى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نطالع أخباره وندرس آثاره فسنرى فيها أعظم شاهد على رسالته ، وأقوى دليل على نبوته :

إن الرواة ليجمعون على أنه كان أسرع النـــاس إلى تنفيذ ماجاء به ، وأسبقهم إلى التحلى بما رغب فيه ، والتخلى عما نفر منه ، ولاعجب فقد حفظ قوله تعالى فيما أنزله عليه (قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولاتكونن من المشركين قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ٦ : ١٤ ، ١٥) (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) ٦ : ١٦١ - ١٦٣ (قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين) ٣٩ : ١١ ، ١٢ .

نعم . لقد استجاب النبى صلى الله عليه وسلم لربه ، فكان أول منفذ لتعاليمه ، وكان إماما للمسلمين فى سلوكه ، وفى جميع أحواله ، وفى أقواله وأفعاله ، (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) كان أشد الناس طاعة لله وأكثرهم ذكرا له وأعظمهم خوفا منه .

روى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له » أخرجه البخارى ومسلم .

ولم يكن هذا محض ادعاء بل كان حقيقة واقعة يلبسها أهله وأصحابه فى كل ما بدر منه ، وصدر عنه . أخرج ابن حبان فى صحيحه عن عطاء قال :

قلت لعائشة أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : وأى شأنه لم يكن عجبا إنه أتانى ليلة فدخل معى فى لحافى ثم قال ذرينى أتعبد لربى فقال فتوضأ ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال أفلا أكون عبدا شكورا ولم لا أفعل ؟ وقد أنزل على هذه الليلة (إن فى خلق السموات والأرض واختــلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) إلى قوله (سبحانه فقنا عذاب النار) ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها .

لقد دعا الناس إلى الإيمان بالله ، وطاعته ، وذكره ، وكان ذكره على لسانه وماثلا فى جنانه ، ومتمثلا فى كل أعماله ، وباديا فى كل تصرفاته وجميع حركاته وسكناته .

كان إذا أمسى قال : « أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير رب أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها وأعوذ بك من شرها وشر مابعدها رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب النار وعذاب القبر ، وإذا أصبح قال ذلك أيضا ، أصبحنا وأصبح الملك لله » أخرجه مسلم عن ابن مسعود .

وكان إذا أراد أن ينام قال : « باسمك اللهم أموت وأحيا وإذا استيقظ من منامه قال الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » أخرجه الشيخان عن حذيفة .

وكان إذا دخل المنزل قال : « اللهم إنى أسألك خير المولج وخير المخرج باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا » وهكذا علم أصحابه كما فى سنن أبى داود عن أبى مالك الأشعرى .

وكان إذا خرج من المنزل قال « اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على » أخرجه الأربعة عن أم سلمة .

وكان إذا دخل المسجد يقول « باسم الله والسلام على رسول الله اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج قال باسم الله والسلام على رسول الله اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك » أخرجه أحمد عن فاطمة .

وكان إذا دخل الخلاء قال « اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث » أخرجه الشيخان عن أنس ، وكان إذا خرج من الخلاء قال « الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى » أخرجه ابن ماجه عن أنس ، وقال أيضا « الحمد لله الذى أذاقنى لذته وأبقى فى قوته ، وأذهب عنى أذاه » أخرجه ابن السنى عن ابن عمر .

وكان إذا دخل السوق قال : « باسم الله اللهم إنى أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها اللهم إنى أعوذ بك من أن أصيب فيها يمينا فاجرة أو صفقة خاسرة » أخرجه الطبرانى عن بريدة .

وكان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر قال : « الله أكبر ثلاثا ثم قال سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين (١) وإنا إلى ربنا لمنقلبون اللهم إنى أسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هون علينا سفرنا هذا واطوعنا بعده أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء (٢) السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب فى المال والأهل »

---

(١) ما كنا مطيقين ولا مخضعين لها لولا أن ذللها الله لنا .
(٢) وعثاء : شدة ومشقة .

وإذا رجع قالهن وزاد فيهن (آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون) أخرجه مسلم عن ابن عمر .

وكان إذا جلس فى مجلس لم يقم منه حتى يقول « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله[1] الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا » أخرجه الترمذى عن ابن عمر .

وكان إذا قرب إليه طعام قال باسم الله وإذا فرغ منه قال « اللهم أطعمت وأسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت واجتبيت لك الحمد على ما أعطيت » أخرجه النسائى وأحمد عن خادم للنبى ، وكان إذا أفطر قال: « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » أخرجه الطبرانى عن ابن عباس .

وكان إذا استجد ثوبا قال : « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » أخرجه أبو داود والترمذى عن أبى سعيد .

وكان يعلم أصحابه أن يقولوا إذا أتوا نساءهم « باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا » أخرجه الشيخان عن ابن عباس .

وكان إذا نظر فى المرآة قال « الحمد لله اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى » أخرجه ابن السنى عن على .

وكان إذا رأى الهلال قال : « الله أكبر اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان

---

(١) ضمير (اجعله) المنصوب عائد على المذكور من الاسماع . . الخ والمعنى اجعلها ملازمة لنا عند الموت لزوم الوارث لمورثه أو الضمير عائد على التمتع المأخوذ من متعنا على حد (اعدلوا هو أقرب للتقوى) أى اجعل تمتعنا بها - بوعينا وعملنا بمقتضى ما سمعناه وأبصرناه - باقيا نذكر به بعد وفاتنا .

والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى ربنا وربك الله » أخرجه الدارمى عن ابن عمر ، وفى سنن أبى داود عن قتادة أنه بلغه أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا رأى الهلال قال « هلال خير ورشد هلال خير ورشد آمنت بالله الذى خلقك — ثلاث مرات ثم يقول : الحمد لله الذى ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا » .

وكان إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير مافيها وخير ما أرسلت به » أخرجه مسلم عن عائشة .

وكان إذا رأى سحابة فى السماء قال : « اللهم إنى أعوذ بك من شرها » فإن أمطرت قال « اللهم صيبا هنيئا » أخرجه أبو داود والنسائى عن عائشة .

وكان إذا سمع الرعد والصواعق قال « اللهم لاتقتلنا بغضبك ولاتهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » أخرجه الترمذى عن ابن عمر .

وكان إذا استسقى قال « اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحى بلدك الميت » أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمر .

وكان إذا أراد أمرا قال : «اللهم خر لى واختر لى» أخرجه الترمذى عن قطبة بن مالك، وكان إذا أتاه أمر يسره قال «الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات» وإذا أتاه أمر يكرهه قال «الحمد لله على كل حال» أخرجه الحاكم عن عائشة .

وكان إذا حزبه أمر قال « يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث » أخرجه الحاكم عن أنس .

وكان إذا خاف قوما قال : « اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم » أخرجه أبو داود والنسائى عن أبى موسى الأشعرى .

وكان إذا لقى العدو قال « اللهم أنت عضدى وأنت ناصرى بك أحول وبك أصول وبك أقاتل » أخرجه الترمذى عن أنس .

وكان إذا أتى مريضا أو أتى به قال « أذهب الباس رب الناس أشف وأنت الشافى لاشفاء إلا شفاؤك شفاء لايغادر سقما » أخرجه الشيخان عن عائشة .

وكان إذا خرج إلى المقابر (البقيع) قال « السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم لنافرط وإنابكم لاحقون اللهم لاتحرمنا أجرهم ولاتفتنا بعدهم » أخرجه ابن ماجه عن عائشة .

وكان كثيرا ما يدعو بهذا الدعاء الجامع « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير واجعل الموت راحة لى من كل شر » أخرجه مسلم عن أبى هريرة .

نعم لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم لايغفل عن ذكر الله لحظة بل كان دائم الذكر له فى السر والعلن ، فى الملأ والخلاء ، فى اليسر والعسر ، فى المنشط والمكره ، فى السفر والحضر ، فى الليل وفى النهار ، فى الصباح وفى المساء ، كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه كما روى ذلك مسلم وأبو داود والترمذى عن عائشة .

وهنا يتحتم علينا أن نسائل أنفسنا ما باله كان مشدود القلب بالله ؟ ويتعين أن نقول بعد ما أسلفنا أنه كان ولاريب يتملكه شعور خفى بعظمة الألوهية ، وعز الربوبية وذل العبودية فاتجه إلى الله بجسمه وعقله وروحه ، وأقبل على الله بجوانحه وجوارحه ، وحسه ووجدانه ومثل هذا الشعور المتأجج لايمكن أن يتولد عند مفتر كذاب ، فالكذاب أول من يعرف حقيقة نفسه فإذا غرر بالناس أوأخافهم بما يعلم أنه لاصحة له ، وبما هو نسيج خياله فليس بمعقول أن ينخدع هو أيضا ويهيمن الخوف على كل حواسه ومشاعره .

ويعجبنى فى هذا المقام ماورد فى الإصابة ج ١ ص ١٦٢ ونصه « أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى (الجلندى ملك عمان) عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام فقال لقد دلنى على هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له وأنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يهجر وأنه يفى بالعهد وينجز الوعد وأشهد أنه نبى ثم أنشد أبياتا منها :

أتانى عمرو بالتى ليس بعدها ... من الحق شىء والنصيح نصيح
فقلت له مازدت أن جئت بالتى ... جلندى عمان فى عمان يصيح
فيا عمرو قد أسلمت لله جهرة ... ينادى بها فى الواديين فصيح

نعم إن هذا الشعور الراسخ الموجه ليدل بحق وصدق على عمق إيمانه بالله ، وليؤكد كل التأكيد أنه صادق فى دعواه .

الشاهد الثالث

عزوفه عن الدنيا وأغراضها ومفاتنها

ونعود مرة أخرى فنسأل إذا لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم رسولا فماذا كان يبغى من وراء هذه الدعوى التى جلبت له ألوان العذاب والاضطهاد من شتم بذىء شنيع ، إلى إيذاء شديد فظيع ؟ لقد كان بشهادة خصومه عاقلا حصيفا حكيما فما الغاية التى كان يسعى لها ، ويرجو الوصول إليها ؟ أكان يبغى الملك أم المال ؟

لقد عرض عليه الملك والمال من ربه ثم من كفار قريش فآثر أن يكون عفيفا نزيها ، وزاهدا قانعا ، عن أبى هريرة قال جلس جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل فقال جبريل « إن هذا الملك مانزل منذ يوم خلق قبل الساعة فلما نزل قال يامحمد أرسلنى إليك ربك قال أفملكا نبيا أجعلك أو عبدا رسولا ، قال جبريل تواضع لربك يامحمد ، قال: بل عبدا رسولا » أخرجه أحمد وغيره بسند صحيح .

وعن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت لايارب ولكنى أشبع يوما وأجوع يوما فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك، أخرجه أحمد والترمذى .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن قريشا اجتمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد فقال لهم عتبة بن ربيعة دعونى حتى أقوم إلى محمد فأكلمه فإنى عسى أن أكون أرفق به منكم .

فقام عتبة حتى جلس إليه فقال : يابن أخى إنك أوسطنا بيتا وأفضلنا مكانا وقد أدخلت فى قومك مالم يدخل رجل على قومه قبلك فإن كنت تطلب بهذا الحديث مالا فذلك لك على قومك أن نجمع لك حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت تريد شرفا فنحن مشرفوك حتى لايكون أحد من قومك فوقك ولا تقطع الأمور دونك وإن كان هذا عن لمم يصيبك لاتقدر على النزوع عنه بذلنا لك خزائننا فى طلب الطب لذلك منه وإن كنت تريد ملكا ملكناك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم حم السجدة حتى مر بالسجدة فسجد وعتبة ملق يده خلف ظهره حتى فرغ من قراءتها .

وقام عتبة لايدرى مايراجعه حتى أتى نادى قومه فلما رأوه مقبلا قالوا : لقد رجع إليكم بوجه ماقام به من عندكم فجلس إليهم فقال : يامعشر قريش قد كلمته بالذى أمرتمونى به حتى إذا فرغت كلمنى بكلام لا والله ما سمعت أذناى بمثله قط فادريت ماأقول له . يامعشر قريش أطيعونى اليوم واعصونى فيما بعد ، اتركوا الرجل واعتزلوه فوالله ماهو تارك ماهو عليه وخلوا بينه وبين سائر العرب فإن يكن يظهر عليهم يكن شرفه شرفكم وعزه عزكم وملكه ملككم وإن يظهروا عليه تكونوا قد كفيتموه بغيركم قالوا أصبأت يا أبا الوليد ؟ أخرجه ابن عساكر ، وبمثله وردت روايات أخرى فى الدر المنثور جـ ٥ ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

وفى هذه الروايات عرضوا عليه أكثر من هذا أن يزوجوه بأشرف بناتهم .

هذا كله ينفي عنه أنه كان يريد الدنيا ومظاهرها ، ولم يكن هذا مجرد كلام بل كان حقيقة ملموسة نلمسها فى أول عهده كما نلمسها فى آخر عهده على السواء ، يوم دان له خصومه ، وخضع له أعداؤه ، ووافته الأموال الجمة ، والغنائم التى لا حصر لها .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماشبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه البخارى ومسلم .

وعن أبى هريرة قال : إن كان ليمر بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأهلة مايسرج فى بيت أحد منهم سراج ولا يوقد فيه نار ، إن وجدوا زيتا ادهنوا به ، وإن وجدوا ودكا أكلوه . رواه أبو يعلى .

وعن أبى طلحة قال شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ورفعنا ثيابنا عن حجر حجر على بطوننا فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين . رواه الترمذى ، وعن عبدالله بن مسعود قال : دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى غرفة كأنها بيت حمام وهو نائم على حصير قد أثر بجنبه فبكيت فقال مايبكيك ياعبد الله ؟ قلت يارسول الله كسرى وقيصر يطئون على الخز والديباج والحرير وأنت نائم على هذا الحصير قد أثر بجنبك قال: « فلا تبك ياعبدالله فإن لهم الدنيا ولنا الآخرة وما أنا والدنيا مامثلى ومثل الدنيا إلا كمثل راكب نزل تحت شجرة ثم سار وتركها ، أخرجه الطبرانى .

وعن أبى هريرة قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فوجد أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فسألهما عن خروجهما فقالا أخرجنا الجوع فقال وما أخرجنى إلا الجوع فذهبوا إلى أبى الهيثم بن التيهان فأمر لهم بشعير فعمل وقام إلى شاة فذبحها واستعذب لهم ماء معلقا عندهم فى نخلة ثم أتوا بالطعام فأكلوا وشربوا من ذلك الماء فقال صلى الله عليه وسلم لتسألن عن نعيم هذا اليوم ، أخرجه مسلم ومالك والترمذى .

عن عتبة بن غزوان قال لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومالنا طعام إلا ورق الحبلة حتى قرحت أشداقنا ، أخرجه مسلم والحبلة بضم الحاء وسكون الباء ثمر السمر وقيل ثمرة تشبه اللوبيا .

وفى الشمائل للترمذى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أخفت فى الله ومايخاف أحد ، ولقد أوذيت فى الله ومايؤذى أحد ولقد أتت على ثلاثون من بين ليلة ويوم مالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال » .

وعن أنس بن مالك أن فاطمة جاءت بكسرة خبز إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ماهذه الكسرة يافاطمة ؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى آتيك بهذه الكسرة فقال : « أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » أخرجه ابن سعد فى الطبقات ج ١ ص ٤٠٠ .

عن الحسن عن أنس بن مالك قال : لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم الصوف واحتذى المخصوف وقال : أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعا ولبس خشنا فقيل للحسن : ما البشع ؟ قال : غليظ الشعير ماكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسيغه إلا بجرعة من ماء رواه ابن ماجه ج ٢ ص ١١١١ .

وعن أبى بردة قال : دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزارا غليظا مما يصنع باليمن وكساء من التى يسمونها الملبد قال : فأقسمت بالله أن رسول الله قبض فى هذين الثوبين . أخرجه مسلم ٣ : ١٦٤٩ قال العلماء الملبد هو المرقع .

عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى فى خميصة لها أعلام فنظر إلى أعلامها نظرة فلما انصرف قال : اذهبوا بخميصتى هذه إلى أبى جهم وائتونى بأنبجانية أبى جهم فأنها ألهتنى آنفا عن صلاتى ، أخرجه البخارى .

الخميصة : ثوب فيه أعلام . والانبجانية ثوب من أدون الثياب الغليظة ولا علم فيه . منسوب إلى موضع يسمى أنبجان .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من شعير رواه البخارى ومسلم والترمذى .

هكذا كانت حالته صلى الله عليه وسلم لم ينل من الدنيا سوى القليل ، ولم يستمتع بلذاتها وطيباتها ، وحين سيقت إليه الأموال الوفيرة وزعها عن طيب نفس على أصحابه،وفى مرضه الأخير تقول عائشة رضى الله عنها أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتصدق بذهب ـ كان عندها فى مرضه ـ قالت : فأفاق ، قال : مافعلت ؟ قلت : شغلنى ما رأيت منك قال فهلم بها قال : فجاءت بها إليه سبعة أو تسعة ـ أبو حازم ـ يشك دنانير فقال حين جاءت بها ماظن محمد لو لقى الله وهذه عنده ؟ أخرجه أحمد كما بالمجمع ١٠ : ٢٤٠ .

لقد زهد الدنيا وعلم نساءه كيف يزهدن فيها ؟ وبنته فاطمة وهى بنت خديجة التى أنفقت مالها فى خدمته ودعوته لم يعطها من مال الله مايقضى لباناتها ، ويضمن راحتها .

روى الإمام أحمد بسنده عن على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجه فاطمة بعث معـــه بخميلة (١) ووسادة من أدم (٢) حشوها ليف ورحيين وسقاء (٣) وجرتين (٤) فقال على لفاطمة ذات يوم :

---

(١) خميلة : قطيفة .
(٢) أدم : جلد أو الجلد الأحمر .
(٣) سقاء : وعاء يحمل اللبن أو الماء .
(٤) الجرة : من الخزف معروفه .

لقد سنوت[1] حتى اشتكيت صدرى ، قال : وقد جاء الله أباك بسبى فاذهبى فاستخدميه فقالت : وأنا والله قد طحنت حتى مجلت يداى فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقال ماجاء بك أى بنيه ؟ قالت جئت لأسلم عليك واستحيت أن تسأله ورجعت فقال مافعلت ؟ قالت استحييت أن أسأله فأتيناه جميعا فقال على : يارسول الله والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى .

وقالت فاطمة قد طحنت حتى مجلت (٢) يداى وقد جاءك الله بسبى فأخدمنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة (٣) تطوى بطونهم من الجوع ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم .

هذه فاطمة بنته لم يؤثرها ولم ينفحها بشىء من مال الله كما نفح سواها هذا موقفه منها فى حياته وكذلك كان حالها بعد مماته لقد قال عليه الصلاة والسلام « لانورث ماتركناه صدقة » أخرجه الخمسة إلا الترمذى عن أبى بكر .

اهتمام بالغ بالفقراء ، ورعاية للضعفاء ومن أجل هؤلاء وهؤلاء تناسى نفسه وأهله ، ولم يؤثرهم بشىء فى حياته ، ولم يدخر لهم شيئا بعد وفاته ووكلهم جميعا إلى فضل الله والله ذو الفضل العظيم .

ما باله لم ينعم بالدنيا كما نعم بها اليهودى الذى ارتهن درعه ؟ إنه نبى جاء ليرفع أتباعه عن أن يكونوا عبيد الدنيا عبيد المال جاء ليجعلهم عبيد الله وحده ، يرضون من الدنيا بالقليل ، ويكفيهم منها مايتزودون به للآخرة .

أرأيت موقفه من اليهودى ؟ أرأيت كيف استطاع هذا اليهودى فى أمان ودون خوف أن يطلب من حاكم الدولة ونبى الإسلام رهنا يحفظ له حقه ، ويصون ماله ؟ هذا مثل رائع ضربه الرسول فى حياته ، ووقت حاجته

---

(١) سنوت : استقيت .

(٢) مجلت : ظهر فيها بثر ممتلىء ماء أو قيحا .

(٣) الصفة . موضع مظلل فى مسجد المدينة أوى إليه الفقراء والعجزة .

للقوت ليعلم المسلمين من بعده أن يؤمنوا الناس على أموالهم ولا يزعجوهم فى أملاكهم ، ماداموا سلما للدولة وليسوا حربا عليها .

أرأيت موقفه من بنته وهى فلذة كبده ، وبنت أحب زوجاته إليه ، لقد رفض الرسول أن يعطيها من مال الدولة وفى الدولة من هم أشد منها حاجة وأكثر منها فاقة ، وهذا درس أيضا يلقنه للمسلمين من بعده ليصونوا أموال الدولة من عبث العابثين وطمع الأقرباء والمقربين ، لتصرف فى مصالح المسلمين حسب ماتقضى به الحاجة ، وتستلزمه الضرورة ، أرأيت كيف تم زواج بنت النبى صلى الله عليه وسلم فى تواضع ودون سرف أوبجون؟ ذلك درس نافع يتسلى به أولئك المحرومون .

هذه المواقف كلها تنفى أنه كان له أرب مادى ، أوهدف دنيوى ، ويؤكد هذا النفى أيضا أنه ظل طوال حياته متواضعا .

قالت عائشة رضى الله عنها : كان النبى صلى الله عليه وسلم يرقع الثوب ويقم البيت ويخصف النعل ، ويطحن عن خادمه إذا أعيا ، أخرجه أحمد .

وعن أبى قتادة قال : قدم وفد النجاشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه نحن نكفيك يارسول الله ، فقال : « إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وأنا أحب أن أكافئهم » أخرجه ابن إسحق والبيهقى فى الدلائل .

وذكر المحب الطبرى فى مختصر السيرة النبوية كما فى شرح المواهب ج ٤ ص ٢٦٥ أنه صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عريا إلى قبا وأبو هريرة معه قال ياأباهريرة أحملك؟قال : ماشئت يارسول الله،فقال اركب فلم يقدر أبوهريرة على ذلك فتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعا ثم ركب صلى الله عليه وسلم ثم قال ياأباهريرة أأحملك؟ قال ماشئت يارسول الله فقال اركب فلم يقدر أبو هريرة على ذلك فتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعاً فقال : يا أبا هريرة أأحملك ؟ فقال لا والذى بعثك بالحق لارميتك ثالثا .

وذكر المحب الطبرى أيضا أنه عليه الصلاة والسلام كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة فقال رجل يارسول الله على ذبحها، وقال آخر يارسول الله على سلخها وقال آخر يارسول الله على طبخها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمع الحطب فقالوا يارسول الله نكفيك العمل فقال قد علمت أنكم تكفونى ولكن أكره أن أتميز عليكم فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه .

وعن جرير أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم من بين يديه فاستقبلته رعدة فقال النبى صلى الله عليه وسلم « هون عليك فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » (١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط .

وعن ابن عباس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعقل(٢) الشاة ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير أخرجه الطبرانى .

وعن عبيد الله بن جبير الخزاعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمشى فى أناس من أصحابه فستر بثوب فلما رأى ظله رفع رأسه فإذا هو بملاءة قد ستر بها فقال له مه وأخذ الثوب فوضعه فقال : إنما أنا بشر مثلكم . رواه الطبرانى .

ومن حديث لأنس أنه صلى الله عليه وسلم كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ، أخرجه البخارى ومسلم .

وعن حسين بن على أنه قال : أحبونا بحب الإسلام فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاترفعونى فوق حقى فإن الله تعالى اتخذنى عبدا قبل أن يتخذنى رسولا » رواه الطبرانى .

---

(١) القديد : اللحم المملوح المجفف فى الشمس .
(٢) عقل الشاة : أن يضع رجلها بين ساقه وفخذه ثم يحلبها .

ومن حديث لعائشة أنه صلى الله عليه وسلم قال : آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد ، رواه أبو يعلى .

وعن خارجة بن زيد بن ثابت قال دخل نفر على زيد بن ثابت فقالوا حدثنا ببعض حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال وما أحدثكم ؟ كنت جاره فكان إذا نزل الوحى أرسل إلى فكتبت الوحى ، وكان إذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا وإذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا فكل هذا أحدثكم عنه . رواه الطبرانى .

وعن عمر بن الخطاب أن رجلا نادى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثاً كل ذلك يرد عليه لبيك لبيك رواه أبو يعلى ، ومن حديث لأبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم اشترى سراويل من السوق فذهبت لأحمله فقال صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله ، أخرجه الطبرانى .

وعن أبى أمامة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا على عصا فقمنا له فقال : لاتقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ، أخرجه أبو داود وابن ماجه .

هذه الأحاديث التى سلفت تشهد بأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن طامعا فى ملك أو مال أو جاه وتشهد بعزوفه عن الدنيا وتواضعه طول الحياة فماذا كان يبغى ؟ وما الغاية التى كان يرمى إليها ؟ وهو الحكيم الأريب لاشىء سوى أن ينال رضا مولاه الذى سيطر على جوانحه ، وتملك كل جوارحه لاشىء سوى أن يفوز بحبه ، وينعم بقربه .

أليس هذا كله يدل على أنه مخلص فى دعواه وأنه — كما يقول — رسول من عند الله ؟

الشاهد الرابع

حقيقة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ومرماها وهل يمكن أن يجيء بها أمي؟

° • °

ولنعد مرة أخرى إلى الدعوة التي جاء بها رسولنا (محمد) صلى الله عليه وسلم لنلقى عليها نظرة فاحصة نكشف طبيعتها ومرماها .

وبالبحث والتأمل يتجلى لنا أنها دعوة فطرية مبادئها النظرية توائم كل عقل ، ومبادئها العملية تناسب كل طاقة ، دعوة تلائم الغرائز الإنسانية ، والطبائع البشرية ، دعوة ليس فيها إعنات للفكر ، ولا قهر للذهن ، ولا إرهاق للتصور ، دعوة تستثير في الناس غريزة حب الاستطلاع ليتفهموها وليقفوا على أدلتها ، دعوة تقوم على الحق وتنبني على الخير ، وتهدى إلى الرشد في كل ما جاءت به من أصول أو فروع ، من عقائد وأحكام .

سئل أحد الحكماء لماذا أسلمت؟ فقال : نظرت في الإسلام فلم أجد فيه أمراً يقول فيه أفعل ويقول فيه العقل لا تفعل ، وكذلك لم أجد فيه أمراً يقول فيه لا تفعل ، ويقول فيه العقل أفعل ولكن وجدت كل ما جاء به من أوامر ونواه تطابق عليها العقل والشرع .

هذا ما قاله حكيم فطن ، حاذق لبيب ، وهو قول حق نجد مصداقه في كل ما جاء به الإسلام ، ولنذكر على سبيل المثال :

(١) عقيدة التوحيد : إنها عقيدة سهلة لا تركيب فيها ولا تعقيد ، ولا غموض فيها ولا إبهام ، براهينها ميسورة مستقاة مما يقع تحت حواس الإنسان وفكره وهي واضحة لا تدع مجالا للريب ، ولا منفذا للشك .

في الإنسان عقل مركوز فيه ، وله حواس متنوعة تولد معه ، وهو يعيش في عالم يبهره ويجذب حسه وفكره وبحكم غريزة حب الاستطلاع ينساق الإنسان إلى البحث عن أصله ومنشئه ولا يقتنع عقل سليم بأن يكون هذا

الكون بما فيه من روعة وجمال ونظام وانسجام وليد الصدفة ، وأن ينشأ بدون خالق قوى عليم حكيم يسوى أمره ويدبر شئونه وينسق نظامه ويتعهده دواما بما يحفظ عليه كيانه وقوامه .

وهل يمكن للإنسان مثلا أن يوجد بما فيه من أجهزة مختلفة متلائمة تعمل بلا إرادة منه على مصلحته وعلى حفظ شخصه ونوعه دون صانع خبير بما يحتاجه وما يتطلبه ؟ .

وهل يمكن أن يهب نفسه الوجود بما فيه من حواس وعقل بعد أن لم يكن وفاقد الشيء لا يعطيه وكيف يقدر على إيجاد ما لا يستطيع استبقاءه والاستبقاء أسهل منه .

لابد — إذن — من موجد له وللعوالم المختلفة فحكمها حكمه ، وهذا الموجد لها لابد أن يكون واحدا عليما حكيما ليحفظ على العوالم نظامها وانسجامها، فلو تعددت الآلهة لاختلفت الإرادات فيختل التوازن ويقع الفساد .

وفى التدليل على وجود الله ووحدانيته وعلمه وحكمته وقدرته تأتى آيات القرآن واضحة وضوح الشمس تصادق العقل وتمتزج به قال تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ، (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم) .

(إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) (هو

أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) .

هذه العقيدة فى بساطتها لاتحتاج إلى عناء فى التفكير فالعقول تدركها جيدا وتتقبلها بسهولة ليس هناك عاقل يرضى عقله أن تكون الطائرات توجد وتنطلق وتهبط وتحلق وتنتقل وتعود بطريق الصدفة [1] .

ليس هناك عاقل إلا وهو يعلم أنه ما من صنعة إلا ولها صانع والواحد موجود يقينا فى عقيدة الموحد والمعدد لكن المعدد يزيد عليه ولا يكتفى به والموحد يستغنى به عن غيره وهو فى عقيدته قد بلغ غاية الكمال ، وتنزه عن النقص (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) ومن ليس له مثيل ولا شريك أكمل ممن له مثيل وشريك وصدق الله العظيم إذ يقول (قل لوكان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) .

(ب) عقيدة البعث والإيمان باليوم الآخر وهى ترتبط بعقيدة التوحيد بأوثق الروابط فالإيمان بإله واحد بلغ غاية الكمال يستلزم الإيمان بحكمته البالغة .

ومن الحكمة ألايسوى بين مؤمن وكافر ، وبار وفاجر ،ومحسن ومسىء، فلا بد من يوم تجزى فيه كل نفس بما كسبت ولا استحالة فى البعث فمن قدر

---

(١) أنكر خروشوف وجود الله وسخر من المؤمنين به ونشر تصريحه فى أهرام ١٧ / ٧ / ١٩٥٩ ص ١ ، وبعد يومين نشرت جريدة الشعب ص ١ - ١٩ / ٧ / ١٩٥٩ أن فرسا جمح واتجه نحو خروشوف وكاد يقضى عليه لولا أن تداركه المجتمعون ، وقد ارتجلت يومها ثلاثه أبيات فى حفل دينى :

ألقى خروشوف سؤالا شانه — أين الإله مكذبا برهانه ؟
فعدا الحصان عليه يبغى قتله — ويريد أن يستل منه لسانه
ماكان يمكن أن يحارب ربه — من كان يعجز أن يصد حصانه

على البدء يقدر على الإعادة ، قال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وقال (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقال (أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد) وقال (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) وقال (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وقال (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) .

وأجهزة التسجيل التى وصل إليها العلم الحديث من شأنها أن تقرب إلينا قضية البعث فإذا تيسر على المخلوق إعادة الأصوات وهى أسرع انتهاء من الذوات فكيف يعسر ذلك أو يستحيل على الخلاق ؟

(ج) الإيمان برسل الله : وبينها وبين العقيدتين السابقتين أقوى الأواصر وأمتن الروابط لحكمة الله تأبى أن يوجد الإنسان ويتركه سدى ويدعه هملا ويحاسبه ويعاقبه دون أن يقيم عليه الحجة .

قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) وقال (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) وقال (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) .

هذه عقائد الإسلام الأساسية وهى كما ترى بسيطة واضحة يتقبلها العقل ولا ترهقه عسرا ولا تكلفه شططا بل تتلاقى معه على وفاق وانسجام .

ولهذه العقائد ميزات فعقيدة التوحيد من شأنها أن ترفع شأن الإنسان إلى

المستوى اللائق به فلا تهبط بعقله إلى قبول عقائد خرافية ووثنية ولا تدفعه إلى المذلة أمام مخلوق من المخلوقات ، صغر أم كبر ومن هنا نفهم معنى قول الله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

وعن عقيدة التوحيد أيضا يتولد لدى المسلمين جميعا شعور مرهف بالمساواة،فهم جميعا عبيد لرب واحد ، والتفاضل عنده بالأعمال لا بالأنساب ولا بالألوان ولا بالمال ولا بالجمال (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

والإيمان بالرسل يقتضى الإيمان بما جاءوا به ، وما جاءوا إلا بما يصل العبد بربه ويصله بجميع خلقه ، ويجلب له الهناءة فى دنياه وآخرته .

والإيمان بالبعث والجزاء يزكى نفس الإنسان ، ويدفعه إلى عمل الخيرات وترك المنكرات والبعد عن النقائص وهذا من شأنه أن يوجد الإنسان الفاضل ، والمجتمع الفاضل والدولة الفاضلة .

وإذا علمنا أن الإسلام لا يكره أحدا على اعتناقه (لا إكراه فى الدين) وأنه يلح على الناس أن يفكروا بعقولهم فى آيات الله التنزيلية ويتأملوا بحواسهم فى آياته الكونية — تجلى لنا كيف يفتح الإسلام أمام الإنسان أبواب العالم ليدرك أخباره ، ويكشف أسراره وينال بغيته ، ويستوفى حاجته ، ويستفيد منه فى أخراه بأن يعتبر بما فيه ، ويزداد يقينا بمبدعه وباريه ، وينتفع به فى دنياه بأن يسخره فى أغراضه النبيلة وغاياته الشريفة (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) — (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

مما سبق يتضح أن عقائد الإسلام سمحة سهلة لها أسرار دقيقة ، وآثار عميقة ونتائج بعيدة المدى .

(د) وفى حدود البساطة والسماحة والوضوح التى قامت عليها عقائد الإسلام، فى هذه الحدود نفسها قامت شرائعه ، فكل ما ورد فيه من تكاليف روعى فيه طبيعة الإنسان وطاقته واحتياجاته ومكانه فى العالم الذى يعيش فيه .

عن جابر قال خرجنا فى سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه فى رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال : هل تجدون لى رخصة فى التيمم قالوا : مانجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا فإنما شفاء العى السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده ، أخرجه أبو داود .

لقد عاب الرسول صنيعهم ودعا عليهم لتقصيرهم فى تأمل آية التيمم ففى ختامها يقول تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) ، وبين عليه الصلاة والسلام خطأهم فى الفتوى وخطأ إقدامهم عليها بغير علم ، وأرشدهم إلى الحكم السليم ، والمنهج القويم وقرر أن الإسلام يتمشى مع ظروف الناس ويقدر ضروراتهم ، ويحافظ على حياتهم .

وعن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبى صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم أما أنا فأصلى الليل أبدا ، وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » أخرجه الشيخان .

لقد أكد الرسول بهذا أن الإسلام يراعى طبائع البشر ، ويضمن مصالحهم ، فاعترف بحق البطن فى أن تأكل ، وبحق العين فى أن تنام ،

وبحق الجسم فى أن يستريح ، وبحق الغريزة الجنسية فى أن تجد ما يشبعها فى حدود الكمال .

(ه) تمتاز هذه الدعوة بعمومها لكل الناس وشمولها لمصالحهم الدنيوية والأخروية وآية ذلك :

أنها لم تخص أمة دون أمة ولا جنسا دون جنس بل خاطبت بتكاليفها جميع الأمم والأجناس قال تعالى (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) وقال (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقال (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) .

ولكونها عامة للناس جميعا سوت بينهم ، وأكدت هذه المساواة فى كل المناسبات سوت بينهم فى التكاليف وسوت بينهم فى الجزاء ، فلا محاباة ولا محسوبية قال تعالى (إنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) وقال (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) وقال (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) وقال(ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى) وقال (ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) .

ولكونها عامة للناس أيضا تكفلت بكل مصالحهم الروحية والجسمية ، الفردية والجماعيــة الدنيوية والأخروية ، بينت رسوم العبادات ، وحددت مناهج الصلوات . وراعت صحة الإنسان واهتمت بتقوية الأبدان ، وحاربت الجهل والفقر والمرض والظلم والرذيلة ، ووطدت دعائم الأمن العالمى ، والسلام الدولى ، وربطت بين الناس أفرادا وجماعات ودولا برباط الحب والتعاون المفيد .

فى العبادات والصلاة قال صلى الله عليه وسلم «مامن مسلم يتطهر فيتم الطهارة التى كتب الله عليه فيصلى هذه الصلوات الخمس إلا كانت كفارات لما بينها» أخرجه الشيخان عن عثمان ، وقال «صلوا كما رأيتمونى أصلى» أخرجه البخارى عن مالك بن الحويرث .

وفى الحج قال «خذوا عنى مناسككم» أخرجه الشيخان عن أبى موسى .

وفى محاربة الجهل : أعلن مجانية التعلم قال تعالى (قل لا أسألكم عليه أجرا) وطلب من الأمة أن يرحل نفر منها ليتعلموا وليعلموا بعد ذلك من وراءهم ، قال تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) . وقرر عليهم كتابين وأوجب عليهم دراستهما دراسة واعية ، أحدهما كتاب الكون قال تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وقال (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) والآخر هو القرآن والقرآن دائرة معارف تشتمل على كل علم وتحتوى على كل ألوان المعرفة قال تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) وقال (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) .

وفى محاربة الفقر : أوجب على القادر أن يعمل قال تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقال (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) .

وأوجب على الغنى أن يعين الفقير قال تعالى (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) ودعا إلى التعاون قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) .

وحين يقع المسلمون فى ضرورة ملحة كأن يكونوا بعيدين عن أوطانهم ولا مال ولا زاد لنفر منهم أوجب على القادرين منهم أن يعينوا المحتاجين بما يفضل عنهم .

عن أبى سعيد الخدرى قال : بينما نحن فى سفر مع النبى إذ جاء رجل على راحلة له قال فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ، قال : فذكر من أصناف المال ماذكر حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا فى فضل » أخرجه مسلم .

وفى الصحة قال صلى الله عليه وسلم «إن لجسدك عليك حقا» أخرجه البخارى عن عبد الله بن عمرو ، وقال «سلوا الله العفو والعافية» أخرجه الترمذى عن أبى بكر وقال «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» أخرجه مسلم عن أبى هريرة .

وفى محاربة المرض والمحافظة على البدن أيد مبدأ «الوقاية خير من العلاج» فقال صلى الله عليه وسلم «فر من المجذوم فرارك من الأسد» أخرجه البخارى عن أبى هريرة .

ووضع مبدأ الحجر الصحى قال صلى الله عليه وسلم «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا فرارا منه» أخرجه الشيخان عن أسامة بن زيد .

وأوصى بالعناية بالطعام والشراب والملبس والمسكن ، قال تعالى (كلوا من طيبات مارزقناكم) وقال (يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) وقال (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) وقال صلى الله عليه وسلم «أحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم حتى تكونوا كأنكم شامة[1] فى الناس» أخرجه الحاكم عن سهيل بن الحنظلية .

---

(1) الشامة : الخال أى بثرة سوداء حولها شعر — والمعنى كونوا فى أحسن زى وهيئة حتى تظهروا للناس وينظروا إليكم كما تظهر الشامة وينظر إليها دون باقى الجسد .

وحين يفاجأ الإنسان بداء يطلب منه الإسلام أن يلتمس وسائل العلاج، قال عليه الصلاة والسلام «ياعباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلاوضع له دواء غير داء واحد الهرم» أخرجه الأربعة عن أسامة بن شريك .

وفى نشر الفضيلة ومحاربة الظلم والرذيلة ، يقول تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ويقول (قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) ويقول (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) ويقول فى الحديث القدسى «ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» أخرجه مسلم عن أبى ذر .

وفى توطيد دعائم الأمن العالمى يوصى الإسلام أتباعه بمسالمة الكفار المسالمين ، والوفاء بالعهود معهم ، وبرهم إذا لم تبد منهم بوادر الشر قال تعالى (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) وقال (وأوفوا بعهدالله إذا عاهدتم) وقال (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) .

وحين يسمح بالحرب — وقت العدوان على المسلمين — يحصرها فى أضيق دائرة ، قال تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين) .

ويستجيب لصوت السلم على الفور ودون تردد ، قال تعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) .

ويرسم الطريق المثلى لما ينبغى اتباعه حين يقع الخلاف بين المسلمين قال تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما

على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) .

ومنهج الإسلام فى معالجة الخلافات بين المسلمين هو المنهج الذى تحاول دول العالم أن تأخذ به فى عصرنا الحديث وفى ظلال هيئة الأمم ومجلس الأمن الدولى .

هذه الدعوة الشاملة لكل نواحى الإصلاح على أدق صورة ، وأعظم منهاج ، هل يمكن أن يأتى بها أمى نشأ بين أميين ، كلا والتاريخ على طوله واتساعه لم يسجل هذا لأمى سواه ، فالحق أنه رسول من عند الله .

الشاهد الخامس

موقف الكفار من الدعوة والداعى ونصر الله لهما

تحدثنا عن أسس الدعوة المحمدية ورأينا أنها أسس حكيمة مترابطة يأخذ بعضها بحجز بعض .

وبقى أن نسأل ماذا كان موقف الكفار منها ؟ وهل آمنوا بها عقب إعلانها ؟

لقد كان موقف الكفار موقف مناوأة منذ اللحظة الأولى، مناوأة للداعى ومناوأة للدعوة ومناوأة لمن آمن بالدعوة والداعى .

ناوءوا الرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) حسبوا أن العظمة فى الغنى والجاه ، وأن من لم يكن عظيما — بهذا المعنى — لا يكون خليقا بفضل الله ، ويسارع القرآن بالرد على مقالتهم بعد حكايتها فيقول (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم

أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) .

واتخذت هذه المناوأة مسلكين : مسلك القول ، ومسلك الفعل .

آذوه بالقول كما حدثنا القرآن (قالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) (ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) (ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) .

(وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) .

وآذوه بالفعل كما روى البخارى بسنده إلى عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .

وكما روى مسلم بسنده عن ابن مسعود قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا (١) جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد صلى الله عليه وسلم إذا سجد فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما

---

(١) ما فى حشا الجمل المذبوح .

مجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر لو كانت لى منعة طرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد مايرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت وهى جويرية فطرحته عنه .

كذلك ناؤوا الدعوة ـ كما ناؤوا الداعى ـ ووقفوا فى سبيلها ، وعملوا على تشكيك الناس فيها والقرآن يسجل أساليبهم فى مناوأة الدعوة فيقول (وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون) (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولا يهتدون) (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا الشيء يراد ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق أأنزل عليه الذكر من بيننا) ـ (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين) (وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر) .

وكما ناوءوا الدعوة والداعى ناوءوا أتباعهمـــا ، آذوهم بالقول والفعل وجهوا إليهم أقذع السباب وأبشع الشتائم ، وبالغوا فى الاستهزاء بهم والسخرية منهم .

قال تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) ـ (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ماسبقونا إليه) .

كذلك تفننوا فى تعذيبهم ، وبالغوا فى التنكيل بهم ، عذبوا بالنار عمار

ابن ياسر وأخاه ، وأمه وأباه وذات يوم مر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعذبون فقال « أبشروا آل ياسر موعدكم الجنة » رواه الطبرانى فى الأوسط .

وكان أمية بن خلف يخرج ببلال بن رباح وقت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى الرمضاء ولو وضعت عليها قطعة لحم لنضجت ـ ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول : أحد أحد يمزج مرارة العذاب بحلاوة التوحيد .

وعذب أبو جهل زنيرة حتى عميت فقال المشركون : أصاب بصرها اللات والعزى فقالت : كلا والله فرد عليها الله بصرها ، أخرج قصتها ابن منده وابن أبى شيبة .

وكانت أم انمار مولاة خباب بن الأرت تضع على رأسه الحديدة المحماة عسى أن يرجع عن دينه إلى دين قومه فيأبى ويشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدعو له بخير ويقول « اللهم انصر خبابا » وذات يوم اشتكت مولاته رأسها فكانت تعوى مثل الكلاب فقيل لها : اكتوى ، فكان خباب يأخذ الحديدة المحماة فيكوى بها رأسها ، وهكذا سقاها الله من الكأس التى سقت خبابا بها .

ويحسن هنا أن ننقل حديث البخارى عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة قلنا له : ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا قال : « كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ومايصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب ومايصده عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله عز وجل أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

لقد استمرت مناوأة الكفار للدعوة والداعي والأتباع مدة طويلة ، وكان أنصار الدعوة يتزايدون باستمرار على الرغم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلن دائما « لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا » « إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا » « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » .

تزايد أنصار الرسول صلى الله عليه وسلم إيمانا بدعوته، وتصديقا برسالته.

آمنوا وهم يعلمون أنه ليس له سلطان يهددهم به ، ولا مال يطمعون فيه ، وخرجوا من الكفر وهم يعلمون أن حماته يملكون المال والسلطان ومن قبل عرضوا الملك والمال على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندما رفض بالغوا في الإساءة إليه، والاعتداء عليه ، ولكن اليقين الذي استقر في قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ودفع به عروض الكفار ، وتحمل به أذى الأشرار هو نفسه الذي حمل ذوي العقول الذين تجردوا من الهوى والخوف على أن يقفوا مع دعوة الحق بقيادة الداعي الحق المبعوث من الإله الحق بكلمة الحق فأعلنوا انضمامهم لركب الرسول صلى الله عليه وسلم وهم لا يجدون معه من الوسائل الفاتنة ما يحملهم على الإيمان به ، وخرجوا على الكفر وهم يجدون لديه ما يضطرهم إلى البقاء فيه رغبا أو رهبا .

نعم لقد استمرت مناوأة الكفار للداعي والدعوة والأتباع مدة طويلة وانتهت بمطاردتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ودعوته حتى هاجروا إلى المدينة وبعد الهجرة قامت حروب بينهم وبين الكفار ، وفي الحروب كلها أوجلها هزم خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم وأكرمه الله بالانتصار ، وفي العام الثامن تم له فتح مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وما هي إلا مدة يسيرة حتى توحدت جزيرة العرب ، وصار كل قاطنيها على قلب رجل واحد يدينون بدين واحد ، ويؤمنون بإله واحد وكتاب واحد ويتجهون لقبلة واحدة .

والذين آمنوا بالدين آمنوا به عن اقتناع بصحته ، فقد وجدوه متفقا مع

عقولهم متمشيا مع طبائعهم ، صالحا ومصلحا لأبدانهم وأذهانهم ، وأرواحهم ومجتمعاتهم محققا لهناءتهم وسعادتهم .

وممن آمن به عن اقتناع وفهم (ضماد) روى الإمام مسلم فى صحيحه جـ ٢ صـ ٥٩٣ عن ابن عباس أن ضمادا قدم مكة وكان من أزد شنوءة وكان يرقى[1] من هذه الريح فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون : إن محمدا مجنون ، فقال : لو أنى رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى، قال : فلقيه . فقال : يا محمد إنى أرقى من هـــذه الريح[2] وإن الله يشفى على يدى من شاء فهل لك[3] ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد » .

قال : فقال : أعد على كلماتك هؤلاء فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات .

قال : فقال : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ولقد بلغن ناعوس[4] البحر ، قال : فقال : هات يدك أبايعك على الإسلام قال : فبايعه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلى قومك ، قال : وعلى قومى . قال : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فروا بقومه فقال صاحب السرية للجيش : هل أصبتم من هؤلاء شيئا ؟ فقال رجل من القوم : أصبت منهم مطهرة . فقال : ردوها فإن هؤلاء قوم ضماد .

---

(١) من الرقية وهى العوذة التى يرقى بها صاحب الآفة .
(٢) المراد بها الجنون .
(٣) أى فهل لك رغبة فى رقيتى .
(٤) ناعوس ويروى قاموس والمراد لجته ووسطه .

ومن آمن به بعد أن أدرك فساد عقيدته ، وماجلبته له من شر وخذلان أبو سفيان ، فى فتح مكة أجار العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان ودخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم اذهب به ياعباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به .

قال العباس : فذهبت به إلى رحلى فبات عندى فلما بات غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ويحك ياأباسفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لاإله إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد .

اعترف أبوسفيان بأن أصنامه لم تغن عنه شيئا ولم تجلب له نصرا ولهذا كفر بها ، وآمن بإله محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن شـــاهد نصره له ، وإعزازه إياه .

وقبل هـذا تأكد لأبى سفيان أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم لابد أن يظهر ودينه لابد أن ينتصر .

روى البخارى بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما أن أباسفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش كانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أباسفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء (١) .

فدعاهم وحوله عظماء الروم ثم دعاهم فدعا بالترجمان فقال أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم إنه نبى؟فقال أبوسفيان : قلت أنا أقربهم،فقال: أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ثم قال لترجمانه ، قل لهم : إنى

---

(١) إيلياء : بيت المقدس .

سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه . قال : فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه .

ثم كان أول ماسألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم احد قط قبله ؟ قلت : لا .

قال : فهل من آبائه من ملك قلت : لا .

قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت ضعفاؤهم .

قال : يزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ فقلت : لاونحن منه فى مدة لاندرى ماهو فاعل فيها .

قال : ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة .

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال(١) ، ينال منا وننال منه .

قال : فماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده لاتشركوا به شيئا واتركوا ما كان يعبد آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : إنى سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ؟ فذكرت أن لا فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .

---

(١) سجال : مصدر كالمساجلة بمعنى المناوبة .

وسألتك : هل كان فى آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا فقلت : لو كان من آبائه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا . وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فإن كان ما يقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل ، فقرأه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين[1] و (يا أهل

---

(١) اليريسيين : أتباعه من الفلاحين والمراد أهل مملكته .

الـكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينـكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) » .

قال : قال أبو سفيان فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الـكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلت لأصحابى حين أخرجنا : لقد أمر أمر ابن أبى كبشة [1] ، أنه يخافه ملك بنى الأصفر فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .

هـكذا توقع أبو سفيان ظهور أمر النبى صلى الله عليه وسلم وانتصار دينه . وتحقق ما توقعه وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

لقد جرب الـكفار فى حربه كل سلاح ، وقعدوا له كل مرصد ، وأخيرا عادوا إلى الإيمان برسالته ، والتصديق بنبوته ، والالتفاف حول رايته أيمـكن أن ينصره الله ، وهو كاذب فى دعواه ؟ كلا . فالحق أنه رسول من عند الله .

الشاهد السادس

القرآن : فضله وأثره

تحدثنا عن الدعوة المحمدية ، وتحدثنا عن معارضة الـكفار لها فى البداية، وإذعانهم لها فى النهاية .

ونقول الآن إن الذين أذعنوا لها أذعنوا بدوافع مختلفة .

فمنهم من أذعن لها لأنه رآها دعوة فطرية تتمشى مع العقل ، وتتفق مع المنطق ، وتحقق الخير للفرد والمجتمع .

---

(١) أمر بفتح الهمزة وكسر الميم أى عظم . أمر : شأن أبى كبشة قيل هو أحد أجداد النبى لأمه أو هو كنية لزوج حليمة مرضعة النبى وعادة العرب إذا استنقصوا إنسانا أنهم ينسبونه لجد غامض .

ومنهم من أذعن لها لأنه فشل فى مقاومتها فاقتنع بتأييد الله لها .

وهناك فريق آمن بها ، بعد أن بهرته بلاغة كتابها ، وروعة معانيه ، ودقة ائتلاف ألفاظه ومبانيه وسمو أهدافه ومراميه .

ويلزمنا هنا أن نتبين ما امتاز به القرآن من ميزات ، كان لها أعمق الأثر فى نفوس الذين قرءوه أو سمعوه أو درسوه :

(١) يمتاز بأنه بلغ غاية الكمال فى البلاغة حتى حير العرب فى زمن عظم فيه شأن البيان ، وعرفوا فيه باللسن والفصاحة ، حيرهم وأعجزهم ، وعلى الرغم من أنه تحداهم وأعلن عجزهم ، واشتد فى تقريعهم ، وعنف فى تجريحهم ، على الرغم من هذا كله لم يسعهم فى النهاية إلا أن يستكينوا ، وينغضوا رءوسهم تحت مقامع التبكيت والتحدى مع إبائهم وأنفتهم ، وشدة عداوتهم ، وكمال عدتهم ، وتوفر الأسباب والحوافز التى تثيرهم والآلات التى تعينهم فى تحقيق أمنيتهم .

لقد حاولوا أن يطفئوا هذا النور ، ويحطموا هذه الدعوة بإعلان الحرب عليها ، وقتل الداعين لها .

فما الذى يحوجهم إلى استخدام السنان لو كانوا يستطيعون القضاء عليها باللسان ؟ ألم يكن من الأسهل عليهم أن يعارضوه بسورة ، أوآيات يسيرة ليقطعوا حجته ويدحضوا معجزته ؟ فما بالهم لم يفعلوا وعادوا ، وقد نكسوا رءوسهم وأشهروا إفلاسهم ، ورجعوا إليه خاضعين مستسلمين دون أن يأخذوا عليه عيبا فى أسلوبه ، أو خللا فى تركيبه ، أو ضعفا فى مبانيه ، أو فسادا فى معانيه ، أو نقصا فى أهدافه ومراميه .

لقد صدق الله العظيم إذ يقول : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

(٢) يمتاز بأنه جمع كل ما يحتاج إليه الخلائق فى معاشهم ومعادهم .

لجاء بالعقائد الصافية ، والعبادات الهادية والمعلامات السليمة ، والأخلاق الكريمة والسياسة الرحيمة والمعارف الرائعة ، والتوجيهات النافعة ، والحجج الساطعة .

وفى كل هذا كان يساير العقل ويستثيره وينشطه ويتحاكم إليه ، ويعتمد عليه ولا تجد أمرا من أمور الحياة إلا وقد تعرض له القرآن بطريق العبارة أو الإشارة بالتصريح أو بالتلميح قال تعالى (ونزلنا عليـــك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) .

سأل سائل فقيها من الفقهاء أين تجد فى كتاب الله « خير الأمور أوساطها » ؟ قال : أجده فى قوله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) .

قال : فأين تجد فيه « من جهل شيئا عاداه » ؟ قال : فى قوله تعالى (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) .

قال : فأين تجد فيه « اتق شر من أحسنت إليه » ؟ قال : فى قوله تعالى (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) .

قال : فأين تجد فيه « الجار قبل الدار » ؟ قال : فى قوله (رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة) .

قال : فأين تجد فيه « ليس الخبر كالعيان » ؟ قال : فى قوله (أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) .

قال : فأين تجد فيه « فى الحركات البركات » ؟ قال : فى قوله (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة) .

قال : فأين تجد فيه « حين تغلى تدرى » ؟ قال : فى قوله (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) .

قال : فأين تجد فيه « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ؟ قال : فى قوله (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) .

قال : فأين تجد فيه « من أعان ظالما سلط عليه » ؟ قال : فى قوله (كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) .

قال : فأين تجد فيه « لا تلد الحية إلا حيية » ؟ قال : فى قوله (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) .

قال:فأين تجد فيه « للحيطان آذان »؟قال:فى قوله (وفيكم سماعون لهم) .

قال : فأين تجد فيه « الجاهل مرزوق والعالم محروم » ؟ قال:فى قوله (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) .

قال : فأين تجد فيه « الحلال يأتيك كفافا ، والحرام يأتيك جزافا » ؟ قال : فى قوله (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) .

وأخرج مسلم ٣ : ١٦٧٨ بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال : لعن الله الواشمات [١] والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله .

قال : فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها : أم يعقوب . وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت : ماحديث بلغنى عنك أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ؟ .

فقال عبد الله : ومالى لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى كتاب الله .

فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته .

---

(١) الوشم : غرز إبرة فى ظهر الكف أومكان من البدن حتى يسيل الدم ثم حشوه بالكحل أوالنورة فيخضر ، الواشمة : من تفعله . المستوشمة : من تطلبه . النامصة : التى تزيل الشعر من الوجه . والمتنمصة من تطلب ذلك . المتفلجات : جمع متفلجة وهى من تبرد ما بين أسنانها لتوهم كونها صغيرة .

فقال : لئن كنت قرأتيه لقد وجـــدتيه قال الله عزوجل (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

فقالت المرأة : فاني أرى شيئا من هـذا على امرأتك الآن ، قال اذهبى فانظرى .

قال فدخلت على امرأة عبد الله فلم تر شيئا . فجاءت إليه فقالت : ما رأيت شيئا . فقال : أما لو كان ذلك لم نجامعها ، أى ما صاحبناها بل فارقناها .

وفى القرآن ما يدل دلالة واضحة على ما سيجد بعد عصر نزوله من مخترعات ، وما سيحدث من مكتشفات قال تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) .

(٣) يمتاز بأن ما احتواه من تشاريع يجرى على سنن وسط ، هدفه تحقيق الخير ، وتوقى الشر و صلاح العالم ، فلا إفراط ولا تفريط ، ولا إثم ولا رذيلة ولا فساد ولا خراب .

قال تعالى (يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) وقال (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

وقد شهد بفضله رجال الدساتير والقوانين العصريون على اختلاف أديانهم .

(٤) يمتاز بأن شريعته خالدة ألزم الله بها العالمين إلى أن تقوم الساعة .

ومن أجل ذلك تولى الله حفظه بنفسه ، فلم يترك مهمة حفظه إلى أحد من خلقه ذلك لأن الناس من شأنهم التغيير والتبديل ، ومن قبل استحفظهم الله التوراة فحرفوها قال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم

بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله) وقال (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به) .

ونتيجة لتكفل الله بحفظ القرآن على سبيل التأكيد ظل القرآن فى مأمن من عدوان الخلائق ، فلم يمسسه أحد بسوء قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

(٥) يمتاز بأنه مهيمن على الكتب السابقة ، حكمه فصل وقوله ليس بالهزل فما ذكر أنه حق فهو حق وما ذكر بأنه باطل فهو باطل قال تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) .

(٦) يمتاز بتأثيره العجيب الذى يملك على السامع لبه ، ويجذب قلبه ، ويستحوذ على أحاسيسه ومشاعره ووجدانه ، ونكتفى بذكر هذه الوقائع لندلل على مدى أثره البليغ فى نفوس مستمعيه ، ولا عجب فقد قال تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) .

أخرج ابن إسحق والبيهقى فى الدلائل عن الزهرى رضى الله عنه قال : حدث أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة يستمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى بالليل فى بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فتلاوموا فقال بعضهم لبعض : لاتعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له

حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا - .

هكذا كان القرآن يجذب المشركين إلى سماعه على الرغم من عداوتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم .

وفى إسلام عمر ما يرينا أثر القرآن البليغ فى نفسه وكيف تغلب عليه فحوله من كافر فظ أثيم إلى مؤمن رقيق كريم .

روى ابن إسحق أن عمر بن الخطاب خرج ذات يوم متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ .

فقال : أريد محمدا هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله .

فقال نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض ، وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم .

قال: وأى أهل بيتى؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما .

فقال فرجع عمر عامدا إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها : (طه) يقرئهما إياها فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها . وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما .

فلما دخل قال : ماهذه الهينمة التى سمعت ؟ قال له : ماسمعت شيئا . قال : بلى ، والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه .

وبطش بختنه سعيد بن زيد . فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع مابدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ماصنع فارعوى ، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفاً أنظر ماهذا الذي جاء به محمد . وكان عمر كاتبا .

فلما قال ذلك . قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لاتخافي وحلف ليردنها إذا قرأها إليها فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له : ياأخي إنك نجس على شركك وأنه لايمسها إلا الطاهر فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة ، وفيها (طه) فقرأها ، فلما قرأ منها صدرا . قال ماأحسن هذا الكلام وأكرمه !

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له : ياعمر . والله إني لأرجو أن يكون الله خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب » فالله الله ياعمر فقال له عند ذلك عمر : فدلني ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم . فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب .

فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلال الباب فرآه متوشحا السيف فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع فقال يارسول الله : هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب : ائذن له فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له وإن كان جاء يريد شرا قتلناه بسيفه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائذن له فأذن له الرجل .

ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه فى الحجرة فأخذ حجزته[1] أو بمجمع ردائه ثم جبذه به جبذة شديدة وقال : ماجاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يارسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله .

قال : فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد عزوا .

نعم هكذا كان أثر القرآن فى نفوس المشركين وفى نفس عمر ، لقد استجاب لأخته بعد أن ضربت أروع الأمثال فى الجلد والثبات على الإيمان، استجاب لها فقام مسرعا يطهر ظاهره ثم عاد إليها فى لهفة فقرأ آيات معدودات من مطلع سورة طه فلم يلبث حتى طهر القرآن باطنه ، وسأل بعد أن اجتمعت فيه طهارة الظاهر وطهارة الباطن عن إمام الأطهار الأبرار الرسول المختار فأسرع بالذهاب إليه ، ولم يكد يلتقى به حتى أعلن إسلامه ، وأظهر إيمانه .

والنصارى كان للقرآن الكريم أثر بليغ فى نفوس فريق منهم بعثهم النجاشى إلى النبى صلى الله عليه وسلم غير مستكبرين يريدون معرفة حقيقته ، واكتشاف خبيئته ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس فبكوا حين سمعوا القرآن،وعرفوا أنه الحق وأدركوا أنه الرسول الذى كانوا يقرءون وصفه فى كتابهم فأعلنوا على الفور إسلامهم . ونزل فيهم (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع

---

(١) الحجزة : معقد الإزار ، موضع التكة من السراويل .

الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) .

وفى هذا المقام يلزمنا أن نعود لنتأمل هجرة المسلمين إلى الحبشة وأثرها البليغ.

لقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء فقال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا .

فخرج عند ذلك جماعة من أصحابه مخافة الفتنة منهم من خرج بأهله ومنهم من خرج بنفسه ولا أهل له معه وركبوا البحر ونزلوا فى أرض النجاشى يعبدون الله ولا يؤذون .

فائتمرت عليهم قريش وأرسلوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص بهدايا إلى النجاشى وبطارقته عسى أن يطردهم من أرضه .

ولما وصلا إليه وتحدثا معه أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم فلما جاءوا قال لهم : ماهذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل .

فقال له جعفر بن أبى طالب : أيها الملك . كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات - وعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من الله .

فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ونستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ورجونا ألا نظلم عندك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم . فقال النجاشي : فاقرأه على . فقرأ جعفر عليه صدرا من (كهيعص) فبكى النجاشي ومن معه ثم قال : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ثم قال لرسولى قريش : انطلقا ، فوالله لاأسلمهم إليكما ، وأقاموا عنده بخير دار مع خير جار .

أرأيت إلى أثر القرآن فى النجاشي وقومه ! لقد بكى بكاء حارا عند سماعه وأعلن حمايته ورعايته لأتباعه .

والجن ، كان للقرآن أثر عميق فى نفوسهم ، هبط عليه جن نصيبين وهو فى بطن نخلة فاستمعوا إليه وهو يقرأ سورة الرحمن وقيل العلق فتأثروا به وانتفعوا بمواعظه وعادوا إلى أهليهم يبلغونهم دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، يطلبون إليهم أن يؤمنوا بالله ورسوله وكتابه ويحذرونهم عاقبة كفرهم .

قال تعالى (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لايجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين) .

لقد تأثر الجن بالقرآن وانتفعوا به من أول لحظة ، ولم يكتفوا بأن ينتفعوا به فعادوا إلى أهليهم لينفعوهم وينذروهم ، وهكذا سبق الجن إلى تطبيق قوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) .

لهذه الميزات التى ذكرناها وغيرها أقبل المسلمون على القرآن فى عصر الرسالة بشغف، يكثرون تلاوته، ويستعذبون قراءته، ويتدارسون آثاره، ويتفهمون أسراره، وينفذون تعاليمه، ويطبقون أحكامه، ويبلغون ماتعلموه منه، ويقدمون أنفسهم ـ وأموالهم دفاعا عنه .

كانوا يقرءونه بالليل وبالنهار، وكان الرسول يجلس إليهم، والملائكة ومعها السكينة تنزل عليهم .

عن جابر رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقرأ القرآن وفينا الأعرابى والعجمى . فقال : اقرءوا فكل حسن وسيجىء أقوام يقيمونه كما يقام القدح (١) يتعجلونه ولا يتأجلونه .

وعن سهل بن سعد الساعدى قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقترىء فقال « الحمد لله ، كتاب الله واحد وفيكم الأحمر وفيكم الأبيض وفيكم الأسود اقرءوه قبل أن يقرأه أقوام يقيمونه كما يقوم السهم يتعجل أجره ولا يتأجله » أخرجهما أبو داود .

وعن عمرو بن أوس عن أبيه قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد ثقيف فكان يخرج إلينا فيحدثنا فأبطأ علينا ذات ليلة فقلنا يارسول الله لقد أبطأت علينا فقال: « إنه طرأ على حزبى من القرآن فكرهت أن أقطعه حتى أفرغ منه » فلما أصبحنا سألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة ومابين ق والقرآن المجيد إلى آخر المفصل حزب حسن » رواه الطبرانى فى الكبير .

---

(١) القدح : هو السهم قبل أن يراش وينصل، ومفاد التشبيه أنهم يبالغون فى تحسين القراءة مباهاة وشهرة وطلبا للدنيا انظر المنهل العذب المورود ج ٨ ص ١٦٣

وعن أبي موسى أن النبي صلى الله عليه وسلم هو وعائشة مرا بأبي موسى وهو يقرأ في بيته فقاما يسمعان لقراءته ثم إنهما مضيا،فلما أصبح لقي أباموسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ياأبا موسى مررت بك البارحة ومعي عائشة وأنت تقرأ في بيتك فقمنا واستمعنا . فقال أبوموسى أما أني يارسول الله لو علمت لحبرته لك تحبيرا ، رواه أبو يعلى ، ومعنى حبرته : حسنت صوتي به ، وفي رواية لمسلم « لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود » .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ على القرآن قال فقلت يارسول الله : أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل ؟ قال : إني أشتهي أن أسمعه من غيري فقرأت النساء حتى إذا بلغت (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) رفعت رأسي أوغمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل . أخرجه مسلم .

وعن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال « بينا هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذجالتالفرسفسكت فسكنت . فقرأفجالت . فسكت فسكنت الفرس ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحيى قريبا منها فانصرف فأخره ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال : وتدرى ماذاك ؟ قال : لا . قال : تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر إليها الناس لاتتوارى منهم » . أخرجه البخاري ، وبمعناه عند مسلم .

وعن البراء رضي الله عنه قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوطة بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها ، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له . فقال : تلك السكينة تنزلت للقرآن . أخرجه الشيخان . والشطن : الحبل .

نعم . لقد كانوا يهتمون بتلاوته ، ويعكفون على قراءته ، وكانوا إلى جانب ذلك يتدارسون تعاليمه ، ويتعلمون أحكامه ، ويدركون حدوده .

قال ابن عمر رضى الله عنهما : لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وماينبغى أن يقف عنده منها . أخرجه الحاكم وصححه .

وكانوا يقرنون العلم بالعمل . ويسارعون إلى تنفيذ ماأمروا به ، وترك مانهوا عنه .

قال أنس بن مالك : بينما أنا أدير الكأس على أبى طلحة وأبى عبيدة ابن الجراح وأبى دجانة ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر فسمعت مناديا ينادى ألا إن الخمر قد حرمت قال فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا وأصبنا من طيب أم سليم ثم خرجنا إلى المسجد فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ـ إلى قوله ـ فهل أنتم منتهون) أخرجه ابن جرير .

وعن جابر بن عبد الله قال : كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيعها من المسلمين فحمل منها بمال فقدم بها المدينة فلقيه رجل من المسلمين فقال : يافلان ان الخمر قد حرمت فوضعها حيث انتهى على تل وسجى [1] عليها بأكسية ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله بلغنى أن الخمر قد حرمت قال : أجل . قال : لى أن أردها على من ابتعتها منه ؟ قال : لا يصح ردها . قال : لى أن أهديها إلى من يكافئنى منها ؟ قال : لا . قال : فإن فيها مالا

---

(١) سجى : غطى .

ليتامى فى حجرى قال : إذا أتانا مال البحرين فإنا نعوض أيتامك من مالهم ، ثم نادى بالمدينة فقال رجل يارسول الله الأوعية ينتفع بها ؟ قال : لحلوا أوكيتها [١] فانصبت حتى استقرت فى بطن الوادى . أخرجه أبو يعلى .

لقد سارع الصحابة إلى الامتناع عن الخمر حين نزلت آية التحريم وقالوا بعد أن سمعوا قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) قالوا : انتهينا يارب ، وأهرقوا الدنان حتى جرت فى سكك المدينة ، وتغلبوا على أهوائهم وشهواتهم فلم يعاودهم الحنين إليها وقد كانوا مدمنين حتى هذا التاجر الذى استورد الخمور من خيبر ليبيعها فى المدينة لم تسول له نفسه أن يهربها - كما يفعل تجار الحشيش اليوم - بل احتجزها وبادر بالسؤال عما أشكل عليه ، وحين علم الحكم لم يسعه إلا الاستجابة ، كما استجاب بقية الصحابة .

لقد انطبعوا بحق بعد أن دخلوا فى الإسلام بطابعه ، واصطبغوا بصبغته وأصبحوا إذا أشكل عليهم حكم أو اختلفوا فى أمر يسألون عن حكم الله . (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) .

عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية لايورثون البنات ولا الصغار الذكور حتى يدركوا ، فات رجل من الأنصار يقال له أوس بن ثابت وترك ابنتين وابنا صغيرا فجاء ابنا عمه خالد وعرفطة وهما عصبة فأخذوا ميراثه كله فأتت امرأته رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فقال : لا أدرى ما أقول : فنزلت (للرجال نصيب مما ترك الوالدان ...) أخرجه ابن حبان .

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظى قال : كان الرجل إذا توفى عن امرأته كان ابنه أحق بها أن ينكحها إن شاء إن لم تكن أمه أو ينكحها

---

(١) أوكية جمع وكاء وهو رباط يشد به فم القربة ونحوها من الأوعية .

من شاء ، فلما مات أبو قيس بن الأسلت قام ابنه محصن فورث نكاح امرأته ولم يورثها من المال شيئا فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال: ارجعي لعل الله ينزل فيك شيئا فنزلت هذه الآية (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) ونزلت (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) .

لقد نزل القرآن لينصف الرجال [1] والنساء وليرفع الخلاف ، ويمنع

---

(١) من إنصاف الإسلام ونبيه للمرأة ما رواه البخارى جـ ٥ ص ١٧٤ ، ١٧٥ ومسلم جـ ٤ ص ١٩٤٦ ولفظه عن أبي موسى قال : بلغنا مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لى . أنا أصغرهما أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم إما قال بضعا وإما قال ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلا من قومى قال : فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده فقال جعفر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا هنا وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا قال : فوافقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين افتتح خيبر فأسهم لنا أو قال أعطانا منها وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئا إلا لمن شهد معه إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم قال : فكان ناس من الناس يقولون لنا يعنى لأهل سفينتنا : نحن سبقناكم بالهجرة . قال : فدخلت أسماء بنت عميس وهى ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم زائرة وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر إليه فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت: أسماء بنت عميس قال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ فقالت أسماء : نعم . فقال عمر : سبقناكم إلى الهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم فغضبت وقالت كلمة : كذبت يا عمر كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم وكنا فى دار أو فى أرض البعداء البغضاء فى الحبشة ، وذلك فى الله وفى رسوله وايم الله لا أطعم طعاما =

النزاع ، وما كادت تنزل آياته الفاصلة حتى أعلنوا رضاهم بها وإذعانهم لها .

(إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) .

هذا القرآن الذى استجاب له العرب بعد إباء ، وهاموا به ، وولعوا بحبه بعد عداء هل يمكن أن يكون نتاج عقل أمى نشأ بين أميين ؟ فالحق أنه كلام الله وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله .

دلائل من القرآن

على رسالة النبى صلى الله عليه وسلم

تحدثنا عن المعجزة الإلهية الخالدة معجزة القرآن ، وذكرنا طرفا من ميزاته ، ويهمنا أن نوجه الأنظار إلى ما فى القرآن من دلائل على رسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم وأهمها فى نظرى :

١ — ما تضمنه من أخبار مغيبة لا عهد للرسول صلى الله عليه وسلم بها ، وقد جاءت دقيقة صادقة فمن أين علمها ؟ وما طريق حصوله عليها ؟

= ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن كنا نؤذى ونخاف وسأذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسأله ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك قال : فلما جاء النبى صلى الله عليه وسلم قالت : يا نبى الله إن عمر قال كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بأحق بى منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان قالت : فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونى أرسالا يسألونى عن هذا الحديث « ما من الدنيا شىء هم به أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم » إن الإسلام - كما يوحى هذا الحديث - يسمح للمرأة بأن تحاور الرجال وتجادلهم ، وتتعلم منهم وتعلمهم ويسوى بينها وبينهم فى العمل والأجر فيما لا تختلف فيه طبيعتها وطبيعتهم .

إن معرفة الإنسان بأخبار الأمم لاتكون إلا عن طرق أربعة وهى :

(ا) أن يشاهدها بنفسه . (ب) أو أن يسمعها من غيره .

(ج) أو أن يأخذها من مصادرها التاريخية .

(د) أو أن يتلقاها بوحى إلهى .

وتواريخ الأمم ، وقصص السابقين ، وأخبار الأولين لاسبيل إلى استنباطها بالعقل فهى علم نقلى محض لابد فيه من مصدر إلهى أو مصدر بشرى .

والرسول صلى الله عليه وسلم — كما هو معروف بالبداهة — لم يدرك الأمم الماضية ، ولم يجتمع برسلهم ، ولم يك موجودا فى زمنهم .

والقرآن الذى جاء به حدثنا عن آدم ونشأته ، وما جرى عند ولادته ، وماوسوس به إليه إبليس ، وما وقع له من الهبوط إلى الأرض بعد أن كان فى الجنة .

كذلك حدثنا عن نوح وقومه ، ومالقيه منهم من أذى وسخرية ، ومادعا الله به ، وماأرشده الله إليه من صنع الفلك ، وركوبه مع المؤمنين فيها ودعوته لابنه وعصيانه له ، وانهمار ماء السماء وتفجر عيون الأرض ، وغرق الكافرين ونجاة المؤمنين .

وحدثنا أيضا عن موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وماتم عند ولادته وماوقع له فى مصر ، وماحدث له فى مدين ، ومارآه فى جبل الطور ، وما كلف به من أعباء الرسالة ومادار بينه وبين فرعون من حوار ، وماجرى من السحرة وما انتهى إليه أمر فرعون وملئه ، وموسى وقومه .

وحدثنا أيضاً عن عيسى وأمه عليهما السلام وماوقع لهما من الخوارق وما صنعه لهما بنو إسرائيل من مكائد ، وحدثنا عن غيرهم من الأنبياء فهل كان النبى صلى الله عليه وسلم معاصرا لهم جميعاً ؟ هل طال به العمر فعاصر آدم ، وعاش إلى زمن نوح وموسى وعيسى وسائر الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن ؟ إن هذا لم يكن ، وفى ذلك يقول القرآن :

(وما كنت بجانب الغربى إذقضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) ويقول تعالى : (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) ويقول سبحانه : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعلمها عن مشاهدة ، ولكنه علمها ممن رآها علمها ممن لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء قال تعالى (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) .

قد يقال : إن ذلك ليس بلازم فقد يكون علمها سماعا من غيره من البشر أو نقلا عن كتب التاريخ ونرد على ذلك بأن ما عرف عن النبى صلى الله عليه وسلم ونشأته وبيئته يقتلع هذا القول ويستأصل جذوره .

فقد ولد عليه الصلاة والسلام يتيما فقيراً ، وكان أمياً طول حياته لا يقرأ ولا يكتب كما جاء فى القرآن (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى) (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) .

وعاش عليه الصلاة والسلام بين قوم أميين أجدبت عقولهم واضمحلت أذهانهم وسيطر عليهم الجهل ، وتفشت بينهم الأوهام والخرافات والضلالات ، فليس لديهم مدارس أو معاهد أو جامعات يمكن للنشء أن يتلقى فيها حقائق العلوم وألوان الثقافات .

نعم . لم يكن هناك دور لتعليم الناشئة ولا مجالس لتثقيف الشباب ولا مكتبات يؤمها الطلاب ، وأنى لهم الكتب والقرآن أيام نزوله لم يجدوا له من الورق ما يكفى لتدوينه ؟ فدونوه على الرقاع واللخاف والعظام

والعسب [١] ، وإن كان هناك كتب تاريخية فمن أين حصل عليها ؟ وكيف وقعت فى يد النبى صلى الله عليه وسلم وحده ولم تقع فى يد أحد سواه ؟

صدق الله العظيم إذ يقول (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وصدق إذ يقول (فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) ألا يوجد لديكم عقل تفكرون به وتدركون أنى قضيت معكم أربعين عاما لا أخط حرفا ، ولا أقرأ كلمة ولا صلة لى بأى مصدر من مصادر العلم الإنسانى فكيف لى أن آتى بمثل القرآن وظروف حياتى تستبعد ذلك بل تحيله ؟

قد يقال : إنه تعلمها من اليهود والنصارى ونقول : لماذا لم يظهر هذا المعلم عندما تحدى قومه وقرع مسامعهم جميعا بما فيهم اليهود والنصارى والمشركون؟ لماذا لم يظهر أحد منهم يسكته ؟ حين تلا عليهم (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) لماذا لم يقف أمامه أحد ليقول له إننى على علم بها من قبلك ؟ أو ليقول له : إننى صاحب الفضل عليك فعنى أخذتها ؟ أو ليقول قد رأيناك تختلف إلى فلان لتتعلم منه وتتلقى عنه ؟

وهذا المعلم كيف يدع النبى صلى الله عليه وسلم يحوز هذا الفخار دونه ؟ وكيف تجود به نفسه لمحمد الفقير من غير أجر ويضن به على غيره من أبناء الأثرياء ، وفى مكنته — لو علمهم — أن يأخذ منهم مايشاء ؟ .

وإن كان هذا المعلم البشرى قد بلغ غاية السماحة فما باله كتم العلم عن غير محمد ولم يذعه إلا له ، ولم يعلمه لأحد سواه ؟ .

---

(١) اللخاف جمع لخفة مثل تمرة : وهى حجارة بيض رقاق ـ والعسب جمع عسيب مثل قضيب : وهو جريد النخل المكشوط خوصه كانوا يكتبون فى الموضع العريض منه .

وأهل الكتاب إن كانوا علموه — كما يزعم الحاقدون — ما بالهم سمعوا رده عليهم ودحضه لمفترياتهم ، واتهامه لهم بأنهم حرفوا وبدلوا ولبسوا الحق بالباطل وخرجوا على عقائدهم وشرائعهم ، وجهلوا ما فى كتبهم ، وافتروا على ربهم واشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، ما بالهم سمعوا كل هذا ؟ ولم ينبرى أحد ليقول له : كيف تجهل الذين علموك ، وتطعن فيمن ثقفوك ؟ كيف تقدح فيمن لهم الفضل عليك ؟ وكيف تسيء إلى من أحسنوا إليك ؟

وهل يمكن أن يظن بهم محمد صلى الله عليه وسلم سوءا أو يفند تعاليمهم ويرد كلامهم لو كانت معلوماته مأخوذة عنهم ، ومستمدة منهم ؟ ألا يكون ذلك دليلا على أن له معلما ليس من البشر يتنزه عن الأخطاء ، ويستحيل عليه الجهل والنسيان والافتراء ؟

لنقرأ هذه الآيات التى وردت فى شأن اليهود ، لنقرأها لنلتمس مدى شدة الخصومة وقوة المجادلة ، وصراحة البيان القرآنى ، والكلام الإلهى .

(يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولاتكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) .

(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) .

(وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ، وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) .

(وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) .

(أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) .

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) .

(وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين) .

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) .

لنقرأ هذه الآيات التى وردت فى بنى إسرائيل ولنقرأ تحدى القرآن لهم فى صراحة ووضوح (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم) .

أيمكن أن يصدر هذا التحدى من محمد صلى الله عليه وسلم ؟ أيمكن

أن يقول فى عزم وجزم (ولن يتمنوه أبدا) ؟ وكيف يسارع عقب التحدى إلى النفى المؤبد المؤكد فى ثقة واطمئنان ؟ أكان يمكن هذا لو لم يكن هذا التحدى من قوى قاهر خبير بصير ذى بطش شديد وسع كل شىء علما ؟ لقد كان فى إمكان اليهود أن يدفعوا هذا التحدى بجملة واحدة يسهل عليهم أن يقولوها لولا جزمهم بسوء مغبتها ، ووخامة عاقبتها ، كان يمكن أن يقولوا له جهارا نهارا « نتمنى الموت » كان يمكن أن يقولوها ويملئوا مجالسه ضجيجا وعجيجا لينهوا دعوته ، ويقضوا عليها القضاء الأخير ، وكان ذلك يغنيهم فى إبطال كتاب محمد ، والإجهاز على دينه ، عن أن يتآمروا عليه ، ويدبروا له المكائد تخلصا منه لقد جمدوا أمام هذا التحدى وصمتوا فقامت عليهم الحجة وثبت أن هذا الكلام كلام الله لا كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

لنقرأ بعد هذا ما ورد فى شأن النصارى من الآيات :

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم قل يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل . .

ولنقرأ أيضا تحدى القرآن للنصارى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم

ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) .

لقد دعاهم إلى المباهلة ، وأمرها هين لكنهم رفضوها ولم يسارعوا إليها وكان فى استطاعتهم أن يقيموا بها البرهان على صدقهم فى دعواهم ، فماذا منعهم من الاستجابة ؟ لقد عرفوا أن هذا كلام الله لا كلام محمد فخافوا العاقبة وخشوا المغبة ، فامتنعوا عنها خشية أن تنزل بهم اللعنة وتحل بهم النقمة .

لنقرأ كذلك ما ورد فى القرآن بشأن اليهود والنصارى جميعا :

(وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير) (قل يأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) .

لقد رد القرآن على اليهود والنصارى كما رد على المشركين ، وجبههم جميعا وتحداهم فى كثير من الآيات والمناسبات فهل يمكن أن يكون هذا الكلام مستمدا من هؤلاء أو هؤلاء ، إن هذا لمحض افتراء .

وإذا لم يكن للقرآن مصدر بشرى تعين أن يكون له مصدر واحد هو المصدر الإلهى ومما يومىء إلى هذا جميع الآيات المصدرة بلفظ (قل) فهى تشير من طرف خفى إلى أنه صلى الله عليه وسلم مبلغ عن ربه وليس هذا الكلام من قبل نفسه . نعم إنها تشير إلى ذلك .

ولقد اجتر كثير من اليهود والنصارى والمشركين سائر الاتهامات التى وجهوها للنبى صلى الله عليه وسلم ثم عادوا بعد كثرة المحاورة ، وشدة المخاصمة عادوا إلى تبرئته ، والإيمان برسالته ، والذب عن دعوته ، وتحمسوا فى الدفاع عن دينه ، واسترخصوا بذل الروح والمال فى سبيله .

(٢) والآيات التى جاءت على صورة العتاب أليست دليلا على أن محمدا

صلى الله عليه وسلم بشر يسأل عما بدر منه وصدر عنه .

أليست دليلا على أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه وملزم بتبليغ كل ما أنزله عليه وكلفه به .

أليست دليلا على أن محمدا صلى الله عليه وسلم موضع رعاية المولى ، فهو ينبه أولا بأول على كل ما خالف فيه الأولى ؟ .

نعم . إنه بشر يوحى إليه ، ومأمور بتبليغ كل ما أنزل عليه قال تعالى (يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) قالت عائشة كما فى صحيح البخارى بشرح القسطلانى جـ ٧ ص ٢٩٣ « لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا لكتم هذه » تعنى آية (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) .

نعم لقد جاءت آيات فى مناسبات مختلفة على صورة العتاب، ويبدو للناظر فى القرآن أن آيات العتاب جاءت فى غاية اللطف والرقة وتأمل معى آية الأنفال (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) لقد جاءت فى ثنايا سورة كلها حديث عاطر عن تأييد الله لنبيه وإعزازه لرسوله ونصره فى غزوة بدر وما أدراك ما غزوة بدر إلى آيات أخرى تصرح بفضله عليه الصلاة والسلام (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) .

بعد هذه المقدمات العاطرة تأتى آية (ما كان لنبى ..) بالتنكير على وجه التعميم وفيه من اللطف ما لا يخفى ، وحسبنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يسلك هذا المسلك مع صحابته الكرام ، عندما يحصل من أحدهم ما يوجب الملام ، نقل رجال الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يواجه أحدا بمكروه بل كان يقول « ما بال رجال ما بال أقوام ، ما بال الذين ، ما بال أحدكم ،

ما بال الرجل ما بال العامل ، أنظر الفتح الكبير ٣ : ٨٥ ، ٨٦ ، وما ورد من تعيين الملوم على وجه التنصيص والتخصيص . جرى على مايقال « لكل مقام مقال » ونقتبس من تفسير القرطبي ماقاله بصدد هذه الآية ج ٨ ص ٤٥ ، ٤٦ « والمعنى : ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذى أوجب أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أسرى قبل الإثخان ، ولهم هذا الإخبار بقوله : تريدون عرض الدنيا والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرض الدنيا وإنما فعله جمهور مباشرى الحرب فالتوبيخ والعتاب إنما كان متوجها بسبب من أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ الفدية هذا قول أكثر المفسرين وهو الذى لايصح غيره » انتهى .

كذلك قوله تعالى (وتخشى الناس) جاء فى ثنايا سورة تحدثت عن إكرام الله لنبيه فى غزوة الأحزاب كإكرامه فى غزوة بدر ، لقد أيد الله أولئك الذين ثبتوا مع رسوله فنصرهم بجنود من عنده (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا) - (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا) .

وفى خلال هذه الآيات ، وبين آلاء الله التى شمل بها نبيه صلى الله عليه وسلم تأتى آية (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) ثم تأتى رعاية الله لبيت نبيه صلى الله عليه وسلم (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وفى أعقاب ذلك يأتى قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا

وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) .

نلحظ هنا ما غمره الله به من نعم ، وما أفاضه عليه من منن ، ويكفى أن يذكر الرسول مع الله فى مواطن القضاء والعصيان وأن يصرح بإنعامه إلى جوار ماالله من إنعام - يكفى أن تتوالى الآيات بعد ذلك فى تمجيد وتفخيم للنبى المجتبى الكريم (يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) - (إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) — (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) .

أرأيت أيها القارىء لو أن خطيبا ألقى خطبة طويلة فياضة فى مقدار مناقب إنسان ثم ضمنها كلمة عابرة فى معاتبته ألا يكون ذلك منه غاية فى التلطف والإحسان .

لقد ذكرت هذه العبارة (وتخشى) بين حشد من آيات الثناء ، وسيل من المدح والإطراء بقيت سورة (عبس) وقد أبى الله أن يفجأ نبيه بمطلع يواجهه فيه بمايشق عليه لذلك لم يسند العبوس صراحة إليه فاختار ضمير الغيبة رفقا به وتلطفا معه ومجىء الخطاب بعد مجىء ضمير الغيبة أهون وأدعى إلى القبول ، من أن يتوجه الخطاب بعد الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

دلائل أخرى من القرآن على الرسالة

فيما سبق تحدثنا عن القرآن وميزاته ، وأشرنا إلى بعض ماتضمنه من دلائل على رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ونتابع الحديث فنذكر بعض الدلائل الأخرى التي تشهد بأن هذا القرآن كلام الله تعالى أنزله بحق على نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإلى القارىء الكريم طرفا من ذلك:

١ — لقد احتوى هذا القرآن على أخبار مغيبة أنبأ عنها قبل وقوعها ، ثم جاءت مطابقة لما ورد فيه .

من ذلك قوله تعالى (الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون) .

نزلت هـــذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصى بلاد الروم فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل كما بشر القرآن قبل سبع سنوات من انتصاره على الفرس .

وفى هذا يقول ابن عباس ترجمان القرآن : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب فذكروه لأبى بكر رضى الله عنه فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنهم سيغلبون . فذكره أبو بكر رضى الله عنه لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل بينهم أجلا خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول

الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألا جعلته - أراه قال - دون العشر فظهرت الروم بعد ذلك فذلك قوله (الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) إلى قوله (وهو العزيز الرحيم) أخرجه أحمد والترمذى وحسنه والنسائى والحاكم وصححه .

ومن ذلك قوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) .

نزلت هذه الآية ضمن سورة الفتح سنة ست من الهجرة بين مكة والمدينة عقب انصرافه صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، وكان عليه الصلاة والسلام قد أخبر أصحابه أنه رأى فى منامه أنه دخل مكة وطاف بالبيت فلما جرى الصلح ورجعوا عامهم وقع فى نفس بعض الصحابة من ذلك شيء حتى سأل عمر أبا بكر رضى الله عنهما : أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال بلى . فأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فانك آتيه ومطوف به أخرجه البخارى من حديث طويل .

وفى العام السابع دخل النبى صلى الله عليه وسلم البيت الحرام مع أصحابه وتحققت الرؤيا لأنها وحى منام ، وصدقت الآية لأنها وحى قرآن ، وتأكد للناس حينذاك صدقه عليه الصلاة والسلام .

ومن ذلك قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) .

أخرج الحاكم والترمذى عن عائشة قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية (والله يعصمك من الناس) فأخرج رأسه من القبة فقال : يايها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله .

ومن ذلك قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

لقد مرت قرون طويلة حاول فيها كثير من أهل الزيغ والضلال أن يحرفوا القرآن وآخر المحاولات تلك التى تولى كبرها الصهيونيون كما نشرت جريدة الأخبار يوم ٢١ رجب ١٣٨٠ فقد ذكرت أن إسرائيل طبعت مصحفا محرفا لتوزعه فى البلاد الإسلامية ولكن الله فضحهم ورد سهامهم فى نحورهم وأعاد رماحهم إلى صدورهم وكشف جميع أباطيلهم وأزال عنهم ثقة العالم فلم يعد أحد يطمئن اليهم . أو يأتمنهم ويعتمد عليهم ، فباءوا بالخزى ، والخسران المبين .

ومن ذلك قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) .

هذا الوعد تحقق فقد كانت للمسلمين امبراطورية واسعة الأنحاء وشاسعة الأرجاء ، لايمكن لبليغ أن يصفها بأبلغ ولا بأوجز مما قاله أحد الخلفاء وقد رأى سحابة فى السماء « أمطرى حيث شئت فإن خراجك سيحمل إلينا » .

٢ — ويجرنا هذا إلى الحديث عن أثر القرآن وأثر النبى صلى الله عليه وسلم فى الجيل الذى عاصر الدعـــوة أيامها الأولى ، وبالموازنة بين عصر الرسالة والعصر الذى سبقها يمكن أن نقول فى ثقة ويقين : إن المعجزة الصادقة هى أنه صلى الله عليه وسلم جاء بكتاب كريم إلى قوم أميين فعلمهم الكتاب والحكمة ، وأزال عنهم الضلال والغمة،متعادين فألف بين قلوبهم، وأصلح ذات بينهم ، متأخرين حيث لم يكن لهم دولة ، ولاحكومة ولاجيش ولا دستور فلم يلبثوا بعد تألق نوره إلا يسيرا حتى صارت لهم دولة لها هيبة وصولة ، وصارت لهم حكومة تلى أمورهم وتصرف شئونهم ، وصار لهم جيش يحمى بلادهم ويصد عدوهم ويصون حدودهم ، ويتنقل فى جنبات العالم يحمل إليه رسالة الهدى والنور ، والحق والعدل والخير والرفاهية وسار

لهم دستور يبين لهم الحقوق والواجبات ويدفع عنهم جور الولاة وظلم الطغاة ، وبغى البغاة .

وتامل معى حالة العرب قبل الرسالة المحمدية ألم يزحف أبرهة الحبشى على جزيرة العرب حتى وصل إلى مكة دون أن يجد فى طريقه مقاومة ذات شأن تذكر أومعارضة ذات بال تؤثر ؟ نعم . لقد حدث هذا ، ولوكان لديهم حكومة لعقدت جلسة طارئة تدرس فيها الوضع المثير وتستعرض حال العدو المغير وتتخذ القرارات المناسبة الكفيلة برد العدوان ، وصد الطغيان ولوكان لديهم جيش لأعلن حالة الطوارىء ، واستعد لملاقاة العدو استعدادا يضمن له النصر ويدفع عنه اللائمة ويرد عنه قالة السوء .

كل ما حفظه التاريخ لهم أنهم تناصحوا أن ينصرفوا إلى الجبال والشعاب والأودية ، وتركوا بيوتهم وتركوا بيت الله وهو فخرهم الذى به يفتخرون وعزهم الذى به يعتزون ، وأملوا فى الله أن يحفظ بيته ، ويحمى كعبته فقالوا « للبيت رب يحميه » وحقق الله أملهم ، وصدق ظنهم . فأرسل إلى الأحباش طائرات ربانية وقذائف إلهية فجعلتهم كعصف مأكول .

هذا ماسجله التاريخ قبل الرسالة ، فلنتأمل ماسجله بعدها ، لقد صارت لهم دولة منظمة تنعم بحكومة عادلة ، ودستور شامل ، وجيش منظم يقبل ولايدبر ويكر ولايفر ، كيف وقد حفظوا قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) :

بعث الرسول بأمة أميـة	لا حاكمون بها ولا حكماء
ماعندهم جيش يصد عدوهم	ولذاك يوم الفيل عز لقاء
فروا من الميدان وانسحبوا بلا	حرب فقامت فتنة شعواء

قالوا لهذا البيت رب قادر ... يحميه مما بيت الأعداء
فإذا برب البيت يصدر أمره ... للطائرات فيستحر بــلاء
ألقت قذائفها فنالت مقتلا ... منهم وأصحاب الحمى شهداء
قد كان هذا حال أمة يعرب ... لكنهم بعد الهـدى سعداء
تركوا الهوى وتوحدوا فى دولة ... قد نظمت ويديرها نجباء
الذكر دستور وفيها حاكم ... ولهـا جيوش قادها بسلاء
هزوا عروش الروم والفرس الألى
كانت لهم مدنيــة زهراء

حقا لقد كان للقرآن الكريم والرسول العظيم أثر وأى أثر ، فقد أسسا دولة وأقاما أمة وشيدا حضارة،ويكفى أن تخرج الجامعة النبوية أفواجا تسلموا زمام البلاد التى فتحوها فأبرزوا كفاءة فى كل ناحية من نواحى الحياة واستطاعوا أن يقنعوا الناس بالقول والفعل على أن الإسلام دين الوجود والخلود ، دين العلم والمعرفة ، دين الخير والفضيلة ، دين السلام والعدل ، دين القوة والحكمة دين الهدى والحق .

ويحار الحصيف اللبيب فى أمر هذه الجامعة حين يعلم أنها لم تتكلف فى مبناها ومحتواها ماتتكلفه جامعات العصر الحديث ومع هذا خرجت رجالا تعجز جامعات اليوم عن أن تخرج أندادهم ، خرجت ساسة وقادة ، وقضاة وولاة ، ومدرسين ومفتين ، وفقهاء وحكماء ، وجنودا بسلاء ، ونوابغ مبرزين فى كل شأن من شئون الدنيا والدين ، خرجت هؤلاء النابهين ، وما كان لهم من أستاذ سوى النبى العظيم ، وما كان لديهم من كتاب سوى القرآن الكريم .

وتسأل أيها القارىء الكريم عن أهم الصفات التى حرص القرآن على أن يربى عليها أتباعه وكان لها الفضل فى إحراز النصر وبلوغ الغاية ، وقيام

دولة الإسلام ومنعتها وأهمها - فى نظرى - الزهد فى الدنيا والحرص على الدين وما يتبع ذلك من شجاعة ورغبة فى الشهادة وإيثار وتضحية وجهاد بالنفس والنفيس .

وتأمل معى أيها القارىء هذه الآية لتعرف علام رباهم القرآن ؟ قال تعالى (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين) .

لقد عرف الرسول صلى الله عليه وسلم فضل هذه الآية فتخلق بها ، وحرص على أن يصوغ أصحابه فى قالبها فكانت جل وصاياه تدور فى فلكها ، وتسير على ضوئها واستجاب له أصحابه حتى أصبحوا مضرب الأمثال فى التضحية والفداء ، والبذل والعطاء والتفانى فى الدين ، والإعراض عن الدنيا .

عن أبى عثمان النهدى أنه قال : بلغنى أن صهيبا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش أتيتنا صعلوكا حقيرا فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك والله لايكون ذلك ، فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا نعم . قال فإنى جعلت لكم مالى . قال : فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ربح صهيب .

وروى البخارى فى أول كتاب البيوع عن عبد الرحمن بن عوف قال لما قدمنا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبين سعد بن الربيع فقال سعد بن الربيع : إنى أكثر الأنصار مالا فأقسم لك نصف مالى . وانظر أى زوجتى هويت نزلت لك عنها فإذا حلت تزوجتها قال فقال عبد الرحمن : لاحاجة لى فى ذلك — وفى رواية أخرى : بارك الله فى أهلك ومالك هل من

سوق فيه تجارة ؟ قال سوق قينقاع — وفى الحديث أنه ربح وتزوج ورآه النبى صلى الله عليه وسلم فقال أولم ولو بشاة .

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم حض على النفقة والحملان فى سبيل الله ليتأهبوا لغزوة تبوك ، فكان أبو بكر رضى الله عنه أول من لبى فجاء بماله كله أربعة آلاف درهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، وجاء عمر بنصف ماله فسأله هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ قال نعم نصف مالى . وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية ، وجاء عثمان بن عفان بألف دينار فقال صلى الله عليه وسلم اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض . وفى رواية الترمذى قال ماضر عثمان ماعمل بعد اليوم .

هذه أمثلة وغيرها كثير فى عهد الصحابة يشهد بإعراضهم عن الدنيا ، وبذلهم مالهم فى سبيل إعلاء كلمة الدين . أما أخبارهم فى الجهاد والاستشهاد فهى رائعة حقاً ، وتاريخهم حافل بها .

فى غزوة بدر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرضهم ، وقال : والذى نفس محمد بيده ، لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ، فقال عمير بن الحمام وفى يده تمرات يأكلهن : بخ بخ . أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

ركضا إلى الله بغير زاد   وكل زاد عرضة النفاد
إلا التقى وعمل الميعاد   والصبر فى الله على الجهاد

وسأل ابن عفراء وهو عوف أو عوذ بن الحارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ما يضحك الرب من عبده ؟ قال غمسه يده فى العدوا حاسرا فنزع درعاً كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

وفى صحيح البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال : بينا أنا واقف فى الصف يوم بدر نظرت عن يمينى وعن شمالى فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيت أن أكون بين أصلح منهما . فغمزنى أحدهما فقال : ياعم — هل تعرف أبا جهل ؟ قلت نعم . ما حاجتك إليه يابن أخى ؟ قال : أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لئن رأيته لايفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا — فتعجبت لذلك فغمزنى الآخر فقال لى مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول بين الناس فقلت : ألا إن هذا هو صاحبكما الذى سألتمانى فابتدراه بسيفيهمافضرباه حتى قتلاه ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه فقال أيكما قتله ؟ قال كل واحد منهما أنا قتلته . قال : هل مسحتما سيفكما ؟ قال : لا . فنظر فى السيفين فقال كلاكما قتله .

وفى هذه الغزوة قاتل عكاشة بن محصن بسيفه حتى انقطع فى يده فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه جذلا من حطب فقال : قاتل بهذا ياعكاشة ، فلما أخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم هزه فعاد سيفا فى يده فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين .

مع المؤمنين بالقرآن والرسالة

مما لاشك فيه أن أثر القرآن فى أتباعه كان معجزا حقا ، فقد ثقف عقولهم وقوم أخلاقهم وصقل نفوسهم ، وطهر أرواحهم ، ونظمهم جميعا فى عقد واحد ، يؤمنون بدين واحد ويذعنون لرب واحد ، ويلتفون حول رسول واحد ، ويتجهون إلى قبلة واحدة فوحد بينهم فى الشعار والشعور والمبدأ والغاية وجعلهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

وعلى هذا الأساس الذى رباهم عليه القرآن قامت الوحدة العربية الإسلامية ، وانطلقت تبشر بدين الإسلام والسلام ، والإيمان والأمان ، فمكن الله لهم فى الأرض ووضع فى يدهم مقاليد العالم ، وجعلهم سادة الدول وقادة الأمم ، وقد ساعد على ذلك أن القرآن رباهم على الزهد فى الدنيا والتفانى فى الدين ، والتضحية فى سبيله بالنفس والنفيس ، وقد مرت بعض الأمثلة ، ونذكر اليوم شواهد أخرى :

كان خباب بن الأرت حدادا يصنع السيوف وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يألفه ويأتيه فأخبرت مولاته بذلك فكانت تأخذ الحديدة المحماة فتضعها على رأسه فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « اللهم انصر خبابا » .

فاشتكت مولاته أم أنمار رأسها فكانت تعوى مثل الكلاب فقيل لها اكتوى فكان خباب يأخذ الحديدة المحماة فيكوى بها رأسها .

كذلك كان بلال يعذبه أمية بن خلف ويتابع عليه العذاب ، وكان أبو جهل يبطحه على وجهه فى الشمس ويضع الرحا عليه ويقول لاتزال هكذا حتى تكفر برب محمد فيتضجر بلال ويقول :

أحد . . . أحد يمزج مرارة العذاب بحلاوة التوحيد .

وأم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم تروى لنا ماحدث لها أثناء الهجرة فتقول :

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لى بعيره ثم حملنى عليه وحمل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى ثم خرج بى يقود البعير .

فلما رأته رجال بنى المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتك هذه علام نتركك تسير بها

فى البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذونى منه .

قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة . فقالوا : لا والله لانترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

قالت : فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة .

قالت : ففرق بينى وبين زوجى وبين ابنى : قالت فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أمسى سنة أو قريبا منها . حتى مر بى رجل من بنى عمى فرحمنى . فقال : ألا تخرجون هذه المسكينة ، فقالوا لى الحقى بزوجك إن شئت . قالت : فرد إلى بنو عبد الأسد عندئذ ابنى ، قالت فأخذت ولدى وارتحلت بعيرى ولحقت بزوجى .

وفى غزوة أحد أراد عمرو بن الجموح أن يشهد الغزو كان شديد العرج وكان له بنون أربعة يشهدون جميعا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد فأرادوا أن يحبسوا أباهم ليمنعوه من الغزو ، فشكاهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : وسأل الله أن يطأ بعرجته فى الجنة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك وقال لبنيه ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة فخرج معه فقتل يوم أحد على الإسلام ، بعد أن كان شديد التعصب لدين قومه . يروى أنه كان قد اتخذ فى داره صنما من خشب يعظمه فلما أسلم فتيان بنى سلمة معاذ ابنه ومعاذ بن جبل كانوا يدخلون على صنم عمرو فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة فيغدو عمرو فيجده منكبا لوجهه فى العذرة -فضلة الناس- فيأخذه ويغسله ويطيبه ، ويقول لو أعلم من صنع هذا بك لأخزينه ففعلوا ذلك مرارا ثم جاء بسيفه فعلقه عليه وقال إن كان فيك خير فامتنع فلما أمسى أخذوا كلبا ميتا فربطوه فى عنقه بحبل ، ورموه فى بئر بها عذرة ،

وأخذوا السيف فأصبح فوجده كذلك فأبصر رشده وأسلم وقال فى ذلك أبياتا منها :

تالله لو كنت إلها لم تكن أنت وكلب وسط بئر فى قرن(١)

وفى غزوة أحد يتجلى فضل أنس بن النضر رضى الله عنه ، وندع أنس بن مالك يحدثنا عنه فيقول : غاب عمى أنس بن النضر رضى الله عنه عن قتال بدر فقال يارسول الله . . غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع .

فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعنى أصحابه — وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء — يعنى المشركين — .

ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : ياسعد بن معاذ الجنة ، ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أحد .

قال سعد : فما استطعت يارسول الله ما صنع .

قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أوطعنة برمح ، أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ، وقد مثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه .

قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه (من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه) إلى آخر الآية ، وقال إن أخته وهى تسمى الربيع كسرت ثنية امرأة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص فقال أنس يارسول الله ، والذى بعثك بالحق لاتكسر ثنيتها فرضوا بالأرش وتركوا القصاص فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) القرن : الحبل .

« إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » أخرجه البخارى .

وفى هذه الغزوة أيضا ظهر فضل حنظلة بن أبى عامر وفرق شاسع بين الولد وأبيه فأبوه لم يتحمل أن يعيش فى المدينة فهاجر إلى مكة وألب أهلها على النبى صلى الله عليه وسلم وقدم معهم يوم أحد وحفر حفرا وقع فى إحداها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سماه الرسول بالفاسق .

ولكن من ظهره خرج حنظلة كما جادت يد الشوك بالورد ، لقد بلغ حنظلة أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يستعدون للجهاد فأسرع إلى الخروج وظل يقاتل مستميتا حتى قتل فى سبيل الله ، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الملائكة تغسله فسألوا زوجته . فقالت : لقد سمع الهائعة فخرج على عجل وهو جنب ، فقال صلى الله عليه وسلم لذلك غسلته الملائكة .

وفى هذه الغزوة أيضا مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بامرأة من بنى دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد فلما نعوا لها قالت فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيرا يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين قالت أرونيه حتى أنظر إليه قال : فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك صغيرة .

وبعد غزوة أحد قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم رهط من عضل والقارة قالوا يارسول الله : إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرءوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم نفرا من بينهم عاصم بن ثابت ، وزيد بن الدثنه ، وخبيب بن عدى ، حتى إذا كانوا على الرجيع ماء لهذيل غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف . فأما عاصم فقد قاتل القوم حتى قتل وأبى أن يقبل عقدا أو عهدا ، وبعد مصرعه أرادت هذيل أن تأخذ رأسه لتبيعه من سلافة بنت سعد ،

وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد : لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفه (١) الخمر ، فمنعته الدبر (٢) فانتظروا حتى المساء فبعث الله الوادى فاحتمل عاصما فذهب به فلما سمع به عمر قال : يحفظ الله العبد المؤمن — كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا فمنعه الله من المس فى مماته كما امتنع فى حياته .

وأما زيد بن الدثنه وخبيب بن عدى فاستسلما وثوقا بعهودهم فأسروهما ، وخرجوا بهما إلى مكة فابتاع صفوان بن أمية زيدا ليقتله بأبيه ، وحين قدم ليقتل قال له أبو سفيان : أنشدك الله يازيد أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟ قال : والله ماأحب أن يؤذى محمد بشوكة فى قدمه . فقال أبو سفيان : مارأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ، ثم قتله نسطاس مولى صفوان .

وأما خبيب فقد حبس عند ماوية ، وننقل للقراء نص حديثها قالت بعد أن أسلمت : كان خبيب عندى حبس فى بيتى فلقد اطلعت عليه يوما وإن فى يده لقطفا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ، وما أعلم فى أرض الله عنبا يؤكل ، وحين حضره القتل طلب إلى أن أبعث إليه بحديدة يتطهر بها ، فأعطيت غلاما موسى ليدخل بها عليه قالت فلما ولى الغلام قلت : ماذا صنعت : أصاب — والله — الرجل ثأره يقتل هذا الغلام فيكون رجلا برجل ، قالت : ففزعت فزعة عرفها خبيب ، فقال : أتحسبين أنى أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك .

فلما خرجوا بخبيب ليصلبوه: قال دعونى أركع ركعتين ففعلوا فقال: أما والله لو لا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة

---

(١) القحف : العظم فوق الدماغ .
(٢) الدبر : الزنابير والنحل .

ثم قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا ثم دعا عليهم وقال : اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ، وأنشد أبياتا من الشعر منها :

لقد جمع الأحزاب حولى وألبو قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد خيروا فى الكفر والموت دونه
وقد هملت عيناى من غير مجزع
ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

وعقب ذلك قام إليه أبو سروعة عقبة[1] بن الحارث فقتله، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر فأرسل إليه أمية الضمرى فأطلقه من خشبته فوقع على الأرض فابتلعته فما عرف مكانه بعد . ولنطالع أخيراً حديث الأبطال الثلاثة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة .

لقد أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم على جيش قوامه ثلاثة آلاف جندى بعث بهم إلى مؤتة فلما بلغوها وجدوا هرقل الروم قد جمع لهم مائتى ألف فتشاوروا فيما بينهم أيبعثون إلى النبى صلى الله عليه وسلم ينبئونه بما شاهدوا أم يقدمون على الحرب ؟ فقال عبد الله بن رواحة : يا قوم . والله إن الذى تكرهون هو ماخرجتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن مانقاتل بقوة ولا بكثرة ، مانقاتل إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فإنما هى إحدى الحسنيين إما الظهور وإما الشهادة، فقال الناس : صدق والله ابن رواحة ، ومضوا للقتال فلقوا هذه الجموع المتكاثرة فقاتل زيد حتى شاط فى رماح القوم فأخذ اللواء بعده جعفر بن أبى طالب وهو يقول :

---

(١) فى سيرة ابن هشام جـ ٢ صـ ١٧٣ قال عقبة : « ما أنا والله قتلت خبيبا لأنى كنت أصغر من ذلك ولكن أبا ميسرة أخا بنى عبد الدار أخذ الحربة فجعلها فى يدى ثم أخذ بيدى وبالحربة ثم طعنه بها حتى قتله » .

ياحبذا الجنة واقترابها   طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها
على إن لاقيتها ضرابها

ولم يزل يقاتل واللواء بيمينه حتى قطعت يمينه فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضى الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فأثابه الله بذلك جناحين فى الجنة يطير بهما حيث شاء ، ومن أجل ذلك يدعى جعفر الطيار .

وبعد استشهاد جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة وفى نفسه تردد ، فقال يخاطب نفسه :

أقسمت يانفس لتنزلنه   لتنزلن أو لتكرهنه
أن أجلب الناس وشدوا الرنة [1]   مالى أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة   هل أنت إلا نطفة [2] فى شنة

وقال أيضاً :

يانفس إلا تقتلى تموتى   هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت   إن تفعلى فعلهما هديت
وإن تأخرت فقد شقيت

ثم نزل إلى المعركة فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت فى أيامك مالقيت فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة ثم سمع الحطمة [3] فقال : وأنت فى الدنيا ! ثم ألقاه من يده ، وأخذ السيف وقاتل حتى قتل .

---

(١) أجلب الناس : صاحوا واجتمعوا ـ الرنة : صوت ترجيع يشبه البكاء .
(٢) النطفة . ماء قليل ـ الشنة : السقاء البالى ـ أى عما قليل تزول النفس من الجسد كما يزول الماء من السقاء .   (٣) العرق : عظم عليه بعض لحم ، انتهس : أخذ منه بفمه يسيرا ، الحطمة : زحام الناس .

وبعدئذ تشاور الصحابة فيمن يولونه عليهم فأجمعوا على خالد بن الوليد — لمهارته الحربية — فخالف ترتيب العسكر ليلقى فى قلوب أعداء الله الرعب ، ونجحت الحيلة وأمكن لخالد أن يعود سالما مع من تبقى من الجنود .

رحم الله الثلاثة ورحم الله خالد بن الوليد ، فقد كان سيف الله المسلول ، وكان فى جهاده ومماته يثير العجب والإعجاب ، قال وهو على فراش الموت « والله لقد شهدت مائة حرب أوزهاءها ومابقى بجسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء وما من عمل أرجى من لا إله إلا الله وأنا متترس بها » .

هذه الصور العالية من صور الجهاد والنضال ، والكفاح والتضحية ، تشهد بأن القرآن كما كان معجزا فى مبناه ومعناه ، كان معجزا فى وسيلته ومرماه ، كان معجزا فى تربيته وهداه ، تشهد أن القرآن كلام الله نزل على حبيبه ومصطفاه .

(وبعد) فهل كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يخوضون غمار الحرب ، ويلقون أنفسهم فى أتونها ، ويجاهدون بالمال والرجال معرضين أنفسهم للفناء ، ونساءهم للترمل ، وأطفالهم للتيتم ، وأهلهم للحزن ، وأموالهم للفقد ، هل كانوا يغزون بهذه الروح العالية لو كانوا يشكون فى رسالة محمد ودين محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

وهل كانوا يدخلون المعارك بعد وفاته بنفس الروح التى دخلوا بها فى حياته؟

إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أخبر الناس به وأدراهم بحقيقته ، وأعرفهم بخبيئته لطول عشرتهم له فما كان ليملك عليهم قلوبهم ويستحوذ على نواصيهم لو تسرب إليهم الشك فى خفاياه ونواياه أو لو كان عندهم ريبة فى دعواه ، فالحق أنه صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله تبارك وتعالى .

الشاهد السابع

محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل

وفى التوراة والإنجيل ، فى العهد القديم والعهد الجديد آيات تشير إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتشهد برسالته ، وقد صرح القرآن بهذا فى سورة الأعراف إذ يقول (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) وفى سورة الصف إذ يقول (وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

ونورد هنا بعض ماجاء فى الكتب السابقة تبشيرا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإلى القراء ذلك :

فى التوراة :

١ — فى سفر التثنية صفحة ٢٣٧ اصحاح ١٨ : ١٨ — ٢٠ أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ماأوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذى لايسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه ، وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى .

كلمة (وسط) لم ترد فى الترجمة السبعينية ولا أسفار موسى عن السامرين والوارد فيها (من أخوتهم) أى الإسماعيليين .

هذه البشارة يحملها اليهود على يوشع عليه السلام ، ويحملها النصارى على عيسى عليه السلام .

والحق أنها تبشر بمحمد صلى الله عليه وسلم فهى تفيد صراحة أن الله سيرسل رسولا من أخوة بنى إسرائيل ، فلو كان النبى المبشر به من بنى إسرائيل لقال لهم (سأقيم نبيا منكم) ذلك لأن أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر كانوا موجودين مع موسى ، فتعين أن يكون المراد بـ (أخوتهم) أولاد اسماعيل وذلك لأن (إسماعيل) أخو (إسحق) وإسحق هو والد إسرائيل يعنى يعقوب عليه السلام .

ويرشح أن المراد بهذه البشارة (محمد صلى الله عليه وسلم) .

١ — قوله فيها (مثلك) والمماثلة بين محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام واضحة فكلاهما جاء بشريعة تامة لقومه أما عيسى فقد قال (ماجئت لأنقض بل لأكمل) متى ٥ : ١٧ - وكلاهما هاجر من وجه أعدائه فموسى سار إلى (مدين) ومحمد عليه الصلاة والسلام هاجر إلى (المدينة) وبين (مدين) (والمدينة) توافق ، وكلاهما حارب أعداءه وظفر بنصر الله له ، ولا مماثلة بين موسى وعيسى على رأى من يقول من النصارى : إن عيسى إله . أو ابن الله .

٢ — كذلك يدل على أن المراد (محمد) صلى الله عليه وسلم قوله فى نفس البشارة (أجعل كلامى فى فمه) فهو يوحى بأنه أمى لايقرأ ولا يكتب وهذا إنما اشتهر به (محمد) صلى الله عليه وسلم ، وفى القرآن مايوافق هذه الفقرة قال تعالى (سنقرئك فلا تنسى) .

٣ — ويدل أيضا قوله فيها (فيكلمهم بكل ما أوصيه به) فهذا مطابق لقوله تعالى فى القرآن : (قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى) .

٤ — كذلك يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ماقررته من أن مدعى النبوة كذبا لايفلح ويموت ويشبهه ماورد فى القرآن (إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون) .

ولا شك أن محمدا صلى الله عليه وسلم قام وحده يدعو إلى الإسلام وسط بيئة وثنيـة ، وعورض حتى من أهله ، وعلى الرغم من هذا تم له النصر ، وأذعن له الخصوم ، ومات ولم يمت ذكره بل ظل اسمه يدوى بين العالمين ، ويتردد فى مشارق الأرض ومغاربها على ألسن الملايين ويذكر على المنابر والمآذن مقرونا بالتبجيل والتكريم ، فهل يعتبر بهذا الجاحدون ؟

٢ — جاء فى سفر التثنية صفحة ٢٥٧ اصحاح ٣٣ : ٢ « جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير ، وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم » .

(ساعير) فى التوراة اسم لجبل فى فلسطين ، و (جبل فاران) فى الحجاز والحجاز هى التى هاجر إليها إسماعيل مع أمه . جاء فى سفر التكوين صفحة ٢٣ اصحاح ٢١ : ٩ ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح - ١٠ فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها - ٢٠ - وكان الله مع الغلام فكبر ....-٢١ وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » وفى ترجمة التوراة السامرية التى صدرت سنة ١٨٥١ أن إسماعيل « سكن برية فاران بالحجاز » .

بعد هذا البيان نقول : إن الآية التى نقلناها من سفر التثنية تشبه نبوة موسى عليه الصلاة والسلام بمجيء الصبح ، ونبوة عيسى عليه الصلاة والسلام باشراقه ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم باستعلاء الشمس ، وتلألؤ ضوئها فى الآفاق .

فالآية تشير إلى النبوات الثلاث ، ومثلها فى القرآن (والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين) فالتين والزيتون إشارة إلى منبتهما وهى الأرض التى ظهر فيها عيسى ، وطور سنين إشارة إلى المكان الذى سمع فيه موسى كلام الله ، والبلد الأمين إشارة إلى المكان الذى بعث فيه محمد

صلى الله عليه وسلم وسكن فيه من قبل إسماعيل صلى الله عليهم جميعا وعلى سائر النبيين .

فى الإنجيل :

١ — فى إنجيل (يوحنا) صفحة ١٤٦ إصحاح ١٦ : ٥ - ١١ قال عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام « وأما الآن فأنا ماض إلى الذى أرسلنى وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم ولكنى أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لايأتيكم (المعزى) ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم « ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة أما على خطية فلأنهم لايؤمنون بى » ثم يقول ١٢ - ١٤ « إن لى أمورا كثيرة لأقول لكم ولكن لاتستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لايتكلم من نفسه بل كل مايسمع به يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم » .

فى الطبعات الحديثة لإنجيل يوحنا يذكر (المعزى) وفى طبعة لندن سنة ١٨٢١ ، ١٨٣١ ، ١٨٤٤ يذكر (الفارقليط) ويلزمنا أن نقف هنا عند كلمة (فارقليط) لنعرف معناها .

١ — قال الدكتور « كارلو نلينو » الحاصل على الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية القديمة معنى « الفارقليط » فى اللغة اليونانية « الذى له حمد كثير » وهو يوافق معنى « أحمد » .

٢ — وقال الأستاذ سليم المهدى العالم اللاهوتى الذى بعث إلى الفاتيكان فى رسالة عقائدنا وعقائدهم ص ٣٧ « إن لفظ « فارقليط » فى السريانية واليونانية بمعنى « محمود » .

٣ — وقال الأستاذ محمد عبد الله المهدى الذى كان قسيسا ووكيل دير أنبا صموئيل بمغاغة أن لفظ « فار قليط » فى القاموس العبرى بمعنى « الحمد » المصدر وهو لا يفيد المعنى إلا إذا كان بمعنى الفاعل والمفعول ولذا يشتق منه « أحمد ـ محمد ـ محمود » .

٤ — وقال الدكتور محمد توفيق صدقى ماملخصه : « لايخفى أن المسيح كان يتكلم بالعبرية فلا ندرى ماذا كان اللفظ الذى نطق به ؟ ولا ندرى إن كانت ترجمته باللغة اليونانية توافق « بارقليط » ومعناها « المعزى » أو « المحاج » أم توافق « بيرقليط » ومعناها « الجليل » ، الشهير ورفيع المقام وهى معان تقرب من معنى « محمد ، أحمد ، محمود » .

بعد هذا نقول : إن هذه المعانى التى سلفت تصدق على النبى صلى الله عليه وسلم فهو معز جاء يعزى المؤمنين على عدم إيمان الكافرين ويعزى المصابين إذا صبروا بما يدخره الله لهم من ثواب عظيم ، وهو أيضا محاج للكفار ومجادل لهم قال تعـــالى (فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن) .

وقال (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنـــة الله على الكاذبين) وقال (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) .

وهو بالإضافة لهذا محمد وأحمد ومحمود وذو المجد والشهرة وصاحب المقام الرفيع قال تعالى (ورفعنا لك ذكرك) وقال (وكان فضل الله عليك عظيما) وقال (ماكان محمـــد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وقال (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) وقال (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) وقال (كما أرسلنا

فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) .

ويلاحظ أن هذه البشارة التى وردت فى إنجيل يوحنا تضمنت مايلى :

١ — أن الرسول المبشر به يبكت الذين لايؤمنون برسالة عيسى على خطيئتهم هذه وهــذا يطابق مافى القرآن (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا) (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله)(إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً) .

٢ — إن الرسول المبشر به والآتى بعد عيسى عليه الصلاة والسلام يرشد إلى جميع الحق وهذا يطابق القرآن قال تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) وقال (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) وقال (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) وقال (بل جاء بالحق وصدق المرسلين) .

٣ — أنه « لايتكلم من نفسه بل كل مايسمع يتكلم به » وهذا يوافق مافى التثنية ونصه كما مر « أجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ماأوصيه به » ، والقرآن يصرح بهذا قال تعالى (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى) وقال (إنما أتبع مايوحى إلى من ربى هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

٤ — أنه « يخبر بأمور آتية » وقد تحقق هذا ودليله :

١ — أن القرآن الذى جاء به أخبر بأمور مستقبلة وقد تحققت كقوله (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) ، وقد تم النصر للروم بعد هزيمتهم - كما أخبر القرآن - بعد سنوات معدودة، ومثل ذلك قوله (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالاتعلمون) وقد تحقق هذا أيضاً فهـدى الله الإنسان لصنع السيارات والقطارات والطائرات والسفن الفضائية وغيرها من وسائل المواصلات وكل ذلك لم يكن للمسلمين علم به فى ذلك الحين .

٢ — أن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه أخبر بأمور تقع فيما بعد من ذلك قوله :

(ا) « ألا إن ابنى هذا — يعنى الحسن بن على — سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» أخرجه البخارى ومسلم، وتحقق هذا سنة ٤١ فقد تنازل عن الخلافة لمعاوية وحقن دماء المسلمين .

(ب) وقوله « إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » أخرجه البخارى ومسلم عن جابر بن سمرة وقد حدث هذا كما أخبر .

٥ — أنه يكرم عيسى ، ويخبر عما جرى على يديه « ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم» وهذا يؤيده ماورد فى القرآن (إذقالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية

لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون) .

(ب) فى إنجيل متى صفحة ٣١ إصحاح ٢١ : ٤٢ « قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب ، الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط عليه يسحقه » .

هذه البشارة لا تصدق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم :

(١) لأنها جاءت بعد مثل ضربه عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لبنى إسرائيل ؛ إنسان غرس كرما وسلمه إلى كرامين وأرسل إليهم عبدا له ليأخذ من ثمره فجلدوه فأرسل إليهم آخر فقتلوه فأرسل إليهم ابنه فقتلوه ، فماذا يفعل صاحب الكرم ؟ يأتى ويهلك الكرامين ويعطى الكرم لآخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها .

هذا المثل يشير إلى جرائم بنى إسرائيل وقد نبه القرآن إليها إذ يقول فى حقهم (ويقتلون النبيين بغير حق) ويشير هذا المثل إلى أن النبوة ستنتقل من بنى إسرائيل — لجرائمهم — إلى غيرهم ، إلى من يؤدى فرائض الله فى أوقاتها .

(٢) لأن أهل الكتاب يحقرون أولاد إسماعيل ويقولون « لسنا أولاد جارية بل أولاد الحرة ، كما فى غلاطية صفحة ٢٥٦ إصحاح ٤ : ٣١ ، وقد عوقب بنو إسرائيل لما خرجوا على وصايا الله بأن نزع هذا الشرف منهم وأعطى لأمة أخرى هى أمة إسماعيل ونبيها العظيم محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣) لأنه جاء فى وصف الحجر « أن من يسقط عليه يترضض وكل من سقط عليه يسحقه » ولا يصدق هذا الوصف على عيسى لأنه

قال كما فى إنجيل يوحنا صفحة ١٤٢ أصحاح ١٢ : ٤٧ « وإن سمع أحد كلامى ولم يؤمن فأنا لا أدينه لأنى لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم » أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء لإنذار الكفار الفجار الأشرار وتأديبهم .

قال تعالى (قل إنما أنذركم بالوحى) وقال (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) .

هذه البشارة التى وردت فى الإنجيل تقرب لنا معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى رجل بنى بيتا — وفى رواية بنيانا — فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » أخرجه الشيخان عن أبى هريرة .

لقد نقل الله النبوة من فرع إسحق بعد أن أخلفوا ماعاهدوا الله عليه ، ولم يعملوا بما أوصاهم الله به إلى فرع إسماعيل إلى محمد ـ عليه وعلى جميع أنبياء الله أزكى صلاة ـ نقل الله النبوة إليه ، وجعل أمته خير أمة لما يقومون به من موجبات الإيمان ، ويجنونه من ثمرات الإسلام قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) .

(ج) إنجيل برنابا صفحة ٣٢٣ الفصل ٢٢٠ : ١٩ ، ٢٠ « فلما كان الناس قد دعونى الله وابن الله على أنى كنت بريئا فى العالم أراد الله أن يهزأ الناس بى فى هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أننى أنا الذى مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة وسيبقى هذا إلى أن يأتى محمد رسول الله الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله » وفى صفحة ١٥٠ ، ١٥١ فى أصحاح ٩٧ : ـ ٥ « تعزيتى هى فى مجىء الرسول الذى سيبيد كل رأى كاذب وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره . . . » ١٧ « إن اسمه المبارك محمد ١٨ حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين يا الله أرسل لنا رسولك يامحمد تعال سريعا لخلاص العالم » .

شهادة العباقرة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم

ما قدمناه يشهد لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة، وفى عصرنا الحديث أثنى عباقرة المفكرين على دعوته، وأشادوا بفضل رسالته وننقل الآن بعض هذه الشهادات :

(١) قال لا مارتين الكاتب والمؤرخ الفرنسى (رئيس الحكومة المؤقتة بعد ثورة فبراير — المتوفى سنة ١٨٦٩) كان محمد حكيما بليغا، فيلسوفا خطيبا، ورسولا معلما، ومحاربا شجاعا، ومفكرا عظيما، مصيبا فى أفكاره وتعاليمه، أسس امبراطورية روحية متحدة قوية، وإذا أردنا أن نبحث عن إنسان عظيم تتحقق فيه جميع الصفات العظيمة الإنسانية فلن نجد أمامنا سوى محمد الكامل .

(٢) وقال ليونارد : ليس على الأرض إنسان عرف ربه معرفة حقة كما عرفه محمد، لقد وهب بنى الجزيرة العربية حياته كلها لعبادة الله بإيمان قوى، وغرض نبيل وهذا أمر لا ريب فيه، إن محمدا أعظم البشرية قاطبة، وأصدق إنسان وجد على وجه الأرض منذ بدء الخليقة .

(٣) وقال (جونسون) فى (أديان الشرق) : « إن تعليمات محمد ومبادئه عن الإنسانية والمثل العليا فى الدين وتواضعه وبساطته فى حياته تجعله بطلا عظيما لافى العالم القديم فحسب، بل تجعله من أبطال العالم الحديث وزعمائه » .

(٤) وقال المستشرق المؤرخ (السير وليم موير الإنجليزى المتوفى سنة ١٩٠٥) فى (حياة محمد) لقد كانت تعاليم محمد قليلة وبسيطة ولكنها أنتجت ثمارا عظيمة، وقال : كانت السهولة صورة من حياته كلها وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته فى معاملته لأقل تابعيه فالتواضع والشفقة والصبر والإيثار والجود صفات ملازمة لشخصه وجالبة لمحبته جميع من حوله فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنا ولا هدية مهما صغرت وماكان

يتعالى ويبرز فى مجلسه ولاشعر أحد عنده أنه لايختصه بإقباله وإن كان حقيرا وكان إذا لقى من يفرح بنجاح أصابه أمسك يده وشاركه سروره وكان مع المصاب والحزين شريكا شديد العطف حسن المواساة وكان فى أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس وهو دائم الاشتغال والتفكير فى راحة من حوله .

(٥) قال توماس كارليل الفيلسوف الإنجليزى المولود سنة ١٧٩٥ والمتوفى سنة ١٨٨١ فى كتاب الابطال عن الرسول صلى الله عليه وسلم ص ٦٧ ، ٦٨ ما نصه :

« إن محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ماتعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينيه ويتلق بفؤاده منهذا الكون العديم النهاية ، وعجيب وايم الله أمية محمد نعم . إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك ولم يقتبس محمد من نور أى إنسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره . . . . ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شابا مفكرا ، وقد سماه رفقاؤه الأمين رجل الصدق الوفاء الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلاوفيها حكمة بليغة وإنى لأعرف عنه أنه كان كثيرا الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة لايتناول غرضا فيتركه إلاوقد أنار شبهته وكشف ظلمته وأبان حجته واستثار دفينته ، وهكذا يكون الكلام وإلا فلا وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريما برا رءوفا تقيا فاضلا حرا رجلا شديد الجد مخلصا وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة » وفى ص ٩٥ قال « ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيى به من العرب أمة هامدة وأرضا خامدة وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها

صوت ولا تحس منها حركة فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فإذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعة رفعة والضعف قوة والشرارة نورا وسع الأنحاء وعم الأرجاء وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة وكذلك الإيمان العظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة » .

(٦) وقال الفيلسوف الروسى تولستوى المولود سنة ١٨٢٨ المتوفى سنة ١٩١٠ «ومما لا ريب فيه أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم كان من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنسانى خدمة جليلة ويكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقى والمدنية وهذا عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة ورجل مثل هذا لجدير بالاحترام والإجلال .

(٧) وقال توماس أرنولد المستشرق الإنجليزى المولود سنة ١٨٦٤ والمتوفى سنة ١٩٣٠ فى كتابه (دعوة الإسلام) : باشر محمد صلى الله عليه وسلم سلطة زمنية كالتى يمكن أن يباشرها أى زعيم آخر مع فارق واحد هو أن الرباط الدينى بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الدم والأسرة فأصبح الإسلام نظاما سياسيا بقدر ما هو نظام دينى ولما نشر محمد صلى الله عليه وسلم دينا جديدا أقام نظاما سياسيا له صبغة متميزة تماما وكانت جهوده موفقة إلى اعتقاد بنى وطنه بوحدانية الله وإلى هدم نظام الحكم القديم فى مكة مسقط رأسه فقضى على الحكومة الأرستقراطية القبلية التى كانت الأسرة الحاكمة تتوزع سياسة الشئون العامة تحت لوائها .

(٨) وقال (الفرد مارتين) فى كتابه (أكبر زعماء الدين فى الشرق) :

« إن تاريخ الديانات لايتضمن أعظم من الطريقة التى سار عليها محمد لإصلاح الأوضاع الفاسدة وتغيير النظم الاجتماعية فى جزيرة العرب ومما يجدر ذكره بالإعجاب والتقدير أن الديانة اليهودية والدين المسيحى والعرب لم يتمكنوا فى القرون الوسطى من رفع مستوى الحياة والمعيشة والقضاء على الفساد المنتشر فى البلاد العربية فى ذلك الحين كما عمل محمد ، والحق أن محمدا بما قام به من الإصلاحات والتشريعات ، وما نشره من المدنية الإسلامية والحضارة الرائعة والنظم الاجتماعية قد أدى أكبر خدمة إنسانية للعالم كله » .

(٩) وقال « برناردشو » : أعتقد أن دين محمد هو الدين الوحيد الذى يناسب كل إنسان ويصلح لكل زمان ويتمشى مع كل بيئة فى هذا العالم فى كل مرحلة من الحياة وأننى أتنبأ بأن دين محمد سيلقى القبول فى أوربا كما يلقاه فيها الآن ، إن الكهنة فى العصور الوسطى قد صوروا الإسلام بصور قاتمة لجهلهم حينا وتعصبهم أحيانا ولقد قرأت الكثير عن محمد ودرست مايدعو إليه هذا الرجل العظيم فأعجبت به واعتقدت أنه ماكان ضد المسيح ومن الواجب أن يدعى محمد المنقذ للإنسانية وإننى أعتقد تمام الاعتقاد أنه لو قلد رجل كمحمد مقاليد العالم الحديث اليوم لاستطاع أن يقوم بحل مايعترض هذا العالم من المشكلات جميعها بصورة تضمن كل ما يحتاج إليه وما يبغيه السلام الشامل والسعادة والاستقرار .

(١٠) فى دائرة المعارف البريطانية الطبعة الحادية عشرة « كان محمد » صلى الله عليه وسلم « أظهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحا وتوفيقا ظهر النبى محمد فى وقت كان العرب فيه قد هووا إلى الحضيض فما كانت لهم تعاليم دينية محترمة ولا مبادىء مدنية أو سياسية أو اجتماعية ولم يكن لهم مايفاخرون به من الفن أو العلوم ، وما كانوا على اتصال بالعالم الخارجى وكانوا مفككين لا رابط بينهم ، كل قبيلة وحدة مستقلة ، وكل منها فى قتال مع الأخرى ، وقد حاولت اليهودية أن تهديهم فما استطاعت وباءت محاولات المسيحية

بالخيبة كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح ولكن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم أرسل هدى للعالمين فاستطاع فى سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب وأن يرفعها من الوثنية المنحطة إلى التوحيد وحول أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة إلى طريق الحق والفرقان فأصبحوا دعاة هدى ورشاد بعد أن كانوا دعاة وثنية وفساد وانتشروا فى الأرض يعملون على إعلاء كلمة الله » .

شهد الأنام بفضله حتى العدا   والفضل ما شهدت به الأعداء

الشاهد الثامن

آيات وعجائب ظهرت على يد الرسول صلى الله عليه وسلم

مر الحديث عن القرآن الكريم وهو المعجزة القاطعة الخالدة ، والحجة البالغة الباقية على مر الزمان وكر العصور ، والآن نتحدث عما وقع له صلى الله عليه وسلم من الآيات العجيبة التى رويت بأسانيد صحيحة لا مجال للطعن فيها وهى آيات تظاهر الرسالة وتساندها .

دعاء مستجاب :

١ — فى غزوة الأحزاب دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين بالهزيمة والزلزلة .

روى البخارى بسنده إلى عبدالله بن أبى أوفى رضى الله عنهما يقول : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب على المشركين ، فقال « اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اللهم اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » ج ٤ ص ٥٣ .

وقد استجاب الله دعاء نبيه فأرسل عليهم ريحا شديدة قلعت الأوتاد ،

وألقت عليهم الخيم وقلبت القدور ، وسفت عليهم التراب (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا) سورة الأحزاب ٢٥-٢٧ .

٢ - دعا لأم أبى هريرة بالهداية فاستجاب الله دعاءه وهداها .

أخرج مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٣٨ عن أبى هريرة قال كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة فدعوتها يوما فأسمعتنى فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكى قلت يارسول الله إنى أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى على ، فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اهد أم أبى هريرة » فخرجت مستبشرا بدعوة نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف [١] ، فسمعت أمى خشف[٢] قدمى . فقالت مكانك ياأبا هريرة فسمعت خضخضة[٣] الماء .

قال واغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله قال فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته وأنا أبكى من الفرح . قال قلت : يارسول الله ، أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرا .

٣ - دعا لابن عباس بأن يفقهه الله فى الدين ويعلمه التأويل .

---

(١) مجاف : مغلق .

(٢) خشف قدمى : صوتهما .

(٣) خضخضة الماء : صوت تحريكه .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ضمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال اللهم فقهه فى الدين وفى رواية اللهم علمه الكتاب وفى أخرى الحكمة . أخرجه الشيخان والترمذى كما فى تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٤٩ وقد استجاب الله دعوته فكان يقال له حبر الأمة وترجمان القرآن قال ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٢٧٤ .

٤ — ودعا لأنس بن مالك واستجاب الله دعاءه .

عن أنس رضى الله عنه قال : جاءت بى أمى أم أنس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أزرتنى بنصف خمارها وردتنى بنصفه فقالت يارسول الله هذا أنيس ابنى أتيتك به يخدمك فادع الله له فقال : اللهم أكثر ماله وولده .

قال أنس : فوالله إن مالى كثير ، وإن ولدى وولد ولدى ليتعادون(١) على نحو المائة اليوم ، أخرجه مسلم ص ١٩٢٩ ج ٤ .

وعن أبى خلدة خالد بن دينار قال : قلت لأبى العالية : سمع أنس من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خدمه عشر سنين ودعا له ، وكان له بستان يحمل فى السنة الفاكهة مرتين وكان فيه ريحان يجىء منه ريح المسك أخرجه الترمذى .

٥ — ودعا الله جل وعلا أن ينزل المطر وقد أصابهم جدب فانهمر المطر ولم يحتبس حتى دعا الله .

عن أنس رضى الله عنه قال : أصابت الناس سنة (٢) فبينا النبى صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة إذ قام أعرابى فقال يارسول الله : هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا فرفع يديه وماترى فى السماء قزعة (٣) فوالذى نفسى بيده

---

(١) يتعادون : يبلغ عددهم .
(٢) قحط (٣) قطعة من سحاب .

ما وضعهما حتى ثار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل من على المنبر حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد والذى يليه حتى الجمعة الأخرى فقام ذلك الأعرابى أو غيره فقال يارسول الله تهدم البناء وغرق المال فادع الله تعالى لنا فرفع يديه . وقال: اللهم حوالينا ولا علينا[1] فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا تفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة[2]، وفى رواية « اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام[3] والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر ، قال فانقلعت وخرجنا نمشى فى الشمس » أخرجه الستة إلا الترمذى تيسير الوصول ج ٢ ص ٢٨٩ .

٦ — دعا على أفراد بأعينهم فانتقم الله منهم .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا[4] جزور بنى فلان ؟ فيضعه بين كتفى محمد إذا سجد فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما سجد النبى صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر لو كانت لى منعة طرحته عن ظهره ، والنبى صلى الله عليه وسلم ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضى الله عنها فجاءت وهى جويرية فطرحت عنه ثم أقبلت عليهم تشتمهم فلما قضى صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم وكان إذا دعا دعا ثلاث مرات وإذا سأل سأل ثلاثاً ثم قال اللهم عليك بقريش ثلاثا .

---

(١) أنزل المطر حولنا ولا تنزله علينا .

(٢) الجوبة الفرجة أى تراكم السحاب حول المدينة وانفرج عنها .

(٣) الآكام جمع أكمة وهى التل: مرتفع فوق الرابية ودون الجبل ، والظراب جمع ظرب مثل نمر وهى الروابى الصغار .

(٤) سلا : الكرش أو مايكون فيه الولد فى بطن أمه .

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ثم قال : اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة ابن أبي معيط وذكر السابع ولم أحفظه فو الذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق لقد رأيت الذى سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب (قليب بدر وهى البئر التى لم تطو) أخرجه الشيخان والنسائى — تيسير الوصول ج ٤ ص ٢١٦ .

(ب) وفى الجمادات والنباتات والحيوانات ظهرت آيات تشهد بنبوة المبعوث رحمة للمخلوقات :

١ — كان عليه الصلاة والسلام يخطب على جذع من نخل فلما صنع له المنبر قام يخطب عليه فصاح الجذع من شدة الحنين إليه .

أخرج البخارى ج ٤ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما يقول كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها فلما صنع له المنبر وكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار[1] ، حتى جاء النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت .

وفى رواية له قبلها « فصاحت النخلة صياح الصبى ثم نزل النبى صلى الله عليه وسلم فضمها إليه تئن أنين الصبى الذى يسكن . قال : كانت تبكى على ما كانت تسمع من الذكر عندها » انتهى من البخارى علامات النبوة ، ورواه الترمذى بنحوه ج ١٣ ص ١١١ ورواه أحمد عن ابن عباس ج ٤ ص ٥٧، ص ١٢٨ .

٢ — فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧٨٢ عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن » وكذلك أخرجه الترمذى ج ١٣ ص ١١١ .

---

(١) العشار : الناقة الحامل فى عشرة أشهر .

٣ — ذهب عليه الصلاة والسلام لقضاء حاجته فلم يجد شيئا يستتر به فدعا شجرتين فالتأمتا عليه باذن الله حتى اذا انتهى عادت كل شجرة كما كانت .

فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٣٠٦ عن جابر قال : « سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا واديا أفيح [١] فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى حاجته فاتبعته بإداوة من ماء فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ير شيئا يستتر به فاذا شجرتان بشاطىء [٢] الوادى فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال انقادى على بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش [٣] الذى يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها . فقال : انقادى على بإذن الله فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنصف [٤] مما بينهما لأم بينهما فقال : التئما على باذن الله فالتأمتا .

قال جابر فخرجت أحضر [٥] مخافة أن يحس رسول الله صلى الله عليه وسلم بقربى فيبتعد . فجلست أحدث نفسى فحانت منى لفتة فاذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق .

---

(١) أفيح : واسعا .
(٢) شاطىء الوادى : جانبه .
(٣) المخشوش : ماجعل فى أنفه خشاش بعد ثقبه ، والخشاش عود يربط فيه حبل فيشد به ليذل إذا كان صعبا .
(٤) المنصف : نصف المسافة .
(٥) أحضر : أعدو وأسرع .

٤ — شكوى الجمل له :

عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال كان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدفا أو حائش نخل فدخل حائطا [١] لرجل من الأنصار فاذا فيه جمل فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه [٢] فسكت فقال : من رب هذا الجمل ؟ فقال فتى من الأنصار : هو لى يارسول الله ، فقال : أفلا تتق الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها فانه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه [٣] أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٢٢ وبشرح الخطابى ج ٣ ص ٣٨٧ وأخرجه أحمد فى مسنده ج ٣ ص ١٨٩ حديث رقم ١٧٤٥ .

(ج) شفاء المرضى والجرحى على يديه بإذن الله :

١ — فى صحيح البخارى ج ٥ ص ١٧١ عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله قال فبات الناس يدوكون [٤] ليلتهم أيهم يعطاها فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها فقال : أين على بن أبى طالب ؟ فقيل: هو يارسول الله يشتكى عينيه قال : فأرسلوا إليه فأتى به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية .. وهو فى صحيح مسلم عن سلمة ج ٣ ص ١٤٤١ .

٢ — وفى صحيح البخارى ج ٥ ص ١٧٠ وأبو داود ج ٢ ص ٣٣٨ وشرح

---

(١) الهدف : بناء مرتفع مشرف ، حائش النخل : جماعة النخل الصغار ، والحائط : البستان .

(٢) الذفرى : من البعير مؤخر رأسه وهو الموضع الذى يعرق من قفاه .

(٣) تدئبه . تتعبه . (٤) يدوكون : يخوضون .

الخطابى جـ ٥ صـ ٣٦٦ عن يزيد بن أبى عبيد قال : رأيت أثر ضربة فى ساق سلمة فقلت ياأبامسلم ماهذه الضربة ؟ فقال هذه ضربة أصابتنى يوم خيبر فقال الناس : أصيب سلمة فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فنفث [١] فيه ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة .

٣ — أخرج البخارى جـ ٥ صـ ١١٧ عن البراء قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبى رافع اليهودى رجالا من الأنصار فأمر عليهم عبد الله ابن عتيك وكان أبو رافع يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعين عليه وكان فى حصن له بأرض الحجاز فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم [٢] فقال عبد الله لأصحابه : اجلسوا مكانكم فانى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع [٣] بثوبه كأنه يقضى حاجة وقددخل الناس فهتف [٤] به البواب : ياعبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإنى أريد أن أغلق الباب فدخلت فكمنت [٥] فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق[٦] على وتد قال فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب وكان أبو رافع يسمر [٧] عنده وكان فى علالى [٨] له فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت على من داخل قلت : إن القوم نذروا [٩] بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله فانتهيت إليه

---

(١) النفث : شبيه بالنفخ .
(٢) أى رجعوا بمواشيهم التى تسرح وهى الإبل والبقر والغنم .
(٣) تقنع : تغطى .
(٤) هتف به : ناداه .
(٥) كمنت : اختبأت .
(٦) الأغاليق : المفاتيح وهى الأقاليد أيضا .
(٧) يسمر بالبناء للمجهول : يتحدث عنده ليلا .
(٨) العلالى جمع عليه بضم فلام مشددة : غرفة .
(٩) نذروا : علموا .

فاذا هو فى بيت مظلم وسط عياله لاأدرى أين هو من البيت . فقلت ياأبارافع قال : من هذا ؟ فأهويت[١] نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئا فصاح فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ثم دخلت إليه فقلت: ماهذا الصوت ، ياأبارافع؟فقال : لأمك الويل إن رجلا فى البيت ضربنى قبل بالسيف قال فأضربه ضربة ، أثخنته [٢] ولم أقتله ثم وضعت ظبة [٣] السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره فعرفت أنى قتلته فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا حتى انتهيت إلى درجةله فوضعت رجلى وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض فوقعت فى ليلة مقمرة فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت : لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته ؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور فقال : أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز فانطلقت إلى أصحابى فقلت : النجاء [٤] فقد قتل الله أبا رافع فانتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال : ابسط رجلك . فبسطت رجلى فمسحها فكأنها لم أشتكها قط .

(د) تكثير الماء والطعام ببركة الرسول عليه الصلاة والسلام .

١ — فى صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٣٥ عن عبد الله قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فقل الماء « فقال اطلبوا فضلة من ماء فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل يده فى الإناء ثم قال حى [٥] على الطهور المبارك والبركة من الله » فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

---

(١) أهويت : قصدت .
(٢) أثخنته : بالغت فى جراحته .
(٣) ظبة السيف : حده .
(٤) النجاء : أى أسرعوا .
(٥) أى هلموا إلى الماء .

٢ — وفى صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٣٤ عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « عطش الناس يوم الحديبية والنبى صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة(١) فتوضأ فجهش(٢) الناس نحوه فقال : مالكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك فوضع يده فى الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا قلت . كم كنتم ؟ قال لو كنا مائة ألف لكفانا . كنا خمس عشرة مائة » .

٣ — وفى صحيح البخارى ج ٥ ص ١٣٩ عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال لما حفر الخندق رأيت بالنبى صلى الله عليه وسلم خمصا (٣) شديدا فانكفأت (٤) إلى امرأتى فقلت هل عندك شىء؟فانى رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا فأخرجت إلى جرابا فيه صاع من شعير ولنا بهيمة (٥) داجن فذبحناها وطحنت الشعير ، ففرغت (٦) إلى فراغى وقطعتها فى برمتها،ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت:لاتفضحنى برسول الله صلى الله عليه وسلم وبمن معه فجئته فساررته فقلت : يارسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير كان عندنا فتعال أنت ونفر معك فصاح النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ياأهل الخندق إن جابرا قد صنع سورا (٧) فحى هلا بكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم

---

(١) الركوة بتثليث الراء : إناء صغير من جلد يشرب فيه .

(٢) أسرعوا لأخذ الماء .

(٣) خمصا بفتحتين : ضمور البطن من الجوع .

(٤) أى انقلبت ورجعت .

(٥) مصغر بهمة الصغير من أولاد الغنم والداجن ما يربى فى البيت لايذهب إلى مرعى .

(٦) أى فرغت من الطحن مع فراغى من الذبح .

(٧) السور بالواو : الطعام باللغة الفارسية ، حى هلا هلموا مسرعين .

حتى أجىء فجئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم الناس حتى جئت امرأتى فقالت بك وبك[1] فقلت قد فعلت الذى قلت فأخرجت له عجيناً فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثم قال ادع خابزة فلتخبز معى واقدحى[2] من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغط[3] كما هى وإن عجيننا ليخبز كما هو وأخرجه مسلم ج٣ ص ١٦١٠ .

٣ — فى صحيح مسلم ج١ ص٥٦ عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة أوعن أبى سعيد (شك الأعمش) قال : لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة قالوا له : يارسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[4] فأكلنا وادهنا[5] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : افعلوا ، قال فجاء عمر فقال: يا رسول : إن فعلت قل الظهر[6] ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل فى ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم ، قال : فدعا بنطع[7] فبسط ثم دعا بفضل أزوادهم ، قال فجعل الرجل يجىء بكف ذرة قال ويجىء الآخر بكف تمر قال ويجىء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير قال فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه بالبركة ، ثم قال : خذوا فى أوعيتكم قال فأخذوا فى أوعيتهم حتى ماتركوا فى العسكر وعاء إلا ملأوه قال : فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشهد أن لا إله إلا الله

---

(١) أى فعل الله بك وبك .
(٢) اقدحى : أغرفى .
(٣) تغط : تمتلىء وتفور .
(٤) النواضح : الإبل التى يستقى عليها .
(٥) أخذنا من شحمها دهنا .
(٦) قل الظهر : قلت الدواب التى تحملنا فى السفر .
(٧) النطع : بساط من جلد .

وأنى رسول الله لايلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة » .

فى صحيح البخارى جـ ٨ صـ ١١٩ عن مجاهد أن أبا هريرة كان يقول : آلله [١] الذى لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدى [٢] على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد [٣] الحجر على بطنى من الجوع ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ماسألته إلا ليشبعنى فمر ولم يفعل ثم مر بى عمر فسألته عن آية من كتاب الله ماسألته إلا ليشبعنى فمر فلم يفعل ثم مر أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رآنى وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى ثم قال أبا هر قلت : لبيك يارسول الله قال : الحق [٤] . ومضى فتبعته فدخل فاستاذن فأذن لى فدخل فوجد لبنا فى قدح فقال من أين هذا اللبن ؟ قالوا أهداه لك فلان أو فلانة قال : أباهر قلت : لبيك يارسول الله قال : الحق إلى أهل الصفة فادعهم لى قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لايأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئا وإذا أتته هدية أرسل إليهم ، وأصاب وأشركهم فيها فساءنى ذلك . فقلت : وما هذا اللبن فى أهل الصفة كنت أنا أحق أن أصيب من هـذا اللبن شربة أتقوى بهـــا فاذا جاءوا أمرنى فكنت أنا أعطيهم وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت قال : يا أباهر . قلت : لبيك يارسول الله . قال : خذ فأعطهم . قال فأخذت القدح . فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح

---

(١) آلله : أى والله فالهمزة بمنزلة واو القسم .
(٢) كناية عن سقوطه على الأرض مغشيا من شدة الجوع .
(٣) ليقال برد الحجر من حر الجوع أو ليساعده على الانتصاب والاعتدال .
(٤) الحق : اتبعنى .

فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى وتبسم فقال : أباهر . قلت : لبيك يارسول الله قال : بقيت أنا وأنت قلت : صدقت يارسول الله . قال : اقعد فاشرب . فقعدت فشربت : فقال : اشرب فشربت . فما زال يقول حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا . قال فأرنى . فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة » .

(ه) فى صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٣٤ عن أنس بن مالك قال قال أبو طلحة لأم سليم لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء ؟ قالت : نعم . فأخرجت أقراصا من شعير ثم أخرجت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسته (١) تحت يدى ولا ثتنى (٢) ببعضه ثم أرسلتنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال فذهبت به فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ومعه الناس فقمت عليهم فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلك أبو طلحة ؟ فقلت نعم . قال : بطعام ؟ فقلت نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه قوموا (٣) . فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أباطلحة فأخبرته فقال أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عندنا مانطعمهم ؟ فقالت : الله ورسوله أعلم . فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو طلحة معه

---

(١) دسته : أخفته .

(٢) لاثتنى : لفتنى .

(٣) لعل أنسا استحيا أن يقدم الطعام للرسول صلى الله عليه وسلم وحده وهو فى أصحابه فاستحسن دعوته للمنزل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هلمى[١] ياأم سليم ماعندك . فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففت وعصرت أم سليم عكة[٢] فأدمته ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ماشاء الله أن يقول ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال ائذن لعشرة ، فأكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون أو ثمانون رجلا ، وأخرجه أيضاً مسلم ج٣ ص ١٦١٢ .

٦ ـ فى صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٣٥ عن جابر رضى الله عنه أن أباه توفى وعليه دين فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت إن أبى ترك عليه ديناً وليس عندى إلا مايخرج نخله ، ولا يبلغ مايخرج سنين ماعليه فانطلق معى لكى لايفحش على الغرماء فمشى حول بيدر[٣] من بيادر التمر فدعا ثم آخر ثم جلس عليه فقال : انزعوه فأوفاهم الذى لهم وبقى مثل ماأعطاهم ، .

٧ ـ فى سنن الترمذى ج ١٣ ص ١١٠ عن أبى العلاء عن سمرة بن جندب قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نتناول فى قصعة من غدوة حتى الليل يقوم عشرة ويقعد عشرة قلنا : فما كانت تمد ؟ قال: من أى شىء تعجب؟ ما كانت تمد إلا من ههنا وأشار بيده إلى السماء ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح وأبو العلاء اسمه يزيد بن عبد الله بن الشخير .

---

(١) هلمى : هات .
(٢) العكة : إناء من جلد فيه سمن ـ أدمته : جعلته إداما للمفتوت .
(٣) البيدر : الموضع الذى يداس فيه الطعام : أى الجرن .

(ه) إخباره ببعض الغيبيات باطلاع من الله تعالى :

لقد أخبر عليه الصلاة والسلام بظهر الغيب عن أمور لم يشهدها ، بعضها جرى فى عهده ، وبعضها وقع من بعده ، وكلها جاءت مطابقة لما أخبر به . ونذكر من ذلك :

١ — عندما عزم النبى صلى الله عليه وسلم على المسير إلى مكة عام الفتح قال : اللهم خذ العيون والاخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها ، ولكن حاطب بن أبى بلتعة أحد الذين شهدوا بدرا كتب كتاباً لقريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جارية لتوصله إلى قريش على جعل فأعلم الله رسوله بذلك .

وننقل هنا من صحيح البخارى ج ٦ ص ١٨٦ « عن على رضى الله عنه قال: بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أناوالزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ(١) فإن بهاظعينة (٢) معها كتاب فخذوه منها فذهبنا تعادى(٣) بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجى الكتاب فقالت: مامعى من كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها(٤) فأتينا به النبى صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض أمر النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ماهذا ياحاطب؟ قال : لاتعجل على يارسول الله إنى كنت امرأ من قريش ولم أكن من أنفسهم (٥) ، وكان من معك من

---

(١) روضة خاخ : مكان بين مكة والمدينة .
(٢) ظعينة : امرأة فى هودج واسمها سارة .
(٣) أى تتجارى .
(٤) العقاص : الشعر المضفور .
(٥) كان ملصقا بهم بالحلف والولاء ولم يك منهم بالنسب .

المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى من النسب فيهم أن اصطنع إليهم يدا يحمون قرابتى وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى فقال : النبى صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم فقال عمر : دعنى يارسول الله فأضرب عنقه . فقال : إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله عز وجل أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، وأخرجه مسلم جـ ٤ صـ ١٩٤١ .

٢ ــ أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بقتل أمية بن خلف ، فلما بلغ أمية ذلك فزع . وعندما استنفر أبو جهل الناس ليدركوا عيرهم كره أن يخرج أمية معهم ، ولكن أباجهل ظل يستثيره حتى خرج فقتل .

والخبر ننقله من صحيح البخارى جـ ٥ صـ ٩١ ، حدث عبد الله ابن مسعود عن سعد بن معاذ أنه قال : كان صديقاً لأمية بن خلف وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد ، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة انطلق سعد معتمراً فنزل على أمية بمكة فقال لأمية انظر لى ساعة خلوة لعلى أن أطوف بالبيت فخرج به قريباً من نصف النهار فلقيهما أبو جهل . فقال : يا أبا صفوان ، من هذا معك ؟ فقال هذا سعد فقال له أبو جهل : ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد أويتم الصباة [1] وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم أما والله لولا أنك مع أبى صفوان مارجعت إلى أهلك سالما فقال له سعد ورفع صوته عليه : أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعنك ماهو أشد عليك منه طريقك على المدينة ، فقال له أمية : لاترفع صوتك ياسعد على أبى الحكم سيد أهل الوادى فقال سعد : دعنا عنك يا أمية فوالله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنهم قاتلوك .

(١) المراد بالصباة : النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه لأنهم مالوا عن دين الكفار يريد أن يقول : إن سعدا وأهل المدينة أنزلوا النبى صلى الله عليه وسلم فى ديارهم وأكرموهم .

قال : بمكة ؟ قال : لا أدرى ففزع لذلك أمية فزعا شديدا فلما رجع أمية إلى أهله قال : يا أم صفوان ألم ترى ماقال لى سعد ؟ قالت : وماقال لك ؟ قال زعم أن محمدا أخبرهم أنهم قاتلى فقلت له : بمكة ؟ قال : لاأدرى . فقال أمية : والله لاأخرج من مكة . فلما كان يوم بدر استنفر (١) أبو جهل الناس قال : أدركوا عيركم فكره أمية أن يخرج فأتاه أبو جهل فقال : ياأبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت ـ وأنت سيد أهل الوادى تخلفوا معك . فلم يزل به أبو جهل حتى قال : أما إذ غلبتنى فوالله لاشترين أجود بعير بمكة ، ثم قال أمية : يا أم صفوان جهزينى . فقالت له يا أبا صفوان وقد نسيت ماقال لك أخوك اليثربى ؟ قال : لا . ماأريد أن أجوز (٢) منهم الا قريبا . فلما خرج أمية أخذ لاينزل منزلا إلا عقل بعيره فلم يزل بذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر » .

٣ — أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بوفاة أصحمة النجاشى فى اليوم الذى مات فيه .

أخرج البخارى ج ٢ ص ١١١ ومسلم ج ٢ ص ٦٥٧ عن أبى هريرة قال : نعى (٣) لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشى صاحب الحبشة فى اليوم الذى مات فيه فقال « استغفروا لأخيكم » وفى رواية لمسلم عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مات اليوم عبد لله صالح . أصحمة » فقام فأمنا وصلى عليه .

٤ — فى غزوة مؤتة أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بما جرى لقادة جيشه .

---

(١) استنفر الناس : طلب خروجهم .
(٢) أى أسلك .
(٣) نعى لنا النجاشى : أى أخبرهم بموته وأذاعه فيهم .

أخرج البخاري في صحيحه ج ٥ ص ١٨٢ عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيه خبرهم فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » .

٥ - أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عما وقع لخبيب بن عدي .

وقصته ننقلها بلفظها من البخاري ج ٥ ص ١٠٠ (عن أبي هريرة قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم عشرة عينا [١] وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب حتى إذا كانوا بالهدة[٢] بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام فاقتصوا [٣] آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه فقالوا تمر يثرب ، فاتبعوا آثارهم فلما حس [٤] بهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى موضع فأحاط بهم القوم فقالوا لهم : انزلوا فأعطوا [٥] بأيديكم ، ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحدا فقال عاصم بن ثابت : أيها القوم أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر ثم قال : اللهم أخبر عنا نبيك صلى الله عليه وسلم فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد والميثاق منهم خبيب وزيد ابن الدثنة ورجل آخر فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم بها . قال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، والله لا أصحبكم إن لي بهؤلاء أسوة

---

(١) عينا : جاسوسا .
(٢) الهدة بفتح الهاء والدال المهملة المشدودة ، ويروى (الهدأة) بفتح الهاء والدال والهمزة ويروى بسكون الدال مع همزة مفتوحة : موضع .
(٣) أي تتبعوا آثار أقدامهم وسيرهم .
(٤) حس قال السفاقسي : صوابه أحس رباعيا أي علم قسطلاني ج ٦ ص ٢٥٩
(٥) أي استسلموا .

- يريد القتلى - فجرروه وعالجوه فأبى أن يصحبهم، فانطلق بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بعد وقعة بدر فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيبا وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خبيب عندهم أسيرا حتى أجمعوا قتله فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها فأعارته فدرج بنى لها وهى غافلة حتى أتاه فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده قالت ففزعت فزعة عرفها خبيب ، فقال : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك ، قالت: والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، والله لقد وجدته يوما يأكل قطفا من عنب فى يده وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة ، وكانت تقول : إنه لرزق رزقه الله خبيبا فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحل قال لهم خبيب دعونى أصلى ركعتين فتركوه فركع ركعتين فقال : والله لولا أن تحسبوا أن ما بى جزع لزدت ثم قال : اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم احدا ، ثم أنشا يقول :

فلست أبالى حين أقتل مسلما
على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشا
يبارك على أوصال [1] شلو ممزع

ثم قام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله ، وكان خبيب هو سن لكل مسلم قتل صبرا [2] الصلاة ، وأخبر - النبى صلى الله عليه وسلم - أصحابه يوم أصيبوا خبرهم وبعث ناس من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حدثوا أنه قتل أن يؤتوا بشىء منه يعرف ، وكان قتل رجلا عظيما من عظمائهم فبعث

---

(١) أوصال : أعضاء - شلو : جسد - ممزع : مقطع .
(٢) قتل صبرا : قتل بعد حبسه للقتل .

الله لعاصم مثال الظلة (١) من الدبر فحمته من رسلهم فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئا .

٦ — أخبر عليه الصلاة والسلام عن مقتل القراء .

وننقل القصة من صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥١١ ، عن أنس بن مالك قال : جاء ناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أن ابعث معنا رجالا يعلمونا القرآن والسنة فبعث إليهم سبعين رجلا من الانصار يقال لهم القراء فيهم خالي حرام ، يقرءون القرآن ويتدارسون بالليل يتعلمون .

وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه فى المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء فبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان . فقالوا : اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا . قال وأتى رجل حراما خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفذه فقال حرام : فزت ورب الكعبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « إن إخوانكم قد قتلوا وإنهم قالوا : اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا » .

٧ — أخبر أم حرام عن غزوها فى البحر ، وعلو مكانتها .

وننقل الخبر من صحيح البخارى ج ٨ ص ٧٨ ، عن إسحق بن عبد الله ابن أبي طلحة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه سمعه يقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب إلى قباء يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت تحت (٢) عبادة بن الصامت فدخل يوما فأطعمته فنام رسول

---

(١) الظلة : السحابة . الدبر : الزنابير .

(٢) لم يكن تزوجها فى ذلك الحين فهو إخبار عما آل إليه حالها كما فى إرشاد السارى للقسطلانى ج ٩ ص ١٦٣

الله صلى الله عليه وسلم ثم استيقظ يضحك قالت فقلت مايضحكك يارسول الله ؟ فقال : ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله يركبون ثبج [١] هذا البحر ملوكا على الأسرة ، أو قال مثل الملوك على الأسرة ـ شك إسحق ـ قالت : ادع الله أن يجعلنى منهم فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وضع رأسه ثم استيقظ وهو يضحك قلت : مايضحكك يارسول الله ؟ قال : ناس من أمتى عرضوا على غزاة فىسبيل الله كما قال فى الأولى فقلت يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم ـ قال : أنت من الأولين،فركبت البحر زمان[٢] معاوية فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت ـ وفى رواية البخارى ج ٤ ص ٢٢ فخرجت معزوجها عبادة بنالصامت غازيا أول ماركب المسلمون البحر مع معاوية فلما انصرفوا من غزوهم قافلين فنزلوا الشام فقربت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت ، وكررحديثها البخارى ج ٤ ص١٩٠، ج ٩ ص ٤٤ ومثله فىصحيح مسلمج ٣ ص ١٥١٩ وكذلك فىالترمذى وأبى داود والنسائى والموطأ .

٨ — اخبر فاطمة أنها أول من يلحقه بعد وفاته وتحقق ذلك .

جاء فى صحيح البخارى ج٦ ص١٢ ومسلم ج ٤ ص ١٩٠٥ ولفظه عن عائشة قالت اجتمع نساء النبى صلى الله عليه وسلم فلم يغادر منهن امرأةفجاءت فاطمة تمشى كأن مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مرحبا يا بنتى . فأجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم إنه أسر إليها حديثا فبكت فاطمة ثم إنه سارها فضحكت أيضا فقلت لها : ما يبكيك ؟ فقالت :

---

(١) ثبج : ظهره ووسطه .

(٢) زمان إمرته على الشام فى خلافة عثمان لا فى أيام خلافته هو فقد ركبت مع زوجها إلى قبرص سنة ٢٨ ثمان وعشرين واسم (أم حرام) الرميصاء وهى خالة أنس .

ماكنت لأفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : مارأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن فقلت لها حين بكت أخصك رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديثه دوننا ثم تبكين؟ وسألتها عما قال فقالت : ماكنت لأفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا قبض سألتها فقالت : إنه كان حدثنى أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة وأنه عارضه به فى العام مرتين ولا أرانى إلا قد حضر أجلى وإنك أول أهلى لحوقاً بى ونعم السلف أنا لك فبكيت لذلك ثم إنه سارنى ، فقال ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة فضحكت لذلك .

٩ — أخبر عن أول زوجاته لحوقا به بعد وفاته :

عن عائشة رضى الله عنها أن بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم « قلن : يارسول الله أينا أسرع بك لحوقا ؟ قال : أطولكن يدا ، فأخذن قصبة يذرعنها فكانت سودة أطولهن يدا فعلمنا بعد أنما كان طول يدها الصدقة ، وكانت تحب الصدقة وكانت أسرعنا لحوقا به » أخرجه الشيخان والنسائى .

١٠ — أخبر فى وقت كانت أمته محدودة عن أمر تحقق بعد وهو أن أمته لاتخلوا فى أى زمن من الأزمان ممن يلتزم الحق ، فقال صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » أخرجه مسلم وغيره عن ثوبان .

١١ — أخبر عن فتح مصر وأوصى بأهلها خيراً :

فى صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٩٧٠ عن أبى ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما أو قال ذمة وصهرا » وقد تحقق هذا فى عهد عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص .

١٢ — أنذر بريح شديدة فى تبوك وطلب من أصحابه أن يأخذوا حذرهم منها فمن استجاب نجا ومن أبى حملته الريح .

فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧٨٥ عن أبى حميد قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فأتينا وادى القرى على حديقة لامرأة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخرصوها[1] فخرصناها وخرصها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أوسق[2] وقال : احصيها حتى نرجع إليك إن شاء الله ، وانطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ستهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقم فيها أحد منكم فمن كان له بعير فليشد عقاله ، فهبت ريح شديدة فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلى طيء وجاء رسول ابن العلماء صاحب أيلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب وأهدى له بغلة بيضاء فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدى له بردا ثم أقبلنا حتى قدمنا وادى القرى فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة عن حديقتها كم بلغ ثمرها ؟ فقالت : عشرة أوسق ، تماما كما أخبر .

١٣ — أخبر أنه سيأتى زمان ترتحل فيه الظعينة من الحيرة[3] إلى الكعبة فلا تخاف أحدا إلا الله .

فى صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٣٩ عن عدى بن حاتم قال : بينا أنا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل فقال يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها ، وقد أنبئت عنها ،

---

(١) أى قدروا محصولها بطريق الحذر والتخمين .

(٢) الوسق : ستون صاعا وهو (٣٢٠) رطلا حجازيا (٤٨٠) عراقيا .

(٣) بلد ملوك العرب الذين تحت حكم آل فارس وكان ملكهم آنئذ إياس بن قبيصة الطائى وليها من تحت كسرى بعد قتل النعمان بن المنذر .

قال فإن طالت بك حياة ، لترين الظعينة (١) ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف أحدا إلا الله قلت فيما بينى وبين نفسى فاين دعار(٢) طيء الذين قد سعروا(٣) البلاد ، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى ، قلت كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حيـــاة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه ، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه ، وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فيقولن : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك فيقول بلى . فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم قال عدى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « اتقوا النار ولو بشقة تمرة فمن لم يجد شقة تمرة فبكلمة طيبة » وقال عدى فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لاتخاف إلا الله ، وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ماقال النبى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم يخرج ملء كفه .

١٤ — أخبر عن محنة عثمان رضى الله عنه وقد وقعت أيام خلافته .

فى صحيح البخارى ج ٥ ص ١٦ عن أبى موسى رضى الله عنه قال كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حائط من حيطان المدينة فجاء رجل فاستفتح فقال النبى صلى الله عليه وسلم أفتح له وبشره بالجنة ففتحت له فإذا أبو بكر فبشرته بما قال النبى صلى الله عليه وسلم فحمد الله ثم جاء رجل فاستفتح فقال النبى صلى الله عليه وسلم افتح له وبشره بالجنة ففتحت له فإذا هو عمر فاخبرته بما قال النبى صلى الله عليه وسلم ثم استفتح رجل فقال لى افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه فإذا عثمان فأخبرته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله ثم قال : الله المستعان .

---

(١) الظعينة : المرأة فى الهودج .
(٢) دعار : جمع داعر وهو قاطع الطريق .
(٣) سعروا البلاد : ألهبوها وأخافوها .

١٥ — أخبر عن محنة المسلمين وتآمر الدول عليهم .

فى سنن أبى داود ج ٢ ص ٤٢٦ عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك الأمم أن تداعى (١) عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء (٢) كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول الله وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهة الموت » وأخرجه أيضا أحمد فى مسنده .

١٦ — أخبر باتساع ملك المسلمين وفوزهم بكنوز كسرى وقيصر ، واضطراب أمر المسلمين فى النهاية .

ورد فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢١٥ عن ثوبان قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله زوى (٣) لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها وأعطيت الكنزين الأحمر (٤) والأبيض وإنى سألت ربى لأمتى أن لايهلكها بسنة (٥) عامة وأن لايسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح (٦) بيضتهم وإن الله قال : يامحمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لايرد وإنى أعطيتك لأمتك أن لاأهلكهم بسنة عامة وأن لاأسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولواجتمع عليهم من بأقطارها

---

(١) تداعى : يدعو بعضهم بعضا للاجتماع عليكم .
(٢) غثاء السيل : مايحمله من الوسخ وغيره .
(٣) زوى : جمع وضم .
(٤) الذهب والفضة والمراد كنزا كسرى وقيصر ملكى الفرس والشام .
(٥) قحط يعمهم .
(٦) البيضة · العز والملك والمراد يهين جماعتهم .

أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، ويسبى بعضهم بعضا .

(و) كان عليه الصلاة والسلام يرى من خلفه كما كان يرى من أمام .

روى الإمام البخارى فى صحيحه كما فى فتح البارى ج ١ ص ٤٠٩ مانصه « عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل ترون قبلتى هنا فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم إنى لأراكم من وراء ظهرى » ومثله فيه ج ٢ ص ١٦٥ ، ١٦٨ عن أنس وهو فى المحلى لابن حزم ٤ : ٥٥ وكذلك فى صحيح مسلم ص ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، وفى سنن النسائى ج ٢ ص ٩١ وفى موطأ مالك ج ١ ص ١٣٩ ، وفى مسند الطيالسى ج ١ ص ٩٧ وسنن الإمام الشافعى ج ١ ص ١٣٨ ، ومسند البزار كما فى مجمع الزوائد ج ٢ ص ٨٩ وفى مسند أحمد ابن حنبل ج ١٢ ص ١٨٧ .

(ز) نصرانى تلفظه الأرض وتدفعه فوقها .

فى صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٤٦ عن أنس رضى الله عنه قال : كان رجل نصرانيا فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران فكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فعاد نصرانيا ، فكان يقول : مايدرى محمد إلا ما كتبت له فأماته الله فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه ، فحفروا له فأعمقوا فأصبح ولقد لفظته الأرض فقالوا هذا فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه فحفروا له وأعمقوا فى الأرض ما استطاعوا فأصبح قد لفظته الأرض فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه » .

(ح) حراسة الملائكة له .

ورد فى صحيح مسلم ج ٥ ص ٢١٥٤ « عن أبى هريرة قال قال أبو جهل

هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قال فقيل نعم . فقال واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن رقبته أو لأعفرن وجهه فى التراب . قال : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى زعم ليطأ على رقبته قال : فما فجئهم(١) منه إلا وهو ينكص (٢) على عقبيه ويتقى بيديه قال : فقيل له: مالك ؟ فقال : إن بينى وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لودنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا » .

هذه آيات وعجائب تشهد بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وتؤكد صدق دعواه وتؤيد بحق أنه رسول من عند الله .

(ط) الإسراء والمعراج :

ثبت الإسراء والمعراج بالقرآن والسنة قال تعالى فى كتابه الكريم (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) .

وقال تعالى (والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وماغوى وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى عله شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنافتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ماأوحى ماكذب الفؤاد مارأى أفتمارونه على مايرى ولقد رآه نزلة أخرى عندسدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة مايغشى مازاغ البصر وماطغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى) .

الآية الأولى دلت على وقوع الإسراء وهوذهاب النبى صلى الله عليه وسلم ليلا من مكة بلد المسجد الحرام إلى بيت المقدس فى رحلة ممتعة أراه الله فيها

---

(١) أى بغتهم .
(٢) ينكص على عقبيه : يرجع إلى الوراء .

آياته الكبرى تثبيتا له واحتفاء به . وهذا القدر اتفق عليه المسلمون ولم يختلف أحد منهم فيه . ومنكره كافر .

نعم . وقع الخلاف فى أمور أخرى تتصل به،وتشبث كل صاحب رأى بأدلة لم تسلم من نقاش وإن كنا نرجح أنه وقع يقظة بروح النبى صلى الله عليه وسلم وجسده أخذا منظاهر قوله (بعبده) والعبد حقيقة فى الروح والجسد، فلا داعى لمخالفة الظاهر ما دام الأمر ممكنا تتعلق به قدرة الله ، ويرشح هذا أيضا ماجرى من فتنة ، وماحدث من ضجة عقب إذاعة النبى صلى الله عليه وسلم له فلو لم يكن بالروح والجسد ماحدث هذا وما استبعده أحد .

والآيات الأخرى من سورة النجم تشير إلى المعراج ، وتوحى بعروج النبى صلى الله عليه وسلم من الأرض إلى العالم العلوى حيث سعد بالأنوار الإلهية والفيوضات الربانية ، ووجه دلالتها أنها تفيد رؤيته صلى الله عليه وسلم لجبريل على صورته الحقيقية مرتين مرة كان النبى صلى الله عليه وسلم يوما فى الأرض وجبريل فى الأفق الأعلى يدنو من النبى حتى أصبح قريبا منه على مقدار قوسين ومرة كان فيها عند سدرة المنتهى ومقرها فى العالم العلوى فهى توحى بقصة المعراج وتشير إليه .

وأجود الأحاديث كما قال الحافظ السيوطى فى كتابه « الآية الكبرى فى شرح قصة الإسراء » ص ٣ هو حديث مسلم ، ونصه من صحيحه ج ١ ص ١٤٥

عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتيت بالبراق (وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه) قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء .

قال : ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل

عليه السلام اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل : وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من أنت ؟ قال جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد . قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما فرحبا ودعا لى بخير ثم عرج بى إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل : من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال : محمد صلى الله عليه وسلم قيل وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ؟ قال : ففتح لنا فإذا أنا بيوسف صلى الله عليه وسلم إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل من هذا : قال : جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير ، قال الله عز وجل (ورفعناه مكانا عليا) ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهرون صلى الله عليه وسلم فرحب ودعا لى بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل من هذا ؟ قال : جبريل ـ قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد بعث إليه ، قال! قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بموسى فرحب ودعا لى بخير ثم عرج بى إلى السماء السابعة واستفتح جبريل فقيل من هذا ؟ قال جبريل : قيل : ومن معك قال محمد صلى الله عليه وسلم قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون إليه ثم ذهب إلى السدرة [1] المنتهى وإذا ورقها كآذان

(١) فى هذه الرواية دخلت (أل) على (سدرة) وفى غيرها بدونها ـ =

الفيلة وإذا ثمرها كالقلال(١) ، قال فلما غشيها من أمر الله ماغشى تغيرت فما أحدمن خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله إلى ماأوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى فقال مافرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لايطيقون ذلك فإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربى فقلت يارب خفف على أمتى فحط عنى خمساً فرجعت إلى موسى فقلت حط عنى خمساً قال : إن أمتك لايطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال : فلم أزل أرجع بين ربى تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال يامحمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال : فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرت فقال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه) .

حول الإسراء والمعراج

حياة الرسول صلى الله عليه وسلم سجل حافل يزخر بالأحداث الكريمة، والأسرار العظيمة والذكريات التى تبعث فى النفوس الأمل إذا استبد بها اليأس وتوحى إليها بمنهج الخلاص إذا اشتد بها الخوف والقلق ، وتتألق فى جبين الكون كأنها النجوم فتهدى بأشعتها السارى فى دياجير الظلام وترشد بنورها الحائر فى جنح الليل البهيم وتداعب جفن الوسنان فتبعد

= وتسمى سدرة المنتهى قيل : لان علم الملائكة ينتهى إليها ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ، وقيل لكونها ينتهى إليها مايهبط من فوقها ومايصعد من تحتها من أمر الله .

(١) القلال : جمع قلة والقلة : جرة كبيرة تسع قربتين أو أكثر .

عنه الكرى وتوقظ فيه الحس والشعور وتحمله على الاعتراف بعظمة هذا النبي الكريم .

ذكريات لسنا نحصيها فهي تفوق العد ولا تقف عند حد ولعل أروع هذه الذكريات ذكرى الإسراء والمعراج ففي هذه الآية تجمعت آيات وفي هذه المعجزة تعانقت معجزات .

ولنعد إلى التاريخ نستقصى أخباره ونتنسم أسراره ونتعرف آثاره ونتبين الأجواء التي سبقت هذه النفحة الإلهية والمنحة الربانية .

عاش الرسول صلى الله عليه وسلم أيام الدعوة الأولى وهو ينعم بأنيسين خديجة تؤنسه في المنزل وأبو طالب يؤنسه خارج المنزل .

كانت خديجة زوجة صالحة بادرت أول عهده بالنبوة بتصديقه وسارعت فورا ودون إبطاء إلى الإيمان به ووضعت مالها تحت تصرفه .

وكان أبو طالب يمنعه من أذى أعدائه ويدفع عنه كيد خصومه ويقف إلى جانبه إذا دهمه خطب أو حزبه أمر .

كان كل منهما عونا له في النائبات وسندا له في الحوادث فإذا تلبد الجو أمامه وأظلمت الدنيا في عينيه وساءت معاملة قومه له عاد إلى منزله فالتقى بزوجته البارة تقابله بابتسامة ساحرة فينشرح صدره ويرتاح قلبه ولا يكاد يبادلها الحديث ويفضى إليها بأحزانه وآلامه حتى تبدد عنه كل ألم وتسرى عنه كل هم وتفتح في وجهه كل أبواب الأمل فيخرج نشطاً فتياً يدعو إلى الله من جديد صابراً محتسباً فإذا أعرض عنه قومه وصمموا على النيل منه وعقدوا العزم على الكيد له وقف أمامهم أبو طالب يذب عن ابن أخيه ويحوطه ويحميه ويشد أزره ويقويه .

هكذا كان يعينه أبو طالب وهكذا كانت تواسيه خديجة ، وفي عام واحد قبيل الإسراء ماتت خديجة ومات عقبها أبو طالب ، فاتسع مجال

الإيذاء أمام الأعداء ، وفقد الرسول الرجل الذى كان يحوطه ويدافع عنه وفقد شريكته التى كانت تغمره بحنانها وتعينه بمالها فتراكمت المتاعب على نفسه وتفاقمت الأحزان فى قلبه حتى سمى هذا العام عام الحزن ولا عجب فقد كان يخرج من بيته ليستقبل أذى قومه فى عنف وبدون رحمة ثم يعود إلى بيته ليجد الكآبة والوحشة ولم تعزب عن الخصوم هذه الحقيقة فضاعفوا من كيدهم وبالغوا أذاهم عسى أن يستبد به الهم فيموت من فرط الألم .

وأدرك الرسول أن بقاءه بينهم لم يعد ميسورا فهاجر إلى الطائف لعله يجد فيهم من يصدقه وينصره ويعينه ويؤازره ويعزره ويوقره ولكنه ما كاد يعرض عليهم دعوته حتى قابلوه بالسخرية وأغروا به سفهاءهم يرمونه بالحجارة واضطر عليه الصلاة والسلام أن يعود إلى مكة مكروبا كاسف البال حزين النفس مغموم الفؤاد مرددا فى ضراعة وانكسار « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس » .

وفى هذا الجو القاتم وفى هذه الظروف الكئيبة والأوقات الرهيبة واللحظات العصيبة وبعد أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت جاءته دعوة من ربه ليرحل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم إلى السبع الطباق فما فوقها ليحظى بحضرة القدس فى جو يكتمل فيه الأنس وتستمتع به النفس ويظفر فيه الرسول بأبهى مظاهر التبجيل والتكريم تثبيتاً لفؤاده وشرحاً لصدره ورفعاً لذكره :

تمادى حماة الشرك فى غلوائهم
وآذوا رسول الله وهو يذكر
فضاقت عليه الأرض وهى رحيبة ... وبات حزينا قلبه يتفطر
فنادت سماء الله لا تأس إننى ... أحن إلى لقياك والشوق يغمر

إذا الأرض ضاقت بالرسـول فحسبه
مكان منيف فى السما متخير

هيأ الله له هذه الرحلة الممتعة ليطرد عنه ماتراكم على قلبه من هموم وماتكدس من متاعب وليحس فؤاده المعنى ببرد الراحة وليشعر بأنه فى رعاية الله وكنفه وحمايته وحفظه وليعلم أنه إن هان على الناس فهو عزيز عند رب الناس وإذا تجهم له أهل الأرض فقد لاقاه بالحفاوة أهل السماء وليطمئن أخيرا على مستقبل دعوته فيستيقن بأن ساعة الانطلاق والتحرر والعزة والسيادة والرفعة والعلو قد وافت بشائرها وبدأت طلائعها .

نعم لقد امتن الله عليه برؤية طرف من آياته طالع فيه مظاهر قدرة الله الكبرى فانمحت عنه آلام الماضى القريب والبعيد وقوى لديه الرجاء فى مستقبل ميمون سعيد يتصدع فيه بنيان الشرك وتخمد فيه جذوة الكفر ويقوى فيه حصن الإيمان وتتلألأ فى أفقه تعاليم الدين وتسرى أشعتها حتى تعم أنحاء العالم .

وإذا كان الله قد جمع لنبيه فى هذه الليلة من سبقه من الرسل فتلاقوا على طاعة الله فذلك إعلان عن طبيعة الدعوة التى جاء بها خاتم النبيين إنها دعوة خالصة توثق أواصر الود بين حملة الرسالات وتتعهد البناء الذى بدءوه وتعترف بجهودهم التى بذلوها وتدعو إلى تكريمهم والاعتراف بفضلهم وتنوه بوحدة الأصول والأهداف التى تجمع بينهم .

ولا غرابة فقد جاء فى القرآن (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وجاء (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وماأوتى موسى وعيسى وماأوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

وفى حديث رواه البخارى أشار الرسول إلى أنه جاء ليبنى ويكمل ولم يجىء لينقض ويهدم جاء ليتمم الصرح الذى شيده السابقون من الرسل والأنبياء فقال عليه الصلاة والسلام « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

وبعد — فحادث الإسراء والمعراج آية من أروع الآيات ومعجزة من أقوى المعجزات ، وليس فى استطاعة العقل أن يعلله أو يدرك أسبابه أو يفهم أسراره لأنه معجزة أجراها لنبيه من خلق الكون وبرأه وأبدعه وسواه ووضع له النظم التى تتحكم فيه وتأخذ بنواصيه وهو إن شاء خرقها وعدلها وغيرها وبدلها (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) .

وإذا تحير الناس بالأمس فى فهم الإسراء والمعراج على هذا الوجه وبدا لهم الشك فيه فما لهم أن يتحيروا اليوم أو يجادلوا بعد ماشاهدوه من صواريخ تنطلق فى الفضاء حتى تبلغ السماء وصدق الله العظيم إذ يقول : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

فقل للألى قد أنكروه رويدكم أمامكم آيات ربى فانظروا
إذا جحد المعراج بالأمس جاحد
فليس يمارى اليوم فيه مفكر
أيعرج صاروخ إلى قمر السماء توجهه منا عقول تدبر
وننكر أن يرقى إليها محمد
بتدبير من للكائنات يسخر
أيقدر مخلوق ويعجز خالق
تعاليت يا ربى فإنك أقدر

فى ليلة الإسراء شرع الله الصلاة وهى طهارة للنفس وتزكية للحس فيها يتصل العبد بمولاه ويحظى بإنعامه ورضاه ويعرج بروحه إلى الملأ الأعلى وبها يتذوق حلاوة الإيمان ويستعين على محن الزمان ، وصروف الأيام (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) .

إن ذكرى الإسراء والمعراج لتهتف بالمسلمين وتصرخ فى وجوههم أن هبوا من نومكم واستيقظوا من سباتكم واستعدوا للحياة بالإيمان والصبر والتضحية لا تركنوا إلى الأرض فقد حلق نبيكم فى الآفاق ، واجتاز السبع الطباق ، لا يفت فى عضدكم أحداث الزمان ومكائد الإنسان ، فقد علمكم الرسول كيف تستهينون بالآلام وتنفذون إلى الآمال بالعزم الأكيد والعمل السديد ، لا تدعوا المسجد الأقصى يهدده أبناء صهيون ووفروا جهودكم ودماءكم وأموالكم لملاقاة أعدائكم أعداء الدين (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) .

كافحوهم بكل سلاح حتى تستردوا وطنكم المسلوب وتستعيدوا حقكم المغصوب وتؤمنوا البيت الذى افتتحه رسول الله ، وذكر فيه مولاه .

(إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) .

وحدوا صفوفكم عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون والله معكم ولن يتركم أعمالكم . . .

مسرى النبي صلى الله عليه وسلم وبنو إسرائيل

تحدثنا عن الإسراء والمعراج كآية من آيات الله التي أيد بها رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ولا نستطيع فى هذه الظروف التى نعيشها أن نتجاهل ما بيننا وبين اليهود من صراع على أرض الله المباركة أرض فلسطين وبخاصة القدس . ونرى لزاما علينا أن نفند مايروجه اليهود من أسانيد لإثبات حقهم فى امتلاكها والسيطرة عليها .

والحديث فى هذا ليس بخارج عن موضوع كتابنا فصراع المسلمين مع اليهود قد تنبأ به الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من شواهد رسالته .

فلسطين عربية لاحق لليهود فيها

بقضاء إلهى نافذ تشتت اليهود فى أنحاء العالم ، وتفرقوا فى دول شتى ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ولا يكاد يمر قرن من الزمان حتى يتعرض اليهود لمحنة قاسية ، وبلاء شديد ، مصداقاً لقوله تعالى (وإذتأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ، وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) [١] .

---

(١) فى كتاب المسألة اليهودية طبعة ١٩٣٨ لمؤلفه لويس جولدنج اليهودى مايؤكد صدق الآية الكريمة ونزول ألوان العذاب باليهود على مدى التاريخ القديم والحديث ولنكتف بما يأتى : فى طولوز من فرنسا سنة ١٠٨١ م كان كبير اليهود يحضر صاغرا فى عيد الفصح ليتلقى صفعة الاستغفار من رئيس النصارى ، وفى أسبانيا سنة ١٢٩١ م قتل سبعون ألف يهودى وفى روسيا سنة ١٦٤٨ م قتل مائة ألف يهودى ، والقوا مثل هذا المصير فى انجلترا وإيطاليا ورومانيا وبولندا ومعظم دول أوربا ـ أما هتلر فقد قضى عليهم بالموت المعنوى والحسى فى ألمانيا وفى كل البلاد التى احتلها أثناء الحرب العالمية الأخيرة .

وبدافع من المحن التى تعرض اليهود لها ، وبدافع أيضاً من العصبية الدينية التى تشبعوا بها تجمع زعماؤهم وعقدوا مؤتمرات درسوا فيها أوضاعهم وأحوالهم ، واتخذوا قرارات كان أهمها اختيار فلسطين لتكون وطناً قومياً لهم ، وجدوا فى نشر دعايات مضللة تبرر مطامعهم ، وقاموا باذاعة أسانيد تسوغ لهم ـ فى زعمهم ـ أن يعودوا إليها ، ويقيموا دولة عليها .

ومن الواجب أن نرد على دعواهم ، ونفند مدعاهم . ونكشف الستار عن تضليل اليهود حتى لايغتر أحد بقولهم ، أويصغى لتضليلهم . واجبنا أن نذيع أسانيدنا التى تؤيدحقنا ، وتشد أزرنا ، ولايستوى من يناضل فى سبيل الحق بمن يناضل فى سبيل الباطل ، ولابقاء الباطل إلا فى غفلة الحق عنه .

لابد أن يفهم العالم أننا أصحاب حق،ولابد أن تشهد الدول أننامصممون على الدفاع عن حقنا بكل الوسائل النظرية والعملية ، المادية والروحية،وإن شاءالله فسيكون لنا الظفر والنجاح، بقوة الله ثم بقوة السلاح والحق الصراح .

فلسطين عربية منذ فجر التاريخ

من نحو أربعة آلاف عام لم يكن لفلسطين كيان سياسى منفصل، بل كانت جزءا من سورية أوديار الشام،ومنذ ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد رحل إلى جنوب البلاد الشامية قبائل كنعانية تنتسب لكنعان بن حام بن نوح وقد خرجت هذه القبائل من الجزيرة العربية ـ وهى منبت الأسرة السامية ـ وسمى هذا الجزء من ذلك الحين أرض الكنعانيين ، ولم يسم هذا الجزء بفلسطين إلا بعد مدة طويلة عندما تعرض سهل هذه الأراضى لغزو قبيلة يونانية تسمى (فلستيا) جاءت من أقريطش (كريت) وجزر بحر إيجة فاحتلوا القسم الساحلى وسموه باسمهم وذلك من نحو ١٢٠٠ سنة قبل الميلاد .

والقدس ـ وهى حاضرة فلسطين ـ كانت تعرف فى بدء نشأتها باسم

(يوس) نسبة إلى (اليبوسيين) من بطون العرب الأوائل الذين نشأوا فى صميم الجزيرة العربية ثم نزحوا عنها مع من نزحوا من القبائل الكنعانية حوالى ٢٥٠٠ قبل الميلاد واحتلوا التلال المرتفعة للمدينة القديمة وشيدوا على أكمتها الجنوبية (جبل صهيون) برجاً لحمايتها ضد المغيرين بزعامة ملكهم (سالم اليبوسى) الذى زاد فى بنيانها ، وأقام تحصيناتها ، وكان أول من اختطها من ملوك اليبوسيين (ملكى صادق) الذى عرف عنه أنه كان محباً للسلام حتى أطلق عليه ملك السلام ومن هنا جاء إسم المدينة (سالم) و (شاليم) كما جاء فى الإصحاح ١٤ : ١٨ من سفر التكوين من العهد القديم (وهو مايدعى اليهود أنه يتضمن التوراة) نعم . لقد عرفت هذه المدينة باسمها الكنعانى (أورسالم) (١) أو (مدينة السلام) إلى أيام الملك (سليمان) فدعيت باسم (أورشليم) ، ولما استولى داود عليه السلام على حصن (صهيون) أقام فيه وسماه (مدينة داود) وهو عبارة عن قلعة على ربوة عالية وسط أورشليم .

فلسطين وصلتها بالأنبياء

إن فلسطين ذات صلة وثيقة بكثير من الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فهى الأرض التى رحل إليها إبراهيم ، وهاجر إليها موسى ودرج فيها عيسى ، ونعم فيها بالعز والسلطان داود وسليمان ، وأسرى إليها محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، وعرج منها إلى السماء .

---

(١) يرى الأستاذ إسحق الحسينى أن اسمها القديم (يور شاليم) وهو مركب من كلمتين (يور) ومعناها (مدينة) و (شاليم) وهو اسم إله عبده الكنعانيون .

رحلة إبراهـــيم

إبراهيم : عليه الصلاة والسلام كان قد نشأ بين أهل (فدان آرام) بالعراق ثم بمدينة للكلدانيين على الخليج الفارسى قرب البصرة تدعى (أور) وبعدها انتقل إلى حوران ، وهاجر بوحى من الله إلى أرض الكنعانيين ، وفى طريقه عبر نهر الأردن ولهذا يسمى الإسرائيليون بالعبرانيين — على الأصح — ونزل فى المناطق الجبلية وعاش فيها مع لوط وأقام على عبادة الله، ودعوة الناس إليه فأكرمه الله بوعده كما فى سفر التكوين الإصحاح الخامس عشر : ١٨ « فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلا لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » ، وكما فى الإصحاح السابع عشر ٥—٨ « لايدعى إسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأنى أجعلك أبا لجهور من الأمم وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً ، وملوك منك يخرجون وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا ، لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبدياً وأكون إلههم » .

بعد ذلك حصل جدب فى فلسطين فانتقل إبراهيم وزوجته سارة إلى مصر أيام حكم الهكسوس (وهم جماعات من الرعاة نشأوا فى آسيا وانحدروا لمصر نتيجة لمجاعات فى بلادهم وحكموا من ٢٠٩٨ إلى ١٥٨٧ قبل الميلاد مكونين الأسر الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة ثم طردهم أحمس وكون الأسرة الثامنة عشرة) وبقى هو وزوجته فى مصر إلى ما شاء الله ، وجرى اتصال بينه وبين حاكمها ، ثم عاد إلى فلسطين ومعه زوجته (سارة) وجارية من مصر تسمى (هاجر) ، وقد تزوج إبراهيم بها وأنجب منها (إسماعيل) وبعد سنوات رزق من (سارة) (باسحق) وأوحى الله إلى نبيه إبراهيم أن يرحل بهاجر وولدها إسماعيل إلى مكة فامتثل الأمر . وفى مكة أتام إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت الحرام ، وشاء الله أن يعود إبراهيم

ليموت ويدفن فى مغارة مكفيلة فى الموضع الذى عليه مقام الخليل فى حبرون وتسمى الآن مدينة (الخليل) وكان اسمها فى الأصل قرية أربع ، تكوين ٢٣ : ٢ ، ٢٥ : ٩ — ١١ .

رحلة يعقوب وبنيه

وبعد وفاة إبراهيم بقى إسحق فى أرض كنعان قرب بئر سبع وقد بقى على عهد الله ، وكان له ابنان « عيسو ويعقوب » وقد سمى « يعقوب » بهذا الإسم لأنه كان توأما لعيسو وخرج ويده بعقب عيسو كما فى التكوين ٢٥ : ٢٦ ثم اشتهر يعقوب بعد ذلك باسم « إسرائيل » ففى سفر التكوين ٣٢ : ٢٨ « لايدعى إسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس » وإسرائيل اسم مكون من كلمتين « أسر » وتعنى فى العبرية والعربية أيضاً قبائل وعائلات و « إيل » وتعنى فى العبرية « الله » فمؤدى الإسم أنه بركة على عباد الله المخلصين الأصفياء .

أنجب يعقوب اثنى عشر ولداً من أربع زوجات كما فى تكوين ٣٥ : ٢٢ — ٢٧ وقد اشتهر منهم يهوذا — ومن اسمه أخذت كلمة اليهود كما قيل جاء فى لسان العرب جـ ٣ ص ٤٣٩ « اسم هذه القبيلة : يهوذ ، فعرب بقلب الذال دالا » . واشتهر أيضاً يوسف الصديق الذى تآمر عليه إخوته وألقوه فى الجب ثم أخذته السيارة وبيع لعزيز مصر — فى عهد الهكسوس — وتربى عنده حتى أصبح وزير الخزانة والتموين بعد أن عبر له رؤياه تأويلا نجى مصر من مجاعة مهلكة .

وفى هذه الفترة أصيبت فلسطين بمجاعة فكان أهله يترددون على مصر ابتغاء القوت ، وأثناء ذلك تم التعارف بينه وبين إخوته . فسألهم عن والده ، واستقدمه مع أهله وأقاموا بمصر وظلوا يتناسلون ويتكاثرون

جيلا بعد جيل حتى طرد الهكسوس وتولى الفراعنة حكم مصر فاتهموا الإسرائيليين بأنهم كانوا أعوانا لأعدائهم فحقدوا عليهم وأذاقوهم سوء العذاب واتخذ المصريون منهم عبيداً فى بيوتهم وأجراء فى أرضهم وسخرهم الفراعنة فى بناء المعابد والمقابر .

موسى : بعثته وهجرته

فى عهد رمسيس الثانى وابنه منفتاح بلغ التسخير مداه فبعث الله موسى ليستخلصهم وينقذهم من أذاه ، وبعد حوار بين نبى الله موسى وفرعون تمكن موسى من الهرب ببنى إسرائيل مزودين بالميرة والذهب والفضة التى استعاروها من المصريين على رواية سفر الخروج ١١ : ٢ ، ١٢ : ٣٥ وانفلق لهم بحر « سوف » وهو بحر القلزم أى الأحمر ، والقلزم بلد تسمى الآن بالسويس إنفلق البحر وأقيم سدان عاليان بمشيئة الله ، على كل جانب سد ، ونجا موسى ومن معه .

وفى سيناء ثاروا على موسى وأخيه لما امتحنهم الله بضيق العيش ، ففى سفر الخروج ١٦ : ٣ « وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع ، فانكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع » وفى ١٧ : ٣ « وتذمر الشعب على موسى وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش » .

عندئذ دعا موسى ربه فامتن عليهم بالغذاء والماء (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) .

وفى الطريق رأوا قوما يعبدون الأصنام (قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون) .

وواعد الله موسى أربعين ليلة ، وبعدها استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه وذهب ليقابل مولاه ، فعلم أنهم صنعوا من حليهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وقال لهم ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم .

بعد ذلك دعاهم الله أن يفتتحوا أرض فلسطين فأرسل موسى اثنى عشر نقيباً يأتون بأخبار الكنعانيين الجبابرة سكان فلسطين فعاد كل نقيب يخذل جماعته ، وقالوا ـ عدا اثنين منهم ـ إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فانا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون قال رب إنى لاأملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ، عاقبهم الله فتاهوا فى الأرض أربعين سنة ، وفى التيه مات هرون .

خليفة موسى

عقب هارون مات موسى ، وحل محله يشوع « يوشع بن نون » كما فى إصحاحه ٢:١ - ٧ فقاد بنى إسرائيل واحتل أريحا وجزءاً من أرض فلسطين .

ولما دخل « عاى » قتل جميع أهلها رجالا ونساء وصلب ملكها ، وغنم كل أموالها وكذلك صنع فى كل البلاد التى فتحها كما فى يشوع ٨ : ٢٥ - ٢٩ ، ١١ : ١٢ - ١٥ .

بعدئذ قسم يشوع الأرض على أسباط إسرائيل كما فى يشوع الإصحاح الثالث عشر ، وبعد وفاته قام عليهم قضاة .

وكانت « يبوس » التى سميت بعد بالقدس لاتزال فى أيدى اليبوسيين فصعد إليهم بنو يهوذا وحاربوهم وسقطت المدينة بعد ذلك فى يدهم كما فى سفر القضاة ١ : ٨ .

ولما استقر بنو إسرائيل ولوا أمورهم الدينية « صموئيل » فاختار لهم « طالوت » ويسمى فى التوراة « شاول » ـ ملكا عليهم .

وفى عهده هاجم الكنعانيون الفلسطينيون الإسرائيليين وحاولوا الإجهاز على نواة دولة إسرائيل ، واستولوا على التابوت كما فى صموئيل ٤ : ١٠ ، ١١ ، وعين طالوت داود قائداً على الجيش فقتل داود جالوت « ويسمى جليات فى صموئيل الأول ١٧ : ٢٣ » وهو جبار فلسطينى .

مملكة داود وسليمان والهيكل

فى هذه الفترة انتهت حياة طالوت فالتف الشعب الإسرائيلى حول قبيلة « يهوذا » واختاروا داود ملكا عليهم كما فى سفر « صموئيل الثانى » الإصحاح الخامس ١-٢ فقام وحارب الكنعانيين الفلسطينيين وهزمهم ووطد ملكه فى أرضهم كما فى « صموئيل الثانى » : ١ واستمر حكمه أربعين سنة من ١٠١٠ إلى ٩٧٠ قبل الميلاد ومكث منها فى « حبرون » سبع سنين وستة أشهر ثم اختار بعدها « أورشليم » عاصمة لملكه بعد طرد اليبوسيين كما فى صموئيل الثانى ٥ : ٤-٧ .

وعلى مكان منها وقع اختياره لبناء معبد للرب وقد اشتراه من « عرنون » اليبوسى لكنه مات قبل أن يبنيه فأوصى به ولده سليمان الذى تولى من بعده وظل ملكا أربعين سنة كما فى الملوك الأول ١١ : ٤٢ .

وقد نفذ وصية أبيه فأقام الهيكل على جبل الثريا بأورشليم « القدس » ١٠١٢ قبل الميلاد أى فى سنة ٤٨٠ لخروج بنى إسرائيل من مصر .

وتاريخ الهيكل ووصفه مدون فى الملوك الأول الإصحاح السادس ، ومنه

يتبين أن طوله ستون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً وارتفاعه ثلاثون ذراعا ، وقدام الهيكل رواق طوله عشرون ذراعا وعرضه عشرة أذرع وفى وسط البيت من داخل هيء محراب قدس الأقداس ليوضع فيه تابوت عهد الرب والوصايا العشر ، وكان بناؤه تحفة رائعة فريدة .

وقال الله لسليمان كما فى الملوك الأول ٦ : ١٢ ، ١٣ « هذا البيت الذى أنت بانيه إن سلكت فى فرائضى وعملت أحكامى وحفظت كل وصاياى للسلوك بها فانى أقيم معك كلامى الذى تكلمت به إلى داود أبيك . . ولا أترك شعبى إسرائيل » .

لقد بلغت إسرائيل أوج مجدها وأوسع حدودها فى عهد داود وابنه سليمان الحكيم .

وبعد وفاتهما انصرف الشعب فى طريق المعصية وخالف وصايا الله . وجاءت أنبياء الله تنبههم وتزجرهم فلم ينتهوا فأنزل الله بهم ماسبق أن أوعدهم به ونصه كما فى الملوك الأول ٩ : ٦ ، ٧ « إن كنتم تنقلبون أنتم وأبناؤكم من ورائى ولا تحفظون وصاياى ، فرائضى التى جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها فإنى أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التى أعطيتهم إياها والبيت الذى قدسته لاسمى أنفيه من أمامى ويكون إسرائيل مثلا وهزأة فى جميع الشعوب » .

وكما فى لاويين ٢٦ : ٢٧ -٣٣ « وإن كنتم بذلك لاتسمعون لى بل سلكتم معى بالخلاف فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطاً . . وأصير مدنكم خربة . . وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة » .

انحلال مملكة سليمان بعد وفاته وتحطيم الهيكل

نتيجة لهذا وقع الخلاف بينهم وانشطرت مملكة سليمان صاحب الهيكل إلى مملكتين مع العلم بأن حدودهما تكاد تساوى الضفة الغربية للأردن .

(١) مملكة يهوذا جنوبا وعاصمتها أورشليم وتضم قبيلتى يهوذا وبنيامين فى فترة امتدت من ٩٧٥ قبل الميلاد إلى ٥٨٦ ق م تولى فيها عشرون ملكا .

أولهم رحبعام بن سليمان وفى عهده بعد خمس سنوات غزا شيشق ملك مصر فلسطين وأخذ المدن الحصينة التى ليهوذا وأتى أورشليم وأخذ مافيها من خزائن وأتراس ذهبية عملها سليمان ثم رجع عنها فعمل رحبعام بدلها أتراساً من نحاس كما فى سفر أخبار الأيام الثانى ١٢ : ٢ - ١٢ - وفى عهده وقعت حروب بينه وبين ملك الشطر الآخر .

ومن ملوك دولة يهوذا (حزقيا) وفى السنة الرابعة عشر من توليه صعد (سنحاريب) ملك أشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها ، وأرسل إليه (حزقيا) يسترضيه ويعلن استعداده لدفع جزية فرضى عنه وقبل ذلك منه كما فى ملوك ثان ١٨ : ١٣ - ١٦ .

ومن ملوك هذه الدولة (يوشيا بن آمون) وفى عهده أغار عليه فرعون مصر (نخو) وقتله فتولى بعده ابنه (يهوآحاز) فأسره فرعون وولى مكانه ابنه (ألياقيم) وغير اسمه إلى (يهوياقيم) كما فى سفر الملوك الثانى ٢٣ : ٢٩-٣٦ .

ولما توفى تولى مكانه ابنه (يهوياكين) وكان فرعون مصر قد ضعف سلطانه فى الوقت الذى اتسع فيه نفوذ بختنصر (نبوخذ ناصر) ملك بابل ، فأغار هذا على مملكة يهوذا وسبى ملكها وأصحاب البأس والحرف فيها ونقلهم إلى بابل وولى مكان (يهوياكين) (متنيا) وغير اسمه إلى (صدقيا) كما فى سفر الملوك الثانى ٢٤ : ٦ - ١٨ .

بعد ذلك تمرد (صدقيا) على بختنصر ملك بابل الكلدانى فحضرت جيوشه إليه . وقتلت بنيه بين يديه ، ثم قلعت عينيه ، وأخذته مكبلا بالسلاسل إلى بابل ودمرت المدينة وأحرقت الهيكل وبهذا انتهت دولة يهوذا كما فى الملوك الثانى ٢٤ : ٢٠ ، ٢٥ : ٥ - ١٢ .

(٢) مملكة إسرائيل فى الشمال وعاصمتها (شكيم) ويقال لها (السامرة) وهى التى تسمى الآن (نابلس) وانتقلت العاصمة فى بعض العهود إلى (ترصة) وإلى (شامر) التى تقوم مكانها الآن قرية (سبطية) ـ وهذه المملكة تعاقب عليها تسعة عشر ملكا فى فترة امتدت من ٩٧٥ قبل الميلاد إلى ٧٢١ ق م .

وقد تنازع الملك الأول (يربعام بن نباط) مع (رحبعام بن سليمان) ملك يهوذا نخشى على نفوذه فصنع يربعام عجلين من ذهب وقال (هو ذا آلهتك ياإسرائيل) . فعل هذا ليصرف شعبه عن أورشليم وملكها . كما فى سفر الملوك الأول ١٢ : ٢٦ - ٢٩ .

ولما تولى (منحيم بن جادى) مملكة إسرائيل غزا (فول) ملك أشور أرضه فأعطى (منحيم) لـ(فول) ألف وزنة من الفضة لتكون يداه معه ليثبت المملكة فى يده .

وبعده تولى ابنه (فقحيا بن منحيم) وقد قتل على يد (فقح بن رمليا) وتولى هذا مكانه كما فى الملوك الثانى ١٥ : ٢٥ .

ولما تولى (فقح بن رمليا) مملكة إسرائيل غزاه (تغلث فلاسر) ملك أشور بتحريض من آحاز بن يوثام ملك يهوذا وقد فتن (هوشع بن أيلة) على (فقح) وضربه فقتله وملك بدلا عنه كما فى الملوك الثانى ١٥:٢٩، ٣٠، ١٦:٧-١٠

ودفع (هوشع) الجزية لـ(تغلث فلاسر) ولكنه اكتشف خيانته فقبض عليه ملك أشور وأوثقه فى السجن وسبى إسرائيل إلى (أشور) وأتى بقوم من بابل فأسكنهم السامرة كما فى الملوك الثانى ١٧ : ٣ - ٦ ، ٢٤ .

ولما تولى سنحاريب (سرجون الثانى) والد بختنصر على أشور صعد على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها ١٨ : ١٣ وفى عهد ابنه (آسرحدون) تمت السيطرة للأشوريين على مملكة إسرائيل ١٩ : ٣٧ ولم تقم لهم بعد ذلك دولة وكانوا فى أسعد الظروف تبعا لدولة أخرى تارة يحظون برضاها ، وكثيرا ماتعرضوا لأذاها .

بق أن نقول إنه حوالى سنة ٥٣٨ قبل الميلاد احتل (كورش) ملك الفرس (بابل) فاستعان بيهود السبى وسمح لهم بالعودة إلى أورشليم وببناء هيكلهم عزرا ٥ : ١٣ - ١٦ ، وفى عهد (داريوس) تم بناء الهيكل من جديد كما فى عزرا ٦ : ١٥ .

بعد ذلك غزا الاسكندر المقدونى اليونانى بلاد فارس وسقطت مملكتها فى يده فاستسلم اليهود أمامه وكان ذلك سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ويروى أنه أحسن معاملتهم وفى عهد انطيوخس تعرض الهيكل للنهب .

وفى سنة ٦٣ قبل الميلاد غزا الرومان فلسطين واكتسحوها واحتلها (بومبى) أو (بوبيوس) فألغى مجمعهم وهدم السور .

ولما تولى (هيرود) الملك بنى مكان الهيكل هيكلا آخر فخما يقال إنه كان من عجائب العالم فى عهد (أوغسطس) وقد علق على مدخله النسر الذهبى شعار روما التى كانت تعادى اليهود .

وفى سنة ٧٠ بعد الميلاد وقف (تيطس) الرومانى أمام أسوار أورشليم على رأس جيشه وأخذ سكانها من اليهود يعانون أهوال الحصار وسرت فيهم المجاعات فكانوا يخرجون على أيديهم وأرجلهم كالأشباح الذابلة تسبقهم الشائعات بأنهم قد ابتلعوا الذهب فى بطونهم فكان جند الرومان يتصيدونهم فى الظلام ثم يشقون بطونهم بحثا عن الذهب وساقوا الآلاف منهم مكبلين لبناء المعابد الرومانية ، وأصبحوا عبيداً للرومان يسخرونهم فى أشق الأعمال .

وفى عهد (هدريانوس ١٣٥ م) دمرت القدس تدميرا كاملا وحرثت أرضها وطرد أهلها وحطم هيكلها وتحققت هذه النبوءة التى نقلناها من الكتاب المقدس الملوك الأول ٩ : ٦ ، ٨ كما تحققت نبوءة المسيح ونصها « يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين . . هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا » إنجيل متى ٢٣ : ٣٧ ، ٣٨ إنجيل لوقا ١٣ : ٣٤ ، ٣٥ .

وعلى أنقاض مدينة (القدس) ابتنى الرومان مدينة جديدة سموها (إيلياء) نسبة إلى الامبراطور (إيليوس هدريانوس) .

وعندما تولى قسطنطين سنة ٢١٢ م وأصبح مؤسس الدولة البيزنطية فى القسطنطينية سنة ٢٣٠ م أصبحت إيلياء مدينه بيزنطية وبنت أمه (هيلانة) كنيسة القيامة سنة ٤٢٦ .

ويروى أن جستنيان الامبراطور البيزنطى أمر بأن تشاد الكنيسة التى تسمى كنيسة العذراء سنة ٥٣٠ .

ظلت فلسطين خاضعة للرومانيين البيزنطيين ولم يعد بالقدس أثر لهيكل سليمان بل كان خرابا إلى أن فتحها العرب ودخل عمر بن الخطاب مدينة القدس فاتحا .

وبينما هو مع البطريرك (صفرونيوس) فى كنيسة القيامة حان وقت الصلاة فلم يشأ أن يصلى داخلها حتى لا يتمسك بها المسلمون ويحولوها إلى مسجد .

وقد اشترط المسيحيون على المسلمين ألا يسمحوا لليهود بمساكنتهم معهم فى القدس .

ومن ذلك الوقت انضم كثير من سكان فلسطين تحت لواء الإسلام لما رأوا من سماحته وحكمته ، وبقيت فلسطين عربية ، ولم يستطع الصليبيون أن يحولوها عن عروبتها بعد مائتى سنة من القتال المتواصل .

القدس والمسجد الأقصى

فى مدينة القدس (١) بنى مسجد الصخرة وهو المعروف بمسجد (عمر) وقد بناه الخليفة عبد الملك بن مروان وعندما احتل الصليبيون القدس سنة ١٠٩٩ حولوه إلى كنيسة فلما أعاد صلاح الدين فتحها سنة ١١٨٧ أعاده كما كان مسجدا للمسلمين .

وفيها أيضا المسجد الأقصى ، وقد أقيم إلى الجنوب من مسجد الصخرة فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وكلا المسجدين بنى فوق معبد (هيكل سليمان) بعد أن خرب من قديم ، ولم يبق منه سوى الحائط الغربى المشهور باسم حائط المبكى عند طرف من أطراف الحرم الشريف الذى يضم المسجدين .

وحائط المبكى وهو مكان البراق الشريف لايزيد طوله على ٨٤ قدما ، وقد اكتسح اليهود الأرض التى أمامه ورصفوها ونزعوا كل النباتات الموجودة فى المنطقة لأنهم يحرمون وجود نباتات بالقرب من حائط المبكى ، وقد قسموا هذا الحائط إلى ثلاثة أقسام قسم للبكاء وقسم للحفلات الدينية وقسم لتأملات رجال الدين .

---

(١) مدينة القدس على تل صخرى يرتفع نحو ٧٥٠ قدما وعليها صخرة طولها ١٨ متر وعرضها ١٣ مترا وارتفاعها ١½ مترا وتحت الصخرة مغارة مربعة ضلعها ٤½ مترا والبناء عبارة عن قبة عظيمة من الخشب مغلفة من الخارج بطبقة من الرصاص ومن الداخل بطبقة من جص قطرها نحو ٢٠½ متر لها رقبة مرتفعة بها ١٦ نافذة ويحمل القبة أربعة أكتاف وستة عشر عمودا على شكل دائرى وهذه الدائرة من الأعمدة والاكتاف تقع فى وسط بناء مثمن طول ضلعه ٢٠و٦٠ مترا مكون من ثمانية حوائط ارتفاعها حوالى ٩½ متر والقبة مزدانة بزخارف ممتازة فى تاريخ العمارة الاسلامية وهـــذا أول مسجد وقع على شكل مثمن .

بطلان تمسك اليهود بوعد الله

وبعد : فإن اليهود يزعمون أنهم وعدوا بهذه الأرض ويتمسكون بما ورد فى سفر التكوين إصحاح ١٧ : ٢١ « فقال الله بل سارة امرأتك تلدلك ابنا وتدعو اسمه إسحق وأقيم عهدى معه عهدا أبديا لنسله من بعده وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه هاأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدى أقيمه مع إسحق الذى تلده لك سارة » .

ويحدد بعضهم هذه الأرض بما ورد يشوع ١ : ١ - ٧ « أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدى قد مات فالآن قم أعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنامعطيها لهم أى لبنى إسرائيل، كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » .

ونرى أن هذا الوعد موجه أصلا إلى إبراهيم والصالحين من ذريته سواء فى ذلك سلالة إسماعيل وإسحق فهو كما قال تعالى فى القرآن (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) وكما قال (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين) ومثله ما جاء فى رسالة بولس إلى أهل غلاطيه ٣ : ٧ - ٩ صفحة ٢٥٤ من الكتاب المقدس العهد الجديد « إعلموا إذن أن الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم والكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان يبرر الأمم سبق فبشر إبراهيم أن فيك تبارك جميع الأمم إذن الذين هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن » .

هذا وعد الله ، ووعد الله حق فان كان قد تحقق على يد موسى أو داود أو سليمان أو عيسى أو محمدا أو الصالحين من أتباعهم فقد صدقت النبوءة .

وإن كان الخطاب متوجها إلى الإسرائيليين ـ كما يقول الصهاينة ـ أجبنا بأن من الإسرائيليين من أسلم وصلح حاله واستقام أمره فلم لايكون هذا الوعد متوجها إلى المسلمين منهم .

وكيف يتم للصهاينة مثل هذا الوعد ـ وشرطه الإيمان والاستقامة ـ كما نقلنا قبل من كتبهم ، وهم أشد الناس فسادا وتضليلا ، يحرفون آيات الله ويخالفون وصايا الله ، ويقتلون أنبياء الله ، ويشعلون الحروب ، وينشرون الفساد بين العباد قال تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه) وقال (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم) وقال (ويسعون فى الأرض فسادا والله لايحب المفسدين) .

النتيجة

إن العرض التاريخي الذى قدمناه وأثبتناه من كتابهم المقدس يؤكد لنا أن الإسرائيليين فى نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وبعده ـ لم يستقر لهم ملك فى هذه الأرض ولم ينالوا من بركة هذا الوعد أكثر من ثمانين سنة ، تلك المدة التى عاشها داود وسليمان عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام .

وبعد هذه الفترة وقع بينهم الانقسام وتعرض اليهود لخطر الغزو من دول مختلفة ، وبعد ميلاد المسيح بما لايزيد عن قرن إلا قليلا طرد الإسرائيليون منها ، وتعسر عليهم العيش فيها ، وبقوا مشتتين فى أنحاء

الأرض إلى أن حل القرن العشرون فعادوا إليها ، وأقاموا دولة عليها . هذا بالنسبة لليهود .

أما بالنسبة للمسلمين فقد استقر لهم حكم هذه الأرض مدة ألف وثلاثمائة عام باستثناء الفترة الصليبية التي تخللتها .

وفي اعتقادي أن نهاية الإسرائيليين ستكون - إن شاء الله - على أيدي المسلمين طال الزمن أم قصر لكن هذا مشروط بأن نتصالح مع الله ، ونتمسك بكتابه ، ونعمل بوصايا نبيه ، ونكون صورة حسنة ودعاية طيبة للإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام .

وإذا كان اليهود قد أحرزوا نصرا على العرب في هذا العصر سنة ١٩٦٧ فذلك لتمتلىء نفوس المسلمين بالكراهية لهم فيسرعوا إلى اتخاذ كل وسائل النصر ، وذلك أيضا لتمتلىء نفوس اليهود بالطمأنينة فيسرعوا في شوق ولهفة بالرحيل إلى فلسطين ، يتهافتون عليها كما يتهافت الفراش على النار فيحترق .

وهذا - في رأيي - يومىء إليه حديث البخاري ومسلم عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر : يا مسلم . هذا يهودي ورائي فاقتله » اهـ واللفظ لمسلم جـ ٤ ص ٢٢٣٩ .

إن المسلمين لا يمكن أن يقاتلوا اليهود وهم متفرقون في أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا ومعظم دول العالم، إنما يحاربهم المسلمون بعد أن يتجمعوا، وينتصر المسلمون عليهم بعد أن يأخذوا بكل ما لديهم من أسلحة النصر الروحية والمادية ، فاذا تجمع اليهود واستعد المسلمون أمكن للمسلمين - بمشيئة الله وقوته - أن ينتصروا عليهم ، ويتخلصوا منهم ، ويخلصوا

العالم المنكوب بهم من شرورهم . وسيكون العالم كله يومئذ ـ ما فيه ومن فيه ـ أشد تلهفا وأكثر حرصـــا على الخلاص منهم دفعا لأذاهم ، وحسما لشذاهم .

(وبعد) فإن تجمع اليهود اليوم فى الأرض المباركة بفلسطين واستعداد المسلمين لقتالهم ، أعظم شاهد على صدق هذا الحديث ، وعلى أن المصطفى رسول من عند الله يوحى إليه .

ومهما أبدى اليهود من مظاهر القوة فإن النصر النهائى الحاسم سيكون بعون الله لنا نحن المسلمين (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

الهجرة فى كتب الحديث

(ى) هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ومافيها من عجائب :

١ ـ أخرج البخارى جـ ٥ صـ ٧٥ عن عائشة من حديث لها « قال النبى صلى الله عليه وسلم للمسلمين إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان »(١) .

فهاجر من هاجر قبل (٢) المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة .

وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : على

---

(١) الحرة : حجارة سوداء .
(٢) قبل : جهة .

رسلك(١) فإنى أرجو أن يؤذن لى ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت؟ قال : نعم .

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر ـ وهو الخبط ـ أربعة أشهر .

قال ابن شهاب قال عروة : قالت عائشة : فبينما نحن يوماً جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر(٢) الظهيرة قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً(٣) فى ساعة لم يكن يأتينا فيها . فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ، والله ماجاء به فى هذه الساعة إلا أمر .

قالت فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر إنما هم أهلك،قال فإنى قد أذن لى فى الخروج فقال أبو بكر : الصحابة معاً ، بأبى أنت يارسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم،قال أبو بكر : فخذ بأبى أنت يارسول الله إحدى راحلتى هاتين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بالثمن .

قالت عائشة : فجهزناهما أحب الجهاز(٤) ، وصنعنا لهما سفرة (٥) فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها(٦) فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين .

---

(١) على رسلك : على مهلك .
(٢) أول الزوال عند شدة الحر .
(٣) مغطيا رأسه .
(٤) مايحتاج إليه المسافر .
(٥) زاد .
(٦) النطاق : ما يشد به الوسط .

قالت : ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار فى جبل ثور فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبى بكر وهو غلام شاب ثقف[١] ، لقن ، فيدلج[٢] من عندهما بسحر ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به إلاوعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة ـ مولى أبى بكر ـ منحة[٣] من غنمه فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رسل[٤] وهو لبن منحتهما ورضيفهما[٥] حتى ينعق[٦] بها عامر بن فهيرة بغلس[٧] يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليال الثلاث .

واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الديل — وهو من بنى عبد بن عدى — هاديا خريتا — والخريت : الماهر بالهداية قد غمس[٨] حلفا فى آل العاص ابن وائل السهمى وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل .

وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة

---

(١) ثقف : حاذق ـ لقن : سريع الفهم .
(٢) يدلج : يخرج ليلا .
(٣) شاة تحلب إناء بالغداة وإناء بالعشى تعاد لصاحبها .
(٤) الرسل : اللبن الطرى .
(٥) الرضيف: اللبن المرضوف أى الذى طرحت فيه حجارة محماة لتذهب وخامته .
(٦) ينعق : يصيح زاجراً الغنم .
(٧) ظلام آخر الليل .
(٨) أى حليف لهم ومن عادتهم إذا تحالفوا أن يغمسوا أيديهم فى دم أو شىء فيه تلوين تأكيداً للحلف .

فكانوا يغدون(١) كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فانقلبوا يوما بعد ماأطالوا انتظارهم .

فلما آووا إلى بيوتهم أوفى(٢) رجل من يهود على أطم(٣) من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين(٤) ، يزول بهم السراب فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته : يامعاشر العرب ، هذا جدكم(٥) الذى تنتظرون .

فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول .

فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك .

فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم ركب راحلته فسار يمشى مع الناس حتى بركت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين وكان

---

(١) يخرجون .
(٢) طلع .
(٣) حصن .
(٤) عليهم ثياب بيض أو متعجلين .
(٥) أى حظكم وصاحب دولتكم .

مربدا(١) للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته هذا إن شاء الله المنزل .

ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدا فقالا : لا . بل نهبه لك يارسول الله ، ثم بناه مسجدا وطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنيانه ويقول وهو ينقل اللبن :

هذا الحمال لاحمال(٢) خيبر   هـــذا أبر ربنا وأطهر

ويقول :

اللهم إن الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

٢ — أخرج الإمام أحمد فى مسنده جـ ٥ ص ٨٧ حديث ٣٢٥١ عن ابن عباس فى قوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك)(٣) قال : تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق(٤) - يريدون النبى صلى الله عليه وسلم - وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم: بل أخرجوه .

فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك فبات على على فراش النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة وخرج النبى صلى الله عليه وسلم حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا عليا رد الله مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدرى .

---

(١) المربد : مكان يجفف فيه التمر .
(٢) الحمال الخ : المراد ما يحمل من اللبن أطهر وأعظم عند الله مما يحمل من تمر خيبر الذى يغتبط به حاملوه .
(٣) ليثبتوك : ليحبسوك .
(٤) الوثاق : القيد .

فاقتصوا أثره(١) فلما بلغوا الجبل خلط عليهم فصعدوا فى الجبل فروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال، وأخرجه أيضا عبد الرزاق وأبو نعيم فى الدلائل كما فى الدر المنثور ج ٣ ص ١٧٩ وانظر أيضا تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٠٣ ومجمع الزوائد ٧ : ٢٧ ونسبه أيضاً للطبرانى وقال : «وفيه عثمان بن عمرو الجزرى وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح».

٣ — وعن أبى بكر رضى الله عنه قال : نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رءوسنا، فقلنا: يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا، فقال ، يا أبابكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ، أخرجه الشيخان والترمذى كما فى تيسير الوصول ج ٤ ص ٢٥٣ .

٤ — قال البراء رضى الله عنه «لما أقبل النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة تبعه سراقة بن مالك بن جعشم فدعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم فساخت(٢) به فرسه، قال : ادع الله لى ولا أضرك فدعا له ، أخرجه البخارى ج ٥ ص ٧٨ ومسلم ج ٣ ص ١٥٩٢ .

فى قصة الهجرة التى قدمناها آيات وعجائب تؤكد رعاية الله لنبيه وحفظه له .

فقد نجاه سبحانه من يد المتربصين به والحريصين على قتله فباءوا بالخيبة والخسران المبين ، وجعل سبحانه بيت العنكبوت وهو أوهن البيوت جنة تقيه الأخطار وترد عنه الأشرار ، واستجاب دعاء نبيه على سراقة أولا ثم استجاب دعاءه له آخرا .

---

(١) اقتصوا أثره : تتبعوا آثار أقدامه فى السير .

(٢) ساخت : غاصت .

وفى هـذه القصة أيضاً تتذكر ماجرى من حوار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وورقة بن نوفل أيام الوحى الأولى :

قال ورقة : ليتنى — أكون — حيا إذ يخرجك قومك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أومخرجى هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلاعودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا تلك سنة الله مع رسله ، ومع عباده أن يمتحنوا فإذا صبروا ظفروا .

الهجرة .. مقدماتها ونتائجها

١ — بدأت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية تتمشى مع سنن الله الكونية ، تتدرج من ضعف إلى قوة ومن خفاء إلى علانية شأنها شأن البذرة تختفى فى بطون الأرض ثم تنمو شيئا فشيئا حتى تصير شجرة باسقة الساق ، ذات أفنان وأوراق ، يستظل الناس بظلها ، وينعمون بنسيمها ، ويتمتعون بلذيذ ثمرها .

كذلك كانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أخذ بعد البعثة يدعو إلى الله سرا ثلاث سنوات ، يخص بالدعوة أصفياءه وأحبابه ، ويفضى بها إلى خلانه وأمناء سره ؛ ويوقف عليها من يرجوه ويثق فيه .

ظل يرشد إلى الله فى خفاء حتى جاء جبريل وتلا عليه (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) .

عندئذ بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بدعوته ، ويعلن عن دينه خضوعا لأمر ربه ، ونزولا على تكليف مولاه ، فصعد على الصفا وجعل ينادى أهله وعشيرته حتى أجمعوا عليه ، والتفوا حوله ، ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يختبرهم قبل أن يفاجئهم بأمر الرسالة فقال : «لو أخبرتكم أن خيلا فى الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ فأجابوا جميعا : نعم ،

ما جربنا عليك كذبا ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة .

فنكص القوم على أعقابهم وثاروا عليه — وأول من ثار عليه عمه أبو لهب فقد ناصبه العداء من اللحظة الأولى وقال له : ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك ، .

وقد كفى الله رسوله مئونة الرد فأنزل عليه قوله (تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب) .

لبث صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله وهو رجل فقير لا نفوذ له ولا سلطان ولا مال ولا قوة ، فآمن به من كان ينفرد بنفسه ويرجع إلى عقله ، ويثوب إلى رشده ، آمن به وإنما آمن استجابة لنداء الفكر وتلبية لدعاء العقل .

وكم لهذا كله من أثر فى التضحية والفداء وتحمل المشاق والاضطلاع بالأعباء .

آمنوا ولا يجدون من الوسائل الفاتنة مايحملهم على الإيمان وخرجوا على الكفر وهم يجدون مايضطرهم إلى المكث والمقام . آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا بكتابه ودينه ، وقبلوا لأنفسهم الأذى والهوان ، ولم يقبلوا لدينهم أن يهان .

عذبوا وصبروا واضطهدوا وتحملوا ، ولا تسل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يناله فقد كان ينظر إليه كمشعل لهذه الثورة الإسلامية ومصدر لهذه الدعوة الجديدة التى رأى فيها سادة مكة خطرا على سيادتهم ، وإغراء للفقراء والضعفاء والعبيد بالخروج عليهم لهذا حاربوه باللسان والسنان ، وأذاعوا عنه الإفك والبهتان ، ليصدوا الناس عن اتباعه ، وينفروهم من دينه ، واستمروا فى عدائهم وإيذائهم دون جدوى ، سبوه وضربوه ، قذفوه بالحجارة وخنقوه ، قاطعوه مع شيعته ، فلم يبيعوا لهم شيئا من طعام أو شراب إلى غير ذلك من فنون البلاء وصنوف العذاب .

وبقى الرسول صامدا ثابتا كالطود الأشم ، لم تفتر له همة ، ولم تضعف له إرادة ، ولم تلن له عزيمة .

سبحانك ربى تفعل ماتشاء وتحكم ماتريد . . هذا أعز خلقك ، وصفوة أحبابك بعثته بالحق من عندك يهدى الناس إلى الخير ويدعوهم إلى البر ، فما جعلته بعيدا عن طغيان المتمردين ، وما أقمته فى عزلة عن شرار خلقك وذؤبان عبادك ، ولكن جعلته يتلقى أشد أنواع الأذى ، وأبشع صنوف الاضطهاد ، حتى يظهر فضله ، ويتجلى كريم خلقه ، وليكون إماما فى الدعوة إلى الخير ، والصبر على الشر ، وليعرف الناس أن الثواب على قدر المشقة ، وأن النصر محفوف بالأشواك لايبلغه أحد حتى يعرف كيف يزيلها . . .

أخذ الرسول يفكر فى مستقبل هذه الدعوة فبحث عن أرض صالحة يلقى فيها بذورها فهداه فكره الثـــاقب إلى أن يعرض نفسه على القبائل فى مواسم الحج فقد يجد فيهم من يتقبل النصح ويستجيب لنداء الله .

وسارع صلى الله عليه وسلم إلى وفد من يثرب فدعاهم إلى الحق الذى جاء به ووعدهم نصرا وفتحا مبينا فرأى فيه أبناء يثرب هذا الذى كان يصفه اليهود لهم ، ويتوعدونهم به فبسقوهم إليه والتفوا حوله وعزروه ونصروه .

وعندما عادوا إلى وطنهم أشـــادوا بذكره ونوهوا بسيرته ، وبشروا بدينه ، فشرح الله صدور نفر منهم ، وأنار قلوبهم وبصائرهم ، فأتوه فى موسم الحج التالى ليضعوا أيديهم فى يده يشترط لنفسه ولربه مايشاء .

ثم عادوا إلى يثرب فى ابتهاج وغبطة بيد أنهم ماكادوا يستقرون فيها حتى عاودهم الحنين إلى كتاب الله فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون منه مقرئا يشنف أسماعهم بما يتلوه من آيات الذكر الحكيم .

وبادر الرسول صلى الله عليه وسلم فبعث إليهم مصعب بن عمير رضى الله عنه فسلك بهم طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الله ونصحهم

بلين ورفق وأناة ، فما لبث أن راجت دعوته ، ولقيت نجاحا ، وصادفت قبولا ، وحازت أنصارا .

وبعد عام عاد مصعب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى معيته نيف وسبعون وكلهم يطلبون بيعته ، ويسلمون قيادهم إليه .

وفى أواسط أيام التشريق التقى بهم صلى الله عليه وسلم عند العقبة مستخفيا عن أعين الأعداء متواريا عن أنظار الرقباء ، وبعد أن اطمأن إليهم واستوثق منهم عاهدهم على السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى أن ينصروه ويمنعوه إذا قدم عليهم مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأولادهم وفى سبيل ذلك ضمن لهم الجنة ونعم أجر العاملين .

وحضر هذه البيعة العباس بن عبد المطلب ليلمس مدى استعداد القوم لنصرة ابن أخيه ، وقد راعه ماشعر به من محبة وإخلاص وإيثار وتضحية .

وبعد أن تمت هذه البيعة ، انصرف صلى الله عليه وسلم ، ولكن قريشا ساورها القلق ، واستبد بها الشك والخوف ، فأخذت تستشف الحوادث ، وتستطلع الجو ، وأخيرا علمت أن فى الأمر سرا فأسرعت تقتفى أثر الأنصار بعد أن انصرفوا فلم تدرك منهم سوى اثنين أنقذهما الله فيما بعد من أيدى المشركين .

عند ذلك أيقن كفار مكة أن محمدا أصبح خطرا عليهم ، وأنه من الممكن أن يلحق بأتباعه ثم يعود بهم لينتصر منهم ، إذن فلا بد أن يعالجوا الأمر بما يستحقه من حزم وعزم .

وهنا فتحوا برلمان الندوة وعقدوا جلسة سرية ليقرروا مصير محمد فقال أحدهم : نحبسه ونوثقه ، وقال آخر : ننفيه ونطرده ، وانتهى رأيهم فى ختام الجلسة إلى أن يجمعوا له من كل قبيلة فتى جلدا قويا يضربونه جميعا

ضربة رجل واحد فيقضون عليه ويتفرق دمه فى القبائل ، ويعجز أهله عن إدراك ثأره ، وخرجوا بعد ذلك وهم يضمرون ما يضمرون ، والله يعلم مايسرون وما يعلنون .

عقب ذلك هبط جبريل على الرسول ، وأذن له فى الهجرة وأنزل عليه الوحى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) .

أخذ صلى الله عليه وسلم يفكر ماذا يكون نظام الهجرة فبحث الأمر مع أبى بكر وتم الاتفاق على الخطة ، وفى الليلة التى تقرر فيها أن يخرج كان خصومه الألداء على الباب ينتظرون خروجه ليفتكوا به ، فأنام عليا مكانه وغطاه ببردته ليلبس على العيون ويغرر بالرصد ، ثم خرج وأعداؤه يغطون فى نوم عميق فتــلا عليهم مطلع سورة (يس) إلى قوله تعالى (فأغشيناهم فهم لايبصرون) وألقى على رءوسهم التراب ونثر فوقها الرغام ، إرغاما لأنوفهم وإذلالا لنفوسهم .

لحق الرسول بعد ذلك بأبى بكر ، وكان قد هيأ نفسه ووضع الخطة موضع التنفيذ :

١ — رسول الله وأبو بكر يهاجران فى خفاء .

٢ — أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام فى المساء .

٣ — عبد الله بن أبى بكر يتعرف لهما أخبار الأعداء .

٤ — عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يغلس بالغنم لتخفى آثار السير عن الرقباء .

٥ — عبد الله بن أريقط يأتى بعد ثلاث ليــال إلى غار ثور ومعه راحلتاهما ليدلهما على الطريق .

وخرج الرسول مع أبى بكر وودع مكة وهو يقول فى حنين بالغ :

« والله إنك لأحب أرض الله إلى ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت » ، ثم مضى فى طريقه ، وأبو بكر يمشى تارة أمامه مخافة الرصد ، وتارة خلفه مخافة الطلب حتى إذا انتهيا إلى الغار ألقيا عدة التسيار ، ونزل الرسول به مع صاحبه .

أصبح الرسول فى مأمن من عدوه ، وأفاق القوم من نومتهم ، واستيقظوا من غفوتهم ، وفوجئوا بعلى رضى الله عنه يخرج عليهم فعضوا أصابع الندم ورجعوا خائبين تعلوا وجوههم الكآبة .

ماذا عسى أن يفعلوا بعد أن آب الرصد وهو خائب ، ونجا المطلوب من يد الطالب ، ليس أمامهم إلا أن يبثوا العيون ، ويرسلوا القافة ، ويغروا بالأموال ، مشوا خلفه ، واقتفوا أثره ، وانتهوا إلى الغار الذى نزل به .

وشاء ربك أن يحتفل العنكبوت برسول الله صلى الله عليه وسلم فينصب له سرداقا ، وتأتى حمامتان لحراسة الرسول فتعسكران على فم الغار درءا للأخطار وأعمى الله عن رسوله وصاحبه أبصار الكفار ، وكانت لحظة رهيبة تلك التى أحس فيها أبو بكر بالعدو يتعقبهم فقال : يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا ، فرد عليه الرسول فى ثقة واطمئنان « ما ظنك باثنين الله ثالثهما لاتحزن إن الله معنا » .

لبثا فى الغار ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع أتاهما الدليل وأتت لكل راحلته ، وسافروا إلى المدينة عن طريق السواحل ، ووصل نبأ الهجرة إلى أهل يثرب ، فخرجوا ينتظرون مقدمه السعيد ، ويرقبون لقاءه الميمون .

وذات يوم طال بهم الانتظار فرجعوا بعد أن ردهم حر الظهيرة ، وإذا بهم يسمعون صوت يهودى ينادى بأعلى أطم من آطامهم « يا بنى قيلة [١] .. هذا جدكم الذى تطلبونه » فنهضوا فى حماس ونشوة وأسرعوا إليه يحيطون به وهم يرددون :

---

(١) قيلة : جدة الأنصار يجتمع عندها الأوس والخزرج .

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكان هذا اليوم يوم عيد . . عيد للرجال والنساء والأطفال . . كلهم يحس بالسعادة ، ويفيض بالبشر للقاء المصطفى ومقامه بينهم .

وأراد كل أنصارى أن يستأثر برسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الرسول أرخى الزمام لناقته ، وقال دعوها فإنها مأمورة ، فلما أناخت قرب دار أبى أيوب نزل عنده وأقام لديه ، وهكذا ضمن الرسول بهذا الأسلوب ، سلامة الصدور وطهارة القلوب .

لم يشأ الرسول أن يخلد إلى الراحة ، أو يعتكف للاستجمام فنفسه الكبيرة تجد لذتها فى العمل الدائب ففكر فى بناء مسجد للمسلمين يجتمعون فيه للصلاة ، والصلاة هى الصلة الكبرى بين العبد وربه وهى الأداة التى تربى الروح والجسم والعقل وتنهى عن الفحشاء والمنكر . وهى قبل ذلك وبعد ذلك عماد الدين فهى من غير شك جديرة بأن تكون موضع اهتمام رسول الله ومحل عنايته .

ولقد ظهرت أمارة ذلك حين أشار عليهم بأن يهيئوا مسجدا يتعاونون فى بنائه ، ويشتركون فى إنشائه ، وبدأ الرسول عليه السلام يشترك معهم ويشاطرهم العمل والنصب ، ولم يرض لنفسه أن يكون ناظرا عليهم يشرف على أعمالهم من بعيد ، ولكنه كان ينقل معهم اللبن وهو ينشد :

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وهم كذلك يعملون ويرددون :

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل

ظل عليه الصلاة والسلام يعمل معهم بعزم وجد حتى تم بناؤه ، وكمل إنشاؤه فأقيمت فيه الشعائر الدينية ، وألقيت فيه التعاليم الإلهية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم المدرس ، وأصحـــابه التلامذة ، والـكتاب الذى يتدارسونه هو القرآن ، والجامعة التى يجتمعون فيها هى المسجد ، وحسب هذه الجامعة فخرا أنها أمدت البلاد التى فتحها العرب وإلى أزمان بعيدة ، بكل ماتحتاجه من قوى عاملة رشيدة .

عقب الهجرة وجد الرسول نفسه أمام مشكلتين خطيرتين أما المشكلة الأولى فقد وجد نفسه بين يهود يخاف بأسهم ويخشى خطرهم فرأى من الحـكمة أن يعقد معهم معاهدة سياسية يأمن بها جانبهم ويتقى شرهم .

وقد دلت هذه المعاهدة على حذقه وبعد نظره حيث لم يجعل اختلاف الدين عائقا عن التضامن ومانعا من التفاهم ، بل أظهر سماحة الإسلام ، ومقدرته على مواجهة الظروف .

وفى هذه المعاهدة قرر حرية العقيدة « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » وحرمة الوطن « وأن بينهم النصر على من دهم يثرب » وتحريم الجريمة « وأن بينهم النصح والبر دون الإثم وأن النصر للمظلوم » وهـكذا عالج هذه المشكلة بلباقة وحـكمة ومهارة .

أما المشكلة الأخرى فقد وجد نفسه أمام مهاجرين لا مأوى لهم ولا قوت عندهم ولامال معهم فلا بد أن يوفر لهم المسكن ويهيء لهم القوت ، وينظم شئون التموين ، فعقد عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار عقد مؤاخاة بمقتضاه يتعاونون على الخير ، ويشتركون فى المـــال ، ويتوارثون فيما يمتلكون .

ومن غير شك أن الضرورة الاجتماعية هى التى أوجبت هذا الحل ودعت إلى هذا العلاج الذى انتهت به أزمة المساكن ومشكلة الفقر .

وعندما تحسنت حال المهاجرين ، وظهرت آثار النعمة عليهم أنهى الرسول قانون الإشراك فى الملكية وجعل كل إنسان أحق بما يمتلك ، وأهله من بعده أولى بميراثه (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) .

ولقد ظهرت آثار هذه المؤاخاة واضحة فقد ربطت بين قلوب المسلمين جميعا وأنستهم التفاخر بالأنساب والتباهى بالقبائل .

وحين تم هذه الوحدة الإسلامية وتتكون هذه الجنود الفتية لا يندهش أحد حينما تصبح لهم أمبراطورية واسعة الأنحاء ، شاسعة الأرجاء يعجز البليغ عن أن يصفها بأوجز وأبلغ مما وصفها به أحد الخلفاء إذ يقول وقد رأى سحـــابه « أيتها السحابة أمطرى حيث شئت فإن خراجك سيحمل إلينا » .

وهكذا حقق الله وعده : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) .

بدأت يا هجرة المختار من غار
ثم انتهيت إلى آلاف أقطار

جهاده صلى الله عليه وسلم

أعظم المجاهدين محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد جاهد ليعلى كلمة الحق ، وناضل ليحقق للإنسانية أمنها وكرامتها ، وحريتها وسعادتها .

وما الدين الذى جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إلا عنوان عن الحق الجامع المقدس الذى يتسامى فى ظلاله الإنسان ، ليرتبط بربه ، ولتقوى علاقته بالعالم الذى يعيش فيه ، وليأخذ مكانه الطبيعى الذى أعده الله له فلا يتغالى ولا يهبط إلى الحضيض .

وقد جرت سنة الله تعالى أنه لايبعث رسله إلا إذا استفحل الضلال واستشرى الشر ، وتفاقم الفساد . واحلولك ليل الناس ، فيرسل الله إليهم من ينير لهم السبيل ، ويهديهم إلى الجادة المستقيمة .

والطريق أمام رسل الله ودعاة الإصلاح ليس معبدا مفروشا بالورود بل هو ملىء بالأشواك ، محفوف بالمكاره ، ومن الواجب عليهم وعلى كل داعية أن يوطنوا أنفسهم على الصبر والجهاد ، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان مثلا أعلى ونموذجا فريدا ، وقدوة حسنة لكل مصلح يأتى من بعده . لقد جاهد أهـــل الضلال والفجور بالكلمة الطيبة ثم بالقوة المرهبة .

قدم إليهم قارورة الدواء ، فعافوها،وردوا عليه أسوأ رد ، وظل يتودد إليهم ، ويعرض الدواء عليهم ، وظلوا ينفرون منه ، ويصدون الناس عنه ، ويكيدون له ، وتدرع بالصبر ، وتجمل بالحلم ، وبقى فى مكة يجاهدهم بالقول الكريم ، والأسلوب الحكيم ، حتى دان له بعضهم ، وانقاد له قليل منهم ، ونال هؤلاء مانال رسول الله صلى الله عليه وسلم من الظلم والاضطهاد وصبروا واحتسبوا أجرهم عند الله ، ورغبوا أن ينالوا رضاه ، وفتح الله لهم باب

الخلاص ، ونافذة الأمل ، فهاجروا الى المدينة ، ولحق بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن شرب فى مكة كأس الأذى حتى الثمالة .

وفى المدينة لم يهدأ عليه الصلاة والسلام ولم يركن إلى الراحة بل ظل يحمل راية الجهاد ، وإن كان جهاده قد أخذ لونا جديدا فقد بدأ يجاهد الكفار بالقوة المرهبة بعد أن كان فى مكة يكتفى فى جهادهم بالكلمة الطيبة ، وقديما قيل « لايفل الحديد إلا الحديد » .

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا
فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

بدأ يقابل القوة بالقوة ، ويرد على العدوان بالعدوان ، والشر بالشر والبادىء أظلم ، لقد أسرف كفار مكة فى إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به حتى اضطروهم إلى الهجرة وترك ديارهم وأموالهم ، حرصا على دينهم ، فهل يطلب من المسلمين بعد هذا أن يتقبلوا مزيدا من الاضطهاد ؟

لقد نفد صبرهم ، وذهب حلمهم ، وأصبحوا يلحون على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسمح لهم بالجهاد ، ونزلت الآيات :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) .

أذن الله لهم فى القتال درءاً للظلم ومنعا للفتنة ، ودفاعا عن الدين ، ونصرة للمستضعفين وإقرارا لمبادىء الحق والعدل والخير والأمن .

قال تعالى (ومالكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) وقال (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) .

والقتال من أجل هذه الغايات الشريفة واجب على المسلمين قال تعالى :

(كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون) .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من أصل الإيمان الكف عمن قال لا إله إلا الله ولا نكفره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال لايبطله جور جائر ولا عدل عادل والإيمان بالأقدار » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجهاد واجب عليكم مع كل أمير براكان أو فاجرا » أخرجهما أبو داود .

على هذا الأساس قاد رسول الله صلى الله عليه وسلم جيوش المسلمين تحفه عناية الله، وتؤازره معونته قادها لاليكره أحدا على اعتقاد دينى ، ولاليجبره على قبول نظام اجتماعى، فالإسلام يقوم على الدعوة بالحكمة والإقناع بالحجة .

قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) وقال (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) .

وينهى المولى عن الإكراه ولا ينهى عن بر المخالفين المسالمين قال تعالى (لا إكراه فى الدين) وقال (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) .

لم يقد النبي صلى الله عليه وسلم جيوشه ليحمل الكفار على دينه بل قادها لدفع العدوان وقمع الطغيان، قادها تحت راية إسلامية سداها ولحمتها قول الله تعالى:

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) وقوله (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين) .

ولهذا خط لقادة الحروب من بعده منهجا إنسانيا تتخلله الرحمة وتسرى فيه سريان الروح فى الجسم والماء فى العود والكهرباء فى الحديد ، نهى عن قتل من لاشأن له فى القتال ، ولا رأى له فى الحروب .

أخرج مسلم بسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أوسرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : اغزوا فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » .

وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال : « اخرجوا باسم الله تقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله لاتغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبرانى فى الكبير والأوسط إلا أنه قال فيه « ولاتقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً » .

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : « ألا لايجهزن على جريح ولا يتبعن مدبر ولا يقتلن أسير ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » أخرجه عبد الرزاق فى الجامع وابن أبى شيبة والبيهقى وأبو عبيد فى الأموال .

هذه هى سنته فى الحروب ، حروب لاتشن إلا لضرورة ، ولخير الإنسانية ، وحين تنشب تسير فى اتجاه حكيم وفى دائرة مغلقة لاتتجاوز أهل العدوان والطغيان ، وتترفق بالضعفاء والولدان .

وعندما يجنح خصوم الإسلام إلى السلام يسارع إلى قبول دعوتهم ويكلهم إلى نيتهم إعلانا منه عن رغبته فى تجنب إراقة الدماء ، قال تعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) .

وعندما يتم صلح على معاهدة يتم توقيعها فى ظروف متكافئة ، يطلب الإسلام من أتباعه أن يفوا بها ويلتزموا بشروطها قال تعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون) .

وحين تفوح من العدو رائحة الغدر يطلب منابذتهم وبشرط أن يكونوا على سواء قال تعالى (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين) وقبل المنابذة لايرتضى الإسلام أن نخيس بالعهد ولو لنصرة المسلمين قال تعالى : (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) .

فى هذا الاتجاه السليم ، وفى ظلال هذه المبادىء كانت حروب النبى صلى الله عليه وسلم .

ولكن بقى أن تعرف كيف أعد الرسول صلى الله عليه وسلم جيشاً تحققت على يديه هذه الانتصارات الرائعة التى سجلها التاريخ وأذهلت عباقرة العالم .

إن الفضل فى إعداد النبى صلى الله عليه وسلم لجيشه الظافر يرجع إلى قوة العقائد والتعاليم الإسلامية وأثرها فى النفوس وتأمل معى هذه العقائد وهذه التعاليم التى دعا إليها الإسلام لتعرف مالها من أثر بليغ فى بناء الجيش الإسلامى:

١ — دعا الإسلام إلى الإيمان بإله واحد قوى قدير سميع بصير حكيم خبير .

ومن شأن هذه العقيدة أنها تجمع قلوب المؤمنين وتوحدها ، من شأنها أن تنفخ فيهم روح العزة والكرامة فلا يرضوا بأن يتأله عليهم مخلوق ، ولا يقبلوا أن يخنعوا لصنم حجرى كمناة أو نباتى كالعزى أو حيوانى كعجل أبيس أو إنسانى كفرعون .

من شأنها أنها تشحذ العزائم وتلهبها وتمد الجنود بقوة غلابة يستمدونها من القوى العزيز فيقبلون على المعارك إرضاء لله بروح مؤمنة لا يتسرب إليها يأس ، ولا يتسلل إليها خور مطمئنة إلى أن الله معها يمدها بنصره ، ويؤيدها بجنود من عنده (وما يعلم جنود ربك إلا هو) ، (ولله جنود السموات والأرض) (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

٢ — دعا الإسلام إلى الإيمان بأنه لا بقاء إلا لله ، وأن الموت مكتوب على كل من عداه (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحد

والمولى وحده قد حدد الأجل ، لكل حي منذ الأزل ، فلا ينقص العمر باقتحام الحروب ، ولا يزيد بالفرار والهروب ، قال تعالى :

(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) وقال (لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وقال (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) وقال (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) .

ووقائع الحياة تشهد بهذا وتؤكده ، فهذا خالد بن الوليد سيف الله المسلول يموت على فراشه ، وكان يتمنى أن يموت وهو يجاهد في سبيل الله

ويدافع عن دينه ، ورغبة فى الشهادة وحرصاً عليها شهد مائة حرب أوزهاءها وبارز الأبطال ، وركب الأهوال ، حتى لم يبق فى جسمه شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ومع هذا لم يقتل فى ميدان بل مات على فراشه كما شاء الله وما شاء الله كان .

وكثير من الناس بالغوا فى أخذ الحيطة لأنفسهم حذر الموت فلقوا مصرعهم فى حوادث مؤسفة ما كانت تخطر لهم على بال أو تدور فى حسبان .

هذه العقيدة إذا استقرت فى قلب إنسان نزعت منه الخوف ، والجبن ، فإذا ما سمع الهائعة أسرع إليها ، وأقبل عليها ، فى هدوء وسكينة ، وارتياح وطمأنينة ، ولا يقف أثرها عند هذا الحد بل إنها تمده بقوة تدفعه إلى الأمام وتحول بينه وبين الإنسحاب دون نظام ، تمده بقوة تجعله يكر ولا يفر ، يقدم ولا يحجم ، لايبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليـــه ، ينشد بلسان حاله :

وإذا لم يكن من الموت بد	فمن العجز أن تكون جبانا
أى يومى من الموت أفر	يوم لايقدر أم يوم قدر
يوم لايقـــدر لا أرهبه	ومن المقدور لاينجو الحذر
أقول لها وقد طارت شعاعا	من الأبطال ويحك لن تراعى
فانك إن سألت بقاء يوم	على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا	فما نيل الخلود بمستطاع

٣ — دعا إلى الإيمان بالبعث والحياة الأخروية والتصديق بما فى اليوم الآخر من جنة ونار ، وثواب وعقاب ، وحساب أساسه العدالة التى لاتعرف المحاباة ، قال تعالى :

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) وقال (وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء قليلا ماتتذكرون)

وقال (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) وقال (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

ومن شأن هذه العقيدة أنها تحمل كل إنسان على أن يحاسب نفسه، ويسارع إلى أداء ما أوجبه الله عليه ، والابتعاد عما نهى الله عنه .

ومما أوجبه الله أن نجاهد فى سبيل الحق ونقبل عليه ، ومما حرمه أن نتثاقل عن الجهاد بعد أن يدعو الداعى إليه .

ومن شأن هذه العقيدة أيضا أنها تزكى النفوس بدفعها إلى الخير وإن جل، وحجزها عن الشر وإن قل ، وإبعادها عن الظلم وإن كان مثقال ذرة .

وإذا تمكنت هذه العقيدة فى القلوب تآلفت الأرواح وتماسكت الأمة وارتبطت وارتبط جنودها بعضهم ببعض ، وارتبطوا جميعاً بالله ، واستحقوا عونه ورضاه ، وأمكن لهم أن يتغلبوا على أعدائهم ويظفروا بهم .

فان ضعفت وانحلت عراها ، ورثت قواها صار كل إنسان عبداً لهواه، وسار على مايهواه ، واستحل ظلم عباد الله ، وحينئذ تضعف روح الأمة ، وتتمزق وحدتها ، وتتبدد قوتها ، ويسهل على عدوها أن يكتسحها ويلتهمها، ويغنم كل ماعندها من سلاح وعتاد .

٤ — دعا الإسلام إلى الجهاد ونوه به وأشاد بفضله ، قال تعالى :

(يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) .

بشر المجاهدين بالنصر فى الدنيا والفوز فى الآخرة ، وضمن للشهداء حياة طيبة

قال تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) .

وأخرج مسلم ج ٣ ص ١٤٩٥ بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تضمن الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه إلا جهادا فى سبيلى وإيمانا بى وتصديقا برسلى فهو علىّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا مانال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده مامن كلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم لونه لون دم وريحه مسك والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ماقعدت خلف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ، ولكن لاأجد سعة فأحملهم ولايجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى،والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل » .

ولم يكتف الإسلام بهذا بل حذر أولئك الذين يتخلفون عن دعوة الجهاد من سوء المغبة ، ووخامة العاقبة قال تعالى :

(يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله إثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم) .

بشر المجاهدين وأنذر المتقاعسين ، وقد أثمرت هذه الدعوة ثمرتها فتسابق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد .

فى غزوة بدر استنهض الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى عير قريش ، فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد : إنه لابد لأحدنا أن يقيم فآثرنى بالخروج وأقم أنت مع نسائنا ، فأبى سعد وقال : لو كان غير الجنة لآثرتك به إنى لأرجو الشهادة فى وجهى هذا ، فاستهما فخرج سهم سعد

فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فاستشهد ، وفى غزوة أحد خرج خيثمة داعيا الله أن يستشهد ويلحق بابنه فى الجنة فقتل فيها شهيدا .

وفى غزوة أحد أيضا خرج أهل بيت بأجمعه إلى الجهاد فى سبيل الله ، خرجت نسيبة بنت كعب مع زوجها زيد بن عاصم وولديهما عبدالله وخبيب وقد أبلوا جميعا بلاء حسنا ، وقال صلى الله عليه وسلم : « بارك الله فيكم أهل بيت » وقال « اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة » ، وقال فى (نسيبة) : ماالتفت يوم أحد يمينا ولا شمالا إلا وأراها تقاتل دونى » ، وقد ضربها ابن قميئة وهى تدافع عن النبى فأصاب عاتقها بجرح أجوف غائر ، وجرحت فى هذا اليوم اثنى عشر جرحا من بين طعنة وضربة .

وفى هذه الغزوة استعرض الرسول صلى الله عليه وسلم ـ كما جرت عادته فى كل عام ـ غلمان الأنصار فمر به رافع بن خديج وسمرة بن جندب فردهما وهما ابنا خمس عشرة سنة .

فقيل له : يارسول الله أن رافعا رام فأجازه فقال سمرة : يارسول الله . لقد أجزت غلاما ورددتنى ولو صارعته لصرعته فقال له صلى الله عليه وسلم فصارعه ، قال سمرة : فصارعته فصرعته فأجازنى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥ — دعا الإسلام إلى أخذ العدة ، والتسلح بالسلاح الدينى والمادى .

وفى هذا يقول تعالى : (يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) ويقول (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ويقول (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) .

ويقول صلى الله عليه وسلم « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » أخرجه أبوداود والنسائى عن أنس ، ويقول « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا » أخرجه الشيخان عن زيد بن خالد ، ويقول « إن الله عزوجل يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب فى صنعته الخير والرامى به ومنبله » أخرجه أبو داود والترمذى عن عقبة بن عامر .

٦ — دعا إلى توطيد دعائم المحبة بين الحاكم والمحكوم ، وبين الجنود والقادة بالتزام قواعد العدالة ، وإرساء أسس الإخاء والتعاون والحرية والمساواة حتى يكون جميع من فى الدولة على قلب رجل واحد وبمستوى واحد فى الشعور بالتعب والراحة والفرح والحزن والجوع والشبع كما يقول صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تدعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » أخرجه مسلم عن النعمان بن بشير .

وقدوتنا فى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ففى غزوة بدر مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسواد بن غزية وهو متقدم فى الصف فطعنه النبى صلى الله عليه وسلم بقدح فى يده وقال : استو يا سواد فقال : يارسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى (١) .

فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال : استقد ، فاعتنقه سواد وقبله فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ماحملك على هذا ؟ قال : يارسول الله حضر ماترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٦٢٦ .

---

(١) أقدنى : مكنى من أن أقتص منك .

وفى غزوة الخندق يحدثنا البراء فيقول : لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه ، أخرجه البخارى ج ٥ ص ١٤٠ .

ويحدثنا جابر فيقول : أنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه كدية [١] عرضت فى الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لانذوق ذواقا [٢] فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم المعول [٣] فضرب فعاد كثيبا أهيل أو أهيم فقلت : يارسول الله ائذن لى إلى البيت . فقلت لامرأتى : رأيت بالنبى صلى الله عليه وسلم شيئا ماكان فى ذلك صبر فهل عندك شىء ؟ قالت : عندى شعير وعناق ، فذبحت [٤] العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة [٥] .

ثم جئت النبى صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافى[٦] قد كادت أن تنضج فقلت : طعيم لى فقم أنت يارسول الله ورجل أو رجلان قال : كم هو ؟ فذكرت له . قال كثير طيب قال : قل لها لاتنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى فقال : قوموا . فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال : ويحك . جاء النبى صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم . قالت : هل سألك ؟ قلت : نعم . فقال : أدخلوا ولا تضاغطوا ، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ، ويخمر البرمة

(١) الكدية : صخرة صلبة لاتعمل فيها الفاس .
(٢) أى طعاما يذاق .
(٣) المعول : الفأس .
(٤) العناق : أنثى المعز قبل بلوغ سنة .
(٥) البرمة : القدر .
(٦) الأثافى : الحجارة التى تنصب وتجعل القدر عليها .

والتنور إذا أخذ منه ، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع ، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقى بقية ، قال : كلى هذا وأهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة ، أخرجه البخارى ج ٥ ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

وعن على رضى الله عنه قال : كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه ، أخرجه أحمد .

بهذا ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم الأمثال للقادة والحكام ، وعلمهم بالفعل لا بالقول وحـــده أن يكونوا مع الجنود فى المعركة ، ويشاركوهم التعب والراحة ، والجوع والشبع ، علمهم أن يعسكروا مع الجيش ولا يغيبوا عنه ، ليواجهوا بالحكمة مايطرأ من مشكلات تتطلب الحل السريع ، علمهم أن يعدلوا ويدركوا أن المناصب وإن تفاوتت درجاتها لاتسمح لصاحب المنصب الكبير أن يتعالى ويستبد بمن دونه ، ويجور عليه فى حقه ، علمهم أن يكونوا على استعداد أن صدرت منهم هفوة — لتقبل القصاص بصدر رحب ، هذه المبادىء إذا سادت الأمة ونعمت بها جعلت كل فرد فيها يحرص على كيان الدولة ويتحمس فى الدفاع عنها فلا يضعف أمام عدوه ولا يتقهقر بل ينقض عليه ، ويواصل السير إليه حتى يكسر شوكته ، ويطفىء جمرته .

٧ — لايفوت الإسلام أن يقوى روح الأمل فى أتباعه ، ويجتث بذور اليأس من قلوبهم فيقول سبحانه (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) ويقول (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) .

(وبعد) فقد كان كثير من العرب يندفع إلى القتال بدافع العلو ورغبة فى النهب كما قال عمير بن شييم :

وكن إذا أغرن على جناب ... وأعوزهن نهب حيث كانا[١]
أغرن من الضباب على حلول ... وضبة إنه من حان حانا[٢]
وأحيانا على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

لكن قتال الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه قتال شريف قتال فى سبيل الله لا فى سبيل الهوى والشيطان قتال لخير البشرية ، قتال يتبع قوانين أخلاقية يغلب عليها طابع الرحمة والحكمة، تتمنى البشرية خصوصا فى عالم اليوم أن تطبق حتى تنجو من خطر محقق يهددها بالفناء التام والموت الزؤام .

من ذا الذى شرع له هذه القوانين ؟

ولماذا خرج على حكم البيئة ؟

وإذا كان كاذبا فى دعواه فلماذا ثبت عليها وظل يدافع عنها فى شجاعة واستبسال ؟

ولماذا قاتل من أجلها أصحابه فى حياته وبعد مماته لو خامرهم الشك فيها أو فيمن يدعيها ؟ .

---

(١) كن : أى كانت الخيل والمراد أربابها المغيرون أعوزهن نهب : تعسر عليهن ما ينتهب ـ جواب (إذا) (أغرن) فى البيت التالى .

(٢) الضباب : جمع ضب ، والحلول الذين يحلون فى مكان واحد ـ يقول : إنهم لاعتيادهم الغارة لا يصبرون عنها ويتقدمون الأقارب إذا تعسر الأباعد ، ومن هلك بغزونا هلك .

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

(وإنك لعلى خلق عظيم) .

أخلاق المرء نابعة من نفسه مرتبطة بها صورة لها وقد كانت نفس (محمد) صلى الله عليه وسلم كإنسان عظيمة لامكان للمراء فيها فإذا انضم إلى ذلك نفسيته كرسول فقد تجاوزت عظمته كل حد عرفته البشرية وأدركته الإنسانية .

وشهادة الله له بعظمة الخلق تغنيه عن كل شهادة فهى شهادة من الخالق الذى أبدع خلقه واصطفاه من أطهر المعادن وأعرق الأصول وأنبته نباتاً حسناً وأنشأه نشأة طيبة وأدبه فأحسن تأديبه ورباه على أنبل الصفات وأكرم الشمائل حتى صار أعلى مثل وأسمى طراز وأرفع نموذج وحتى أصبح عنوانا عن الإنسانية يشرفها ويرفع قدرها ويقوى الثقة فيها ويعرف الناس بها .

روى ابن أبى شيبة وغيره أن عائشة سئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت كان أحسن الناس خلقاً كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه ولم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخابا فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ثم قالت اقرأ (قد أفلح المؤمنون) إلى العشر فقرأ السائل فقالت : هكذا كان خلقه صلى الله عليه وسلم .

ولندرس جانباً من أخباره دراسة المدقق الذى يبحث عن السر فى محاولة نكتشف بها كنه هذه الشخصية الفريدة وجوانبها التى تفوح عطرا وتشع سناً ولا نقول إننا نستقصى ولا يمكن أن ندعى ذلك ومن لنا بالمحيط الذى لا يدرك غوره ولا تحصى درره .

حسبنا زهرات نقتطفها ونشم شذاها وتنسم عبيرها وفى ذلك متعة وأية متعة .

شجاعته

إن أبرز صفاته صلى الله عليه وسلم صفة الشجاعة ولا عجب فهو كإمام لهذه الأمة وقائد لها لابد أن يتحلى بها .

وشجاعته عليه الصلاة والسلام كانت تلازمه فى كل الظروف وأحلك المواقف . . .

لازمته فى صدر دعوته يوم وقف منه المشركون موقف العداء فلم تلن له قناة ، ولم تضعف له عزيمة ، وثبت على دعوته فلم تفلح معه أساليب الترغيب ، ولاألوان الترهيب بل بقى شامخا راسخا يسخر منهم ويتحداهم ولم يتملقهم ولم يداهنهم ولم يفاوضهم ولم يتحول قيد شعرة عن الحق الذى آمن به ودعا إليه وحسبنا منه قوله لعمه بعد أن ضاق ذرعا بما لقيه من قومه « ياعم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

ولازمته صفة الشجاعة حين كان يرى الرأى ويرى بعض أتباعه خلافه فيرجع عن رأيه إلى رأى من يخالفه بعد أن يتبين وجه المصلحة فيه .

ولم يكن ليعارض ولم يكن ليجادل بل كان يبادر باتباعه مع أنه السيد المطاع والإمام المقتدى به .

فى غزوة بدر نزل عليه الصلاة والسلام منزلا أشار بغيره الحباب بن المنذر فقال عليه الصلاة والسلام « لقد أشرت بالرأى » وبادر عليه الصلاة والسلام بتنفيذ ما أشار به الحباب .

موقف رائع حقا يعلمنا كيف نغالب أنفسنا وتتغلب عليها فلا تستبد بنا ولا نستبد بالناس ونتعاون معهم فى سبيل الخير والمصلحة .

موقف يحارب غرور الزعامة وهوى النفس وفتنة السلطان وشهوة التسلط ، ونزعة الاستبداد وخطر التحكم .

موقف يعين على نشر الحرية ورفع رايتها وإعلاء صوتها ومد جذورها .

موقف يشجع على الآراء الناضجة أن تنبت والأفكار الصائبة أن تترعرع والقيادات الناهضة أن تتكاثر .

موقف يحمى سفينة الدولة من الغرق ويمضى بها فى طريق السلامة وإلى شاطىء الأمان .

كذلك لازمته صفة الشجاعة فى كل غزواته وحسبنا قول على كرم الله وجهه « كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه » أخرجه أحمد رقم ١٣٤٦ وقول أنس ابن مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا وقد سبقهم واستبرأ الخبر وهو على فرس لأبى طلحة عرى وفى عنقه السيف وهو يقول « لن تراعوا لن تراعوا » أخرجه الخمسة إلا النسائى ويوم حنين وقف وقفة رائعة سجلها التاريخ بمداد الفخر ونقس [1] الإعجاب .

وقف وقفة حفظت على الإسلام مجده وخلدت انتصاره ولولاها لانتهى أمر الدعوة والداعى .

وقف صامدا فى وجه الأعداء وبين نبالهم وأتباعه قد اضطربت نفوسهم وانفرط عقدهم .

---

(١) نقس : بكسر النون وسكون القاف : حبر ومداد .

وفى هذه اللحظة الحرجة التى يحلو فيها لبعض النفوس أن تتخفى وتتنكر أبى عليه الصلاة والسلام — وهو يعلم أنه المقصود — أن يتقهقر أو يتستر ، وأعلن فى ثقة وثبات عن نفسه ونسبه وما اشتهر به مستمدا من ذلك كله قوة تحمله على تحمل البلاء وتدفعه إلى الصمود فى وجه الأعداء وقف يردد .

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

لم يهن عزمه ولم يضطرب فؤاده ووقف فى قلب المعركة والنبال تتساقط من حوله يدعو أتباعه إلى الثبات ومواصلة الجهاد وناشدهم الله أن يعودوا لأماكنهم ويصمدوا أمام عدوهم واستجاب المسلمون لدعوة نبيهم ولم يلبثوا إلا قليلا حتى وافاهم النصر وارتد عدوهم على أعقابه تاركا وراءه ماله وآله غنيمة للمسلمين ومكافأة للمجاهدين .

روى البخارى عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أنه قال له رجل : أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ قال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر .

إن هوازن كانوا قوما رماة وإنا لما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يفر فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء وإن أبا سفيان آخذ بلجامها والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب — وفى رواية لمسلم ج ٣ ص ١٣٩٨ : لما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار قال عباس وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها إرادة أن لا تسرع وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى عباس . ناد أصحاب السمرة فقال عباس (وكان رجلا صيتا) : فقلت بأعلى صوتى أين أصحاب السمرة ؟ قال : فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها فقالوا: يا لبيك يا لبيك قال فاقتتلوا والكفار ...

ثم أخذ النبي صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال « انهزموا ورب محمد » .

موقف رائع حقا علم القادة من بعده أن لايغفلوا وألا يترفهوا وألا يتعاظموا وأن يكونوا مع جنودهم فى قلب المعركة وأن يحيوا حياتهم ويعيشوا عيشتهم ويقدروا ظروفهم .

علم القادة من بعده أن وجود القائد بين جنده له أهمية فى إدارة المعركة إذ يمكنه من التخطيط لها عن قرب والتكيف حسب ظروفها والاستعداد لمفاجآتها وله أهمية فى نتيجتها إذ يمكنه أن يقضى على وجه السرعة ـ على عوامل الضعف ويقوى فى نفوس جنده الثقة والأمل فيدفع عنهم معرة الهزيمة ويمهد لهم سبيل النصر والغنيمة .

إن الصرخة التى صرخها النبي صلى الله عليه وسلم فى أصحابه وهم يتراجعون عنه ويتباعدون منه كانت وحدها سر النصر .

لقد كان مقدرا لهم أن ينهزموا وألا تنتهى هزيمتهم دون البحر كما زعم أبو سفيان بن حرب لكن هذه الصرخة حولت ميزان الحرب وأوقفت هذا التقهقر وكانت بشير الفوز والغلبة .

لقد عادوا إلى الميدان وهم هم لم يزيدوا عددا ولاعددا لكنهم عادوا بروح جديدة استمدوها من موقف قائدهم بطل الأبطال ورجل الرجال فأصبحوا جميعا يضارعونه فى البطولة ويحاكونه فى الرجولة ويضاهونه فى الثبات والإيمان فاستحقوا نصر ربهم وتأييده (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

كرمه

والكرم هو قرين الشجاعة وصنوها فالشجاع يجود بنفسه والكريم يجود بماله وقد كان عليه الصلاة والسلام مضرب الأمثال فى الكرم كما كان مضرب الأمثال فى الشجاعة .

عن سهل رضى الله عنه أن امرأة جاءت النبى صلى الله عليه وسلم ببردة منسوجة فيها حاشيتها أتدرون ما البردة ؟ قالوا الشملة . قال : نعم . قالت : نسجتها بيدى لجئت لأكسوكها .

فأخذها النبى صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها فخرج إلينا وإنها إزاره فحسنها فلان . فقال : اكسنيها ما أحسنها .

قال القوم : ماأحسنت ، لبسها النبى صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها ثم سألته وعلمت أنه لايرد .

قال : إنى والله ماسألته لألبسها إنما سألته لتكون كفنى قال سهل : فكانت كفنه . أخرجه البخارى ج ٢ ص ٩٨ .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : ماسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فقال : لا . أخرجه البخارى ومسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير وكان أجود مايكون فى شهر رمضان إن جبريل عليه السلام كان يلقاه فى كل سنة فى رمضان حتى ينسلخ فيعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فاذا لقيه جبريل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير من الريح المرسلة أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

وعن أنس رضى الله عنه قال : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئا إلا أعطاه قال : فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه فقال ياقوم أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لايخشى الفاقة . أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم ج ٤ ص ١٨٠٦ .

وعن عمر بن الخطاب أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ماعندى شىء ولكن ابتع على فإذا جاءنى شىء قضيته » .

فقال عمر : يارسول الله قد أعطيته فما كلفك الله مالا تقدر عليه،فكره عليه الصلاة والسلام قول عمر .

فقال رجل من الأنصار : يارسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف فى وجهه البشر لقول الأنصارى ثم قال : « بهذا أمرت » أخرجه الترمذى فى الشمائل ص ٣٨١ .

هذه الأحاديث تدل على أن خلق الكرم أصيل عند النبى صلى الله عليه وسلم وأن الجود طبيعته والسخاء سجيته والسماحة ديدنه فهو يعطى ويجزل العطاء ويستدين ليفك أزمة المحتاجين والفقراء .

إن المال كان فى يده يتحكم النبى صلى الله عليه وسلم فيه ولم يكن فى قلبه لذلك لم يتحكم فى النبى عليه الصلاة والسلام .

لقد عاش على الزهد فى أوقات الرخاء والبلاء لأن إيمانه بربه قوى ثقته فى فضله ولهذا هش للأنصارى وابتسم لحسن قوله .

وللزهد معنى يوضحه الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه الذى أخرجه الترمذى عن أبى ذر « ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة أن تكون بما فى يد الله تعالى أوثق منك بما فى يدك وأن

تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك » .

وتحدثنا السيدة عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم فتقول فى حديث رواه الشيخان « إنما كان فراشه صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه أدما حشوه ليف » .

وفى حديث آخر رواه البخارى يقول أنس بن مالك « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا فى سكرجه ولا خبز له مرقق ولا رأى شاة سميطا قط »[1] .

وفى حديث أخرجه الترمذى فى الشمائل عن حفصة ص ٣٤٤ « سئلت حفصة ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك قالت : مسحاً[2] نثنيه ثنتين فينام عليه فلما كان ذات ليلة قلت لو ثنيته أربع ثنيات لكان أوطأ[3] له فثنيناه أربع ثنيات فلما أصبح قال « ما فرشتمولى الليلة ؟ قالت : قلنا هو فراشك إلا أنا ثنيناه بأربع ثنيات قلنا هو أوطأ لك قال : ردوه لحالته الأولى فإنه منعتنى وطأته صلاتى بالليل » .

لقد زهد فى الدنيا أعظم الزهد ومن أجل هذا سهل عليه أن يجود بها على الناس .

---

(١) خوان : مايوضع عليه الطعام عند الأكل وهو مايسمى « بالسفرة » سكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشىء القليل من الأدم كالمخللات . المرقق : الرغيف الواسع الرقيق ، الشاة السميط : التى نزع صوفها بالماء الحار لتشوى .

(٢) المسح بكسر الميم وسكون السين : فراش خشن من صوف .

(٣) أوطأ : ألين .

عــدله

وتعالى معى أيها القارىء لنعرف عدله ومدى استمساكه به وحرصه عليه .

أخرج البخارى فى صحيحه جـ ٤ ص ٨٢ عن أنس بن مالك أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يارسول الله ائذن فلنترك لابن أختنا عبــاس فداءه ، فقال : « لا تدعون منها درهما » .

وفى الدر المنثور جـ ٣ ص ٢٠٤ « أخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن عائشة رضى الله عنها قالت لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلادة لها فى فداء زوجها فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وقال العباس رضى الله عنه إنى كنت مسلما يارسول الله قال : الله أعلم بإسلامك فإن تـكن كما تقول فالله يجزيك فافد نفسك وابنى أخويك ونوفل بن الحارث وعقيل بن أبى طالب وحليفك عتبة بن عمرو قال : ماذاك عندى يارسول الله قال : فأين الذى دفنت أنت وأم الفضل ؟ فقلت لها: إن أصبت فإن هذا المال لبنى فقال : والله يارسول الله إن هذا لشىء ماعلمه غيرى وغيرها » .

أنظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كيف يتحرى العدل ويطبقه على أهله وإذا كان قد أبدى عطفه على زوج بنته فماذاك إلا لما تجلى من فقره فقد كان لايجد الفدية فأرسلت زوجته زينب بقلادتها وكانت قد حلتها بها خديجة ليلة عرسها فعرفها النبى فرق لها غير أنه عرض الأمر على أصحابه ولم يبت برأى فى شأنها إلا بعد موافقتهم .

أما العباس فقد علم يساره فلم يطلق سراحه حتى أخذ فديته وفدية

الأسرى من أقربائه . نعم لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم حريصاً على تحقيق العدالة دون نظر إلى جاه أو قرابة .

ونذكر قصة أخرى عن عائشة رضى الله عنها : أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد رضى الله عنهما حب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكلمه أسامة رضى الله عنه فقال : أتشفع فى حد من حدود الله تعالى ؟ ثم قام فاختطب ثم قال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . أخرجه الخمسة .

ما أروع هذه القصة إنها تكشف لنا الطبيعة البشرية التى تبحث عن طريق يوصلها إلى غايتها أياً كانت هذه الغاية وتبين لنا كيف حارب الرسول صلى الله عليه وسلم المحسوبية ووقف بجانب العدل يناصره ويحميه بكل ما لديه من قوة وانظر معى مواقف أخرى .

روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً أقبل رجل فأكب عليه فطعنه صلى الله عليه وسلم بعرجون كان معه فجرح وجهه ثم قال له : تعال فاستقد ، قال: بل عفوت عنك يا رسول الله » أخرجه أبو داود والنسائى .

أخرج ابن إسحق قال حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن رجل من العرب قال : مشيت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وفى رجلى نعل كثيفة فوطئت بها على رجله فنفحنى نفحة بسوط فى يده وقال باسم الله أوجعتنى فبت لنفسى لائماً أقول : أوجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبت ليلة كما يعلم الله فلما أصبحنا إذا رجل يقول: أين فلان؟ فقلت: هذا الذى والله كان منى بالأمس فانطلقت وأنا متخوف فقال لى صلى الله عليه وسلم: إنك وطئت رجلى

ابالأمس فأوجعتنى فنفحتك بسوط فهذه ثمانون نعجة فخذها . شرح المواهب ج ٤ ص ٣٠٠ .

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى وكان بيده سواك فدعا وصيفة له أولها حتى استبان الغضب فى وجهه وخرجت أم سلمة إلى الحجرات فوجدت الوصيفة وهى تلعب ببهمة فقالت : ألا أراك تلعبين بهذه البهمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك ؟ فقالت لا . والذى بعثك بالحق ماسمعتك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك . أخرجه أحمد .

وعن الفضل بن العباس أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فى مرض وفاته فقال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالى فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه لايقولن رجل إنى أخشى الشحناء من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتى ولا من شأنى ألا وإن أحبكم إلى من أخذ حقاً كان له أو حللنى فلقيت الله وأنا طيب النفس » فقام إليه رجل فقال : يارسول الله إن لى عندك ثلاثة دراهم قال: إما أنا لا نكذب أحدا ولا نستحلفه فيم صارت لك عندى ؟ قال : تذكر يوم مر بك مسكين فأمرتنى أن أدفعها إليه قال: «ادفعها إليه يافضل» يعنى ابن عمه العباس أخرجه أبو يعلى والطبرانى .

إن الحديث عن العدالة وعن الحرص عليها سهل على من يتولون أمور الناس وأكثر هؤلاء يقولون مالا يفعلون ويتشدقون بالعدل ليجمعوا حولهم القلوب ويجذبوا نحوهم النفوس .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان حريصاً كل الحرص على أن يكون فعله مصداقا لقوله .

لقد رغب فى العدل بعشرات الأحاديث ونفر من الظلم تنفيراً

شديداً لكن القول لايثمر فى النفوس ما يثمره الفعل .

وفى الأحاديث التى قدمناها نراه يتهيب الظلم على فرد من أفراد رعيته بل على خادمته ويتصور أن ضربها بالسواك مدعاة يوم القيامة إلى مؤاخذته وهو نبى الله ، ورسوله ومصطفاه .

إن روعة الأحاديث السابقة تبدو حين نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم من الذنوب يتهيب الخطيئة إلى هذا الحد .

إنه لم يكن سباباً ولا جلاداً ولانهاباً إنه لم يكن يعرف الظلم ولايتمشى الظلم وإن صغر - مع طبيعته .

ولقد كان يظلم فيعفو ويساء إليه فيرد الإساءة بالإحسان لكنه فى هذا الحديث يريد أن يقول للظلمة وأعوانهم :

ارفقوا بأنفسكم فإن لكم يوما تحاسبون فيه على مابدر منكم صغيرا كان أم كبيرا فالويل لكم إن جئتم يوم القيامة وقد ظلمتم الناس واعتديتم عليهم فى أموالهم وأعراضهم ودمائهم .

لاتظنوا أن الظالم ينجو إن حقوق الناس لابد أن تسترد ولابد أن ينال عقاب الله كل من تعدى عليها .

حاذروا حاذروا ، فإنى وأنا نبى الله أخشى غائلة الظلم يوم القيامة فكيف يكون حالكم ومآلكم :

أنظر إلى المختار قبل وفاته يرسى الأساس ليستقر بناء
ويقول من آذيتهم فليأخذوا منى حقوقهم إذا ماشاءوا
كشف الرسول لنا عن استعداده
ليقاد منه إن بدا إيذاء
وهو الذى قد ظل طول حياته يؤذى ويدعو للذين أساءوا

هو رحمة للعـــالمين فلا أذى ... منه ولا عنت ولا ضراء
أعظم به مثلا يرينا أننا ... والمصطفى عند القضاء سواء
أعظم به مثلا يصون حقوقنا ... طرا فلا يغتالها رؤساء
هذا هو الحكم النزيه فطالبوا ... بقيـامه حتى يحل هناء

نعم . لقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفعل والقول — الحجر الأساس لبناء دولة الإسلام وهل تقوم على غير العدل ؟ إن العدل هو أساس الملك — كما قيل .

ويشاء الله ألا يخرج النبى صلى الله عليه وسلم من الدنيا حتى يبرأ من الظلم ليعلم الحكام من بعده أن يعدلوا مع الناس وأن يعيشوا معهم على قدم المساواة وليحفظ على الناس دماءهم وجلودهم وأموالهم وأعراضهم فلا يمسها حاكم ظلما وعدوانا .

ويستمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى التنفير من الظـــلم فيقول « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » أخرجه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .

هذا التحذير الشديد ألهب شعور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرهب أفئدتهم وأقض مضاجعهم فبدأ كل منهم يحاسب نفسه وفى هذا تقول السيدة عائشة : جاء رجل فقعد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لى مملوكين يكذبوننى ويخوننى ويعصوننى وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا فيهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك

ولا عليك وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما تقرأ قول الله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينـــا بها وكفى بنا حاسبين) فقال الرجل : يارسول الله ما أجد لى ولهؤلاء خيرا من مفارقتهم أشهدك أنهم كلهم أحرار . أخرجه أحمد والترمذى .

والعدل فى نظر نبى الإسلام عدل شامل كامل يشمل كل ذى روح إنسانا أوحيوانا .

عن عبد الله بن جعفر قال دخل النبى صلى الله عليه وسلم حائطا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه [1] فسكت فقال : « من رب هذا الجمل ؟ فقال فتى من الأنصار هو لى يا رسول الله فقال أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها فإنه شكا لى أنك تجيعه وتدئبه » .

وعن ابن مسعود قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة [2] معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تعرش [3] فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال من فجع هذه بولديها ؟ ردوا ولديها إليها أخرجها أبو داود .

فى هذين الحديثين تتجلى روح النبى صلى الله عليه وسلم ، إنه يحارب الظلم ولو وقع على كاهلى طائر أو حيوان ، إنه يحذر أن نعذب خلق الله وأن نجيع

---

(١) الذفرى من البعير : مؤخر رأسه وهو الموضع الذى يعرق من قفاه .
(٢) الحمرة : طائر صغير كالعصفور .
(٣) التعريش : أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها .

عبـاده ونشق عليهم فى العمل وأن نفرق بين الأهل والعشيرة دون ذنب وجريرة .

إن الجمل الذى لايعى ولايبين والحمرة التى لاتعقل ولاتنطق قوى لديهما الإحساس بأن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم شخصية فذة رحيمة عادلة يلجأ إليها الخائف فيأمن والجائع فيطعم والمكدود فيستريح والمظلوم فينصف .

ولاعجب إذا قدم كل منهما (عرض حال) إلى رسول الله عليه وسلم .

ولا عجب إذا بادر رسول الله بنظر شكايتهما والعمل على إنصافهما - ليعلم الحكام من بعده أن يترفقوا بالمحكومين ويسارعوا إلى دفع الظلم عن المظلومين ورفع الغبن وضمان العيش الهنيء لجميع العاملين وصدق الله إذ يقول (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وبعد فماذا تدل عليه هذه الأخلاق الطاهرة والصفات العاطرة ؟

لقد كان شجاعا فى سبيل الله وكريما يحسن إلى عباد الله وزاهدا فى الدنيا ومقبلا على الله وعادلا مع جميع خلق الله وكان حديثه المعبر عن أخلاقه تتمثل فيه وحى الله وشدة المراقبة لربه الذى اصطفاه أفلا يوحى هذا بأنه نبى من عند الله ؟

أمانتـــه

تحدثنا فى الكلمة السابقة عن جانب من أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم.

والآن نتحدث عن خلق الأمانة فقد اشتهر به منذ نشأته وقبل بعثته فكان يدعى الأمين .

وفى كتب السيرة يروى أن القبائل اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود بعد أن تم بناء الكعبة كل قبيلة تريد أن تستأثر بوضعه واحتدم الخلاف

حتى كاد ينتهى بحرب أهلية وأخيرا اتفقوا على أن يحكموا أول قادم من باب البيت الحرام فكان أول قادم محمد صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا جميعا وبصوت واحد هذا هو الأمين هذا هو محمد رضينا به .

والأمانة فى قاموس الإسلام لها معنى أوسع من أن تكون حفظاً وردا لوديعة فهى عنوان عام يشمل ذلك ويشتمل القيام بالواجب دون تقصير والاضطلاع بالتكاليف دون تقاعس والاهتمام بأمر العامة دون تهاون أو محاباة وكتمان السر وإخلاص الرأى وحسن المشورة .

بلغ عن ربه كل ما نزل عليه وما وجه من عتاب إليه ولم يتقاعس فى القيام بواجب الدعوة ولم يتراخ فى الاضطلاع لمهامها ، ولم تزده الشدائد التى اعترضته إلا ثباتاً ولا المحن التى صادفته إلا مضاء .

وحين كان يسأل عن أمر لا دراية له به لم يكن يجترىء على التصدى له بل كان يتوقف حتى ينزل عليه وحى فى شأنه .

وفى القرآن آيات كثيرة تدل على هذا وتعضده منها (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) - (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير . . .) - (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) - (ويسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى . . .) (ويسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول . . .) (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى . . .) (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا) .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم فى مقامه الأعلى سن لمن بعده هـــذه السنة الحسنى عليهم أن لا يتجرءوا على الفتيا بدون علم وأن يتوقفوا فيما لا علم لهم به وأن يحيلوا علم ما لا يعلمون إلا من يعلمه . وتلك غاية الأمانة .

والمال — كالعلم أمانة فى يد النبى صلى الله عليه وسلم لا يؤخذ إلا بحقه ولا يعطى إلا لمستحقه .

عن جبير بن مطعم رضى الله عنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وجاءته وفود هوازن فقالوا : يامحمد إنا أهل وعشيرة فمن علينا من الله عليك فإنه قد نزل بنا من البلاء مالا يخفى عليك .

فقال : اختاروا بين نسائكم وأموالكم وأبنائكم قالوا خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا نختار أبناءنا .

فقال : أما ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فإذا صليت الظهر فقولوا إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين وبالمؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسائنا وأبنائنا .

قال ففعلوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ماكان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وقال المهاجرون : ماكان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت الأنصار مثل ذلك وقال عيينة بن بدر : أما ماكان لى ولبنى فزارة فلا ، وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا . فقالت الحيان كذبت بل هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأيها الناس ردوا عليهم نساءهم وأبناءهم فمن تمسك بشىء من الفىء فله علينا ست فرائض[1] من أول شىء يفيئه الله علينا .

ثم ركب راحلته وتعلق به الناس يقولون اقسم علينا فيئنا بيننا حتى ألجئوه إلى سمرة [2] نخطفت رداءه . فقال : يأيها الناس ردوا على ردائى

---

(١) الفرائض جمع فريضة : وهو البعير المأخوذ فى الزكاة ونحوها .

(٢) نوع من الشجر الطلح وهو العضاه . شجر يعظم وله شوك .

فوالله لوكان لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته بينكم ثم لاتلفونى بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا .

ثم دنا من بعيره فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصابعه السبابة والوسطى ثم رفعها فقال : يأيها الناس ليس لى من هذا الفىء ولا هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم فردوا الخياط والمخيط [1] فإن الغلول يكون على أهله يوم القيامة عارا ونارا وشنارا [2] .

فقام رجل معه [3] كبة من شعر فقال : إنى أخذت هذه أصلح بها بردعة بعير لى دبر [4] . قال : أما ماكان لى ولبنى عبدالمطلب فهو لك فقال الرجل: يارسول الله أما إذ بلغت ما أرى فلا أرب لى بها ونبذها) أخرجه أحمد .

ما أروع هذا الحديث ؟ إنه يكشف لنا عزوف النبى صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وحمله لأهله على أن يسيروا فى طريقه .

يكشف لنا كيف كان النبى صلى الله عليه وسلم يسوس قومه فى حكمة تنزع السخيمة وتذهب بالغل وتؤلف بين القلوب .

يكشف لنا كيف كان النبى صلى الله عليه وسلم يحارب الخيانة والغلول ماصغر منهما وماكبر وذلك لأنه يريد مجتمعا نظيفا يعطى ما عليه ويأخذ ماله وفى هذا ضرب لنا المثل الأعلى ، ورسم الخطة المثلى .

مرة أخرى نستمع إلى على رضى الله عنه يحدثنا فيقول :

---

(١) الخياط : الخيط - المخيط : الإبرة .
(٢) شنار : عيب .
(٣) كبة : لفافة .
(٤) الدبر : جرح فى ظهر البعير تحت بردعته .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجه فاطمة بعث معه بخميلة (١) ووسادة من أدم (٢) حشوها ليف ورحيين وسقاء (٣) وجرتين .

فقال على لفاطمة ذات يوم : والله لقد سنوت (٤) حتى لقد اشتكيت صدرى قال : وقد جاء الله أباك بسبى فاذهبى فاستخدميه .

فقالت : وأنا والله قد طحنت حتى مجلت (٥) يداى فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ماجاء بك أى بنية ؟ قالت : جئت لأسلم عليك ، واستحيت أن تسأله ورجعت فقال : مافعلت ؟ قالت : استحيت أن أسأله .

فأتيناه جميعا فقال على : يارسول الله والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدرى .

وقالت فاطمة : قد طحنت حتى مجلت يداى وقد جاءك الله بسبى وسعة فأخدمنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة(٦) تطوى بطونهم ، لاأجد ماأنفق عليهم ولكنى أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم .

فرجعا فأتاهما النبى صلى الله عليه وسلم وقد دخلا فى قطيفتهما إذا غطت رؤوسهما تكشفت أقدامهما وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رؤوسهما فثارا فقال : مكانكما .

ثم قال : ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟ قالا : بلى فقال « كلمات علمنيهن

---

(١) خميلة : قطيفة .
(٢) أدم : جلد أو جلد أحمر .
(٣) سقاء : وعاء يحمل اللبن أو الماء .
(٤) سنوت : استقيت .
(٥) مجلت يداى : ظهر فيهما بثر ممتلىء ماء أو قيحا .
(٦) الصفة : موضع مظلل فى المسجد كان يأوى إليه الفقراء والعجزة .

جبريل عليه السلام . فقال تسبحان فى دبر كل صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا أربعا وثلاثين ، قال فوالله ما تركتهم منذ علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : له ابن الكواء ولا ليلة صفين ؟ فقال : قاتلكم الله ياأهل العراق ولا ليلة صفين . أخرجه أحمد ج ٢ ص ١٤٩ ، ١٥٩ حديث ٨٣٨

ما أبدع هذا الحديث وما أجمله .. فاطمة هذه هى بنت محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هو ابن عمه وزوج ابنته يسقى للناس حتى آذاه برد الماء .

جاء فجلس إلى جوار شريكته فى الحياة يسر إليها نجواه ، ويبث إليها شكواه فلا يكاد ينتهى من شكايته حتى تبادله الشكوى من مثل ما اشتكى منه .

كلاهما يشكو من الفقر والتعب والمرض كلاهما يهدده هذا الثالوث الرهيب ما العلاج وما الدواء ؟

فكر على ولم يطل تفكيره فقد سمع أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه سبى وامتدت عينه وتطلعت نفسه إلى خادم يعينه ويعينها على أعباء الزوجية ومشاق الحياة .

وذهبت فاطمة إلى أبيها بتحريض من زوجها لكنها لا تكاد ترى وجه والدها الحنون حتى يغلب عليها الحياء ، ويتملكها الخجل فلا تزيد على السلام وهو عليه الصلاة والسلام - لا يزيد على الرد .

وتعود فاطمة كما بدأت تجر أذيالها ، لم تستطع أن تعرض أمرها ، وعلى من ؟ على أبيها وهو أملها الباقى بعد وفاة أمها .

ما أعظم هذه الهيبة وما أجمل هذا الحياء ! عادت فاطمة إلى زوجها لتقول له إنها استحيت أن تسأله ، ولكن عليا رضى الله عنه يخشى أن تفوته الفرصة ويحرص على ألا تضيع وهو يفهم قول الشاعر :

إنتهز الفرصة إن الفرصة   تكون إن لم تنتهزها غصة

وهل كل يوم يجود فيه الزمان بسبى؟ وهل تهب الرياح دواما بما تشتهيه السفن؟

بادر معها بالذهاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وماذا لو شكا بنفسه إليه؟ أليس هو ابن أبي طالب الذى كفل النبي صلى الله عليه وسلم فى صغره وحماه بعد كبره؟

أليس هو مع ذلك زوج ابنته المحبوبة؟ فأى حرج فى أن يشكو القريب إلى ذى قرابته والزوج إلى أبى زوجته وإلى من يشتكى إذا لم يشتك لهؤلاء؟

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة
يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ليس هناك مايدعو إلى التحفظ ويحمل على التهيب فالقرابة أو المصاهرة والحاجة كلها تفتح باب الأمل وتعيد طريق الرجاء وتشجع على العرض وهى مع ذلك تحفظ السر وتصونه من الذيوع .

وابتدأ على رضى الله عنه يعرض شكايته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وثنت فاطمة كذلك كلاهما يبثه شكواه بعد أن تعسرت عليه سبل الحياة كلاهما ممتلىء القلب بالأمل فى أن يجد فرجا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفى هذه المرة تجرأت فاطمة ـ ولعلها أرادت أن ترضى زوجها وتدفع عن نفسها تهمة التقصير ـ فصرحت بكل مايدور بخلدها ويجول فى خاطرها وأبدت رغبتها فى أن يجود عليها أبوها بخادم يخفف عنها متاعب البيت .

والرسول صلى الله عليه وسلم ينصت إليهما ويصيخ لهما فى هدوء وأناة حتى إذا ماانتهينا لقنهما درساً لم يك فى الحسبان ألقى عليهما درسا قاسياً لايستطيعان له نسياناً ولا تناسياً .

فاجأهما بدرس فيه عظة وعبرة ، درس قضى على المحسوبية وأتى على بنيانها من القواعد .

درس ينادى ألا محاباة ولا مجاملة ولا محسوبية ولا استثناء .

درس يفيض محبة وحنانا ورأفة بالفقراء والمساكين وشفقة بالبؤساء والمحتاجين .

درس يسجله التاريخ على مر الأيام وكر الأعوام ينادى جهرة بفم الزمان « والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم » .

ياله من شعور دقيق بالمسئولية ، وإحساس رقيق بالتبعة ليس هناك شعور يحاكيه ولا إحساس يدانيه .

إنه إحساس النبوة وشعور الرسالة ، والرسالة رحمة للعالمين فلا عجب إذا لمسنا هذه الرحمة وقد مست القريب والبعيد بل آثرت البعيد على القريب ، واكتفت بأذكار يرددها الآل والأقرباء صباح مساء ؛ وليس هناك أحد يحرص على ماسمع من أهل بيت النبوة وخريجى دار الرسالة وحسبهم وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهم بها سلوة وأعظم سلوة .

ما أحلى هذا الحديث وما أحوجنا فى هذه الأيام إلى أن نفهم معناه ونسير على مقتضاه كأنى برسول الله صلى الله عليه وسلم يتخطى الحجب ويرقب بعينيه النفاذتين حال هذا العصر وصورة أبناء هذا الزمان أولئك الذين يلون أمور العباد فيصرفونها على هواهم يعطون من حولهم ويحرمون من بعد عنهم حتى سلب النفعيون من ذوى الحقوق حقوقهم وتقدموا عليهم دون أن يكون لهم سبق فى فضل أو خلق أو خبرة أو معرفة إلا معرفتهم بما يرضى أسيادهم من الملق والنفاق والرياء والدس والوشاية حتى انتشرت الرذائل وعم الفساد وضج الناس بالشكوى .

والذنب ذنب أولئك الذين استرعاهم الله أمور العباد وملكهم زمامهم فجهلوا رسالتهم ونسوا مسئوليتهم فأضاعوا المال وأفسدوا الرجال وقتلوا

الكفاءات ، وأهملوا الخبرات وملأوا النفوس بالكراهية والسخط حتى أصبح أبناء الأمة فى صراع دائم وقلق مستمر كلهم يوجس فى نفسه خيفة .

ومن أجل هذا طمع فيهم عدوهم وقوى عند خصومهم الأمل فى أن يظهروا عليهم ، فالخوف الذى استبد بالقلوب والهلع الذى استقر فى النفوس والفساد الذى استشرى . كل ذلك أورث الأمة ضعفا ومهد الطريق أمام الأعداء الخبثـــاء .

أرأيت كيف حارب الرسول صلى الله عليه وسلم الفساد حتى لم يدع طريقاً يسلكه أو بابا يطرقه وكيف بدأ بأهله فقطع أطماعهم وعودهم الرضا والقناعة وعلمهم أن يتعبوا ويكدوا ويتحملوا حتى يستريح ضعفاء المسلمين ويهنأ بال الفقراء والمساكين .

لقد حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال المسلمين وحجب عنها أنظار الأقارب والمقربين وأوجب أن تصرف حسب حاجة المحتاجين .

وبدأ يطبق هذه المبادىء على ابنته الوحيدة التى لم يبق له سواها ولم يبق لها سواه ولم يشفع لها أنها ابنة خديجة زوجته المحبوبة التى آزرته بمالها وجاهها وعقلها وقابلت ربها راضية مرضية بعد أن أنفقت ماتملك فى سبيل دين الله ولم يبق لابنتها من ثرائها المعروف ماتستعين به على نوائب الحياة .

أنقول انه صلى الله عليه وسلم قد تنكر لجميل أمها بعد أن ماتت أم نقول أن زوجاته قد شغلنه عن خديجة وبنت خديجة ؟ لا . فقد كان عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى فى الوفاء .

روى أحمد بسنده عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثنى فأحسن الثناء ، قالت : فغرت يوما فقلت : ماأكثر ماتذكر حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيرا منها ، قال : ما أبدلنى الله خيرا منها

قد آمنت بى إذ كفر بى الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله أولادها ، وحرمنى أولاد الناس .

وفى رواية أخرجها الشيخان والترمذى قالت « ماغرت على أحد من نساء النبى صلى الله عليه وسلم ماغرت على خديجة رضى الله عنها ومارأيتها قط ولكن كان يكثر ذكرها أو ربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، وربما قلت له : كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ؟ فيقول إنها كانت وكانت ، وكان لى منها ولد . قالت وتزوجنى بعدها بثلاث سنين » .

وفى رواية للبخارى فى الأدب المفرد عن أنس قال كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتى بهدية قال : « اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة رضى الله تعالى عنها ، إنها كانت تحب خديجة » .

وفى رواية للحاكم من حديث عائشة قالت « دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان » .

إذن فما الذى يمنعه أن يطيب خاطر فاطمة بنت خديجة وهو الحريص على أن يكرم صدائق أمها ؟ .

أليست ابنتها أولى بالكرم وأجدر بالعطف وأحق بالرعاية ؟ لا . فلا انتماؤها إليه ولا انتسابها لخديجة يشفع لها فى الحصول على أموال المسلمين فالحاجة عند رسول الله هى الشفيع الأول والأخير وهناك من هم أحوج من ابنته فما كان له أن يدعهم ويشتغل بينته عنهم وهو القدوة التى يجب أن يتأسى بها المسلمون جميعا .

لقد اعترف عليه الصلاة والسلام بحق البطون ونزل على حكمها فأبى أن يذعن لعاطفة الأبوة ، وعهد الزوجية ، وصلة المصاهرة وجاع هو وأهله فى سبيل أن يوصل للرعية قوتها ، ويقضى طلبتها ويسد احتياجاتها ، وأوصل لذوى الحقوق حقوقهم قبل أن يطلبوها وفكر فى شئونهم قبل أن يفكروا فيها . وكد هو وأهله من أجل لقمة العيش فلم يتعطل واحد منهم اعتمادا على أموال المجاهدين ولم ينلهم منها على الرغم من فقرهم ونصبهم ومرضهم ما نال أهل الصفة وضعفاء المسلمين .

أيها الفقراء لقد جاع الرسول صلى الله عليه وسلم ليشبعكم وتعب ليريحكم وضيق على نفسه وأهله ليوسع عليكم وقدم إليكم القوت قبل أن تطالبوا به ووفر لكم ما يلزمكم قبل أن تثوروا فى وجهه فمم تفرون وإلام تلجئون (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) .

ألا إن العلاج أن نلتزم بالأحكام التى التزم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ليوفر لكم الولاة مطالب الحياة حتى تتحسن الأحوال وتصلح الأعمال ، وتتحقق الآمال ويصل أرباب الحقوق إلى حقوقهم دون حاجة إلى شفاعة أو تقديم رشوة ودون استناد إلى نفاق أو ملق أو حسب أو نفوذ .

ألا إن العلاج أن ندقق فى صرف أموال الدولة فلا تصرف فى لهو فاضح أو مجون عابث أو كماليات لا حاجة بها ولا ضرورة لها .

ألا إن العلاج أن نتخلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقوم كل فرد بما عهد إليه فى أمانة ويضطلع بمسئوليته فى نزاهة .

إن المولى يقول فى كتابه (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) فلنحاسب أنفسنا كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يحاسب نفسه ولنبتعد عما يشيننا ويزرى بنا كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يبتعد عما يشينه ويزرى به .

لنطهر النفوس من أرجاسها والأخلاق من أدناسها .

عند ذاك تتقدم الأمة وتنكشف الغمة وتصفو القلوب وتتآلف الأرواح وتتضاءل الجرائم ويزداد الحب والتعاون .

عند ذاك يرتفع شعار الدولة ويعلو شأنها ، ويصبح لها علم مرفوع وذكر مسموع وتتغلب على من عاداها ، وتقهر كل من خاصمها .

إن صلاح الباطن يولد صلاح الظاهر ، والقلوب الطاهرة النقية تبنى أمة سعيدة قوية ، لنهتم بالأخلاق فقد قال بعض الشعراء :

على الأخلاق شيدوا الملك وابنوا
فليس وراءها فى العز ركن
وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

لنكن أمناء كما كان النبي صلى الله عليه وسلم أمينا ولنفهم الأمانة فهما سليما وليكن لنا من أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه ماينير لنا الطريق ويهدينا السبيل .

(وبعد) فقد تجلى لنا مما قلناه أنه صلى الله عليه وسلم كان متحليا بخلق الأمانة منذ نشأته ، كان أمينا بكل ماتتسع له هذه الكلمة من معنى كان أمينا على ماأودع فى ذمته وكان أمينا على دولته .

فيوم كانت الدعوة ليس لها دولة ، وقف معها بجهده وجسمه وعقله فبلغ ماأوجب الله عليه أن يبلغه من تعاليم السماء، فلم ينقص منه حرفا ولم يزد حرفا، وقال كما علمه ربه (قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) .

وحين ساوموه على مبادئه وعرضوا عليه أن يكف لسانه عن ذكر آلهتهم وله عليهم أن يعطوه ما يكون به أغنى رجل فى مكة ويزوجوه ما أراد من النساء أبى أن يستجيب لهم .

وحين طلبوا إليه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة رفض أن يتجاوب معهم ونزل عليه فى ذلك كما أخرج الطبرانى وابن جرير وابن أبى حاتم (قل يأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون) .

ونزل أيضا (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟) إلى قوله (الشاكرين) الدر المنثور ج ٦ ص ٤٠٤ .

ولما اقتنع بعضهم بصحة رسالته وصواب دعوته عرضوا على النبى أن يؤمنوا به واشترطوا أن يطرد المستضعفين الفقراء من حزبه فنزل عليه الوحى :

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شىء ومامن حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم) ، كما أخرج أحمد والطبرانى وابن أبى حاتم عن ابن مسعود .

ولما جاءه مسيلمة يفاوضه ويساومه ويعلن أنه مستعد لاتباعه إن هو جعل له الأمر من بعده أبى عليه الصلاة والسلام وثبت على ما أمره به ربه .

أخرج مسلم ج ٤ ص ١٧٨٠ عن ابن عباس قال قدم مسيلمة الكذاب على عهد النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فجعل يقول :

إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته .

فقدمها فى بشر كثير من قومه فأقبل إليه النبى صلى الله عليه وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفى يد النبى صلى الله عليه وسلم قطعة جريدة حتى

وقف على مسيلمة فى أصحابه ثم قال : « لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها ولن أتعدى أمر الله فيك ولئن أدبرت ليعقرنك الله وإنى لأراك الذى أريت فيك ماأريت وهذا ثابت يجيبك عنى ، ثم انصرف عنه ، ولقد تحققت نبوءة النبى صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فقتل مسيلمة الكذاب .

نعم لقد وقف الرسول صلى الله عليه وسلم مع الدعوة بكل ما أوتى من قوة .

ووقف معها لا يتردد فى نشرها ولا نصرها ولا يعرضها على الكفار فى سوق المزايدة أو المناقصة وحين امتدت الدعوة وصارت لها دولة لم يقبل من أحد من خصوم الإسلام أن يتدخل فى شئونها سواء فى ساعة العسر أو اليسر .

ولم يرض أى اتصال مريب مـــع الكفار يكون عاقبته انهيار الدين وتخلخل الدولة .

لقد كان حذرا يقظا يعمل لصالح الإسلام وصالح دولة الإسلام لم يتهاون فى مبادئه طمعا فى الحصول على المال أو استبقاء الحكم والسلطان .

لقد علم أتباعه أن لا ينخدعوا للكفار وأن يكونوا على حذر منهم وتلا عليهم قول الله فى شأنهم (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ، لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير) (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط) ـ (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء) .

رحمتـــه

وكما كان صلى الله عليه وسلم أميناً كان رحيماً ، اتسع قلبه الرحيم لأعدائه كما اتسع لأصفيائه ، أنظار إليه وقد اشتط خصومه فى الإساءة إليه وأسرفوا فى الاعتداء عليه يدعو لهم ويعتذر عنهم فيقول مناجيا مولاه داعيا ربه « اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون » ، واستمع معى إلى عائشة رضى الله عنها تقول : قلت يارسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن[1] الثعالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فنادانى فقال :

« إن الله تعالى سمع قول قومك لك وماردوه عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فنادانى ملك الجبال وسلم على ، ثم قال : يامحمد إن الله تعالى قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال قد بعثنى إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبقت[2] عليهم الأخشبين فقال صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولايشرك به شيئا » أخرجه الشيخان — تيسير الوصول ج ٤ ص ٢٢٠ .

لقد وسعهم قلبه الرحيم فرأف بهم وأبى أن يهلكوا معاقبة على سوء ردهم ، ونظر إلى الغد نظرة مشرقة بالأمل ، لم يقف عند حاضرهم المظلم بل تجاوزه إلى الغد المرتقب ورجا إن لم تنشرح قلوبهم للإيمان — أن يهدى الله قلوباً تنبثق من أصلابهم .

---

(١) القرن : جبل صغير منقطع من كبير وقرن الثعالب هو قرن المنازل ميقات أهل نجد .

(٢) أى أضم عليهم جبل أبى قبيس وما يقابله .

وحقق الله أمله ، فأسلم عمرو بن العاص فاتح مصر ، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية بن خلف وهبار بن الأسود والوليد بن عقبة بن أبي معيط وغيرهم ممن كان آباؤهم حربا على الإسلام ونبيه والمؤمنين به .

وفى هـــذا عبرة لدعاة الإسلام فى أيامنا تدفعهم إلى الثبات فى الدعوة وتحملهم على ألا ييأسوا من النجاح مهما تلبد الجو ، وادلهمت الخطوب ، وضاقت فى وجوههم السبل وأظلمت الدنيا أمام أعينهم .

ليرتقبوا الغد وقلوبهم مليئة بالأمل مفعمة بالرجاء ، ولله فى أيام دهرنا نفحات وكم من قلب متحجر بالكفر عاد غضا بالإيمان .

وكم من نفس متشبعة بالخبث عادت طيبة بالإسلام ، وكم من أصل ردىء زكت فروعه وطابت ثماره . . .

ذلك مثل من أمثلة رحمته بأعدائه .

أما رحمته بالمؤمنين فيشهد لها قول الله ، وكفى بالله شهيدا (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) وتأمل معى هذه الشواهد من مرويات رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعرف مدى رحمته بأمته .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتى لايشرك بالله شيئا » أخرجه الشيخان ومالك والترمذى .

إن النبى صلى الله عليه وسلم مرت عليه ظروف مختلفة تفرض عليه أن يتعجل دعوته ، لكنه - لبالغ رأفته - آثر بها المحتاجين من أمته ، فادخرها لهم فى وقت يكونون أشد حاجة إليها ومن يساوى النبى صلى الله عليه وسلم أو يدانيه فى الإيثار ؟ .

لقد أعرب الرسول صلى الله عليه وسلم عن بليغ حبه ، وصفاء وده ، وعظيم شفقته ، وكمال رحمته بأمته .

ويروى عن أبي هريرة أيضا أن أعرابيا جاء يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فأعطاه ثم قال : « أحسنت إليك » ، قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت .

فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده ثم قال : أحسنت إليك ؟ فقال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك » قال : نعم .

فلما كان الغد أو العشى جاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي أكذلك ؟ » قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا فناداهم صاحبها ، خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها ، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » أخرجه البزار .

إن رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الفياضة أنسته إساءة الأعرابي إليه مع سبق تفضله عليه .

وعن ابن عمر قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب بز فاشترى منه قميصا بأربعة دراهم فخرج وهو عليه فإذا رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله اكسني قميصا كساك الله من ثياب الجنة فنزع القميص فكساه إياه .

ثم رجع إلى صاحب الحانوت فاشترى منه قميصا بأربعة دارهم وبقى معه درهمان فإذا هو بجارية فى الطريق تبكى فقال : ما يبكيك ؟ قالت يا رسول الله دفع إلى أهلى درهمين أشترى بهما دقيقا فهلكا فدفع النبى صلى الله عليه وسلم إليها الدرهمين الباقيين .

ثم ولت وهى تبكى فدعاها فقال : ما يبكيك وقد أخذت الدرهمين ؟ فقالت أخاف أن يضربونى فمشى معها إلى أهلها فسلم فعرفوا صوته ثم عاد فسلم ثم عاد فثلث فردوا فقال : أماسمعتم أول السلام ؟ فقالوا نعم ، ولكن أحببنا أن تزيدنا من السلام . فما أشخصك [1] بأبينا وأمنا ؟ قال : أشفقت هذه الجارية أن تضربوها . قال صاحبها : هى حرة لوجه الله لممشاك معها .

فبشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخير وبالجنة وقال « لقد بارك الله فى العشرة كسا الله نبيه قميصا ورجلا من الأنصار قميصا وأعتق منها رقبة ، وأحمد الله هو الذى رزقنا هذا بقدرته » أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٣ .

هذا الحديث يشهد لسماحة النبى صلى الله عليه وسلم ورحمته ، وحسن عشرته ويدل على كرم سجيته .

جارية مملوكة تبكى حزنا على ما ضاع منها وخوفا من بطش سيدها فيعوضها النبى صلى الله عليه وسلم ويؤمنها ويبالغ فى تطمينها فيمشى بنفسه معها متشفعا لها .

وعن عبدالله بن شداد عن أبيه رضى الله عنه قال:خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إحدى صلاتى العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا فتقدم النبى صلى الله عليه وسلم فوضعه ثم كبر للصلاة فسجد بين ظهرانى صلاته سجدة أطالها .

---

(١) أى ما الذى أزعجك حتى حضرت فى هذا الوقت ؟

قال أبى : فرفعت رأسى فإذا الصبى على ظهر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ساجد فرجعت إلى سجودى .

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قيل : يا رسول الله ، إنك سجدت بين ظهرانى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك ؟

قال : كل ذلك لم يكن ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته ، أخرجه النسائى .

وعن بريدة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين وعليهما قيصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما ثم أخذ فى الخطبة . أخرجه الأربعة .

وعن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال : إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه . أخرجه الشيخان عن أنس .

إن النبى صلى الله عليه وسلم - من فرط رقة قلبه - قطع خطبته - ونزل من على المنبر فاحتمل ولديه وأجلسهما بين يديه ومن زيادة لطفه وشدة عطفه كان يطيل السجود وابن بنته راكب عليه ، لئلا يقطع عليه لذته ومتعته، وكان يخفف صلاته حين يسمع بكاء طفل رحمة به وخوفا من قلق أمه .

وفى كثير من التشاريع كان النبى صلى الله عليه وسلم يراعى حال أمته فلا يكلفها شططا ولا يرهقها عسرا .

عن عائشة قالت : ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرين إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه وما انتقم لنفسه من شىء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله . أخرجه الشيخان ومالك وأبو داود .

وعن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» أخرجه الشيخان .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم أن يصلوا هكذا» ـ يعنى العشاء نصف الليل أخرجه أحمد والبخارى .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد فصلى بصلاته ناس كثير ثم صلى من القابلة فكثروا ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة فلم يخرج إليهم فلما أصبح قال «قد رأيت صنيعكم فلم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم وذلك فى رمضان» أخرجه الستة إلا الترمذى .

وعن أبي موسى الأشعرى قال : دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبى صلى الله عليه وسلم فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها مالك ؟ مافى قريش من رجل أغنى من بعلك .

قالت : مالنا منه شىء أما نهاره فصائم وأما ليله فقائم .

فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فذكرن ذلك له قال فلقيه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ياعثمان : أمالك فى أسوة ؟ قال : وما ذاك يارسول الله ؟ فداك أبى وأمى ، فقال : أما أنت فتقوم بالليل وتصوم بالنهار وإن لأهلك عليك حقاً وإن لجسدك عليك حقاً فصل ونم وصم وأفطر .

قال فأتتهم المرأة بعد ذلك عطرة كأنها عروس فقلن لها : مه . قالت : أصابنا ما أصاب الناس ؛ رواه أبو يعلى والطبرانى .

هذه الأحاديث التى قدمناها تبين إلى أى مدى كان يحرص عليه الصلاة والسلام على الرفق بأمته فهو فى كل حين يراعى ظروف أتباعه ويتوقى كل مايشق عليهم ويدعوهم إلى الاعتدال فى السلوك ويحذرهم من الإفراط والتفريط

رحمة بهم وإشفاقا عليهم ، وتفاديا لأن يتعرضوا لداء الكبت اللعين ، أو الانحلال المهين .

يحذرهم أن يغالوا فى العبادة وينبههم إلى أن الإسلام دين وسط يعترف لذوى الحقوق بحقوقهم ويوصى بإعطاء كل ذى حق حقه للزوجة حق لابد أن تأخذه ، وللغرائز البشرية وفى مقدمتها الغريزة الجنسية مطالب لابد من من الوفاء بها فى حدود الاعتدال وكذلك للجسم والعقل وللروح وللأهل وللمجتمع حقوق لابد من تأديتها بالتمام والكمال .

على هذا الأساس الواعى الراسخ جاءت تعاليم الإسلام تتشبع بالرحمة ، سدى ولحمة ، تتحاشى التعسير ، وتقوم على التيسير ، وتأمل جملة أخرى من الأحاديث تشع نورا وتفوح عطرا ، وتفيض يسرا .

عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نعس أحدكم وهو يصلى فلينصرف فلينم حتى يعلم مايقول » أخرجه البخارى وأحمد النسائى .

وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء ولا يعجل حتى يفرغ منه » أخرجه الشيخان .

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم » أخرجه الشيخان .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أم أحدكم الناس فليخفف فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء » أخرجه الشيخان .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أدرك شيخا يمشى بين ابنيه يتوكأ عليهما فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ماشأن هذا ؟ قال ابناه يارسول الله

كان عليه نذر فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اركب أيها الشيخ فإن الله غني عنك وعن نذرك » أخرجه مسلم .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم في الشمس فسأل عنه فقالوا : هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ويصوم ولا يفطر ولا يستظل ولا يتكلم ، فقال : « مروه فليستظل وليتكلم وليتم صومه » أخرجه البخاري ومالك وأبو داود كما في التيسير ج ٤ ص ٢٤٥ .

وعن عمران بن حصين قال : كانت لي بواسير فسألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فقال : « صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب » أخرجه البخاري والأربعة .

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه » أخرجه الخمسة إلا النسائي .

وعن جابر قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح إلى مكة في رمضان فصام حتى كراع الغميم فصام الناس ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس ثم شرب فقيل له بعد ذلك إن بعض الناس قد صام فقال : « أولئك العصاة أولئك العصاة » أخرجه مسلم والترمذي .

وعن أنس رضي الله عنه قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فمنا الصائم ومنا المفطر فنزلنا منزلا في يوم حار أكثرنا ظلا صاحب الكساء ومنا من يتقي الشمس بيده فسقط الصوام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال صلى الله عليه وسلم : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر » أخرجه الشيخان والنسائي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : هلكت قال : ما أهلكك ؟ قال: وقعت على أهلي وأنا صائم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال لا، قال: فهل تستطيع

أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال: لا، قال: هل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال: لا .

قال فجلس فبينا نحن على ذلك إذ أتى صلى الله عليه وسلم بعرق (١) فيه تمر فقال : أين السائل ؟ قال : أنا . قال : خذ هذا فتصدق به قال : أعلى أفقر منى ؟ فوالله ما بين لابتيها (٢) أهل بيت أفقر منى فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أطعمه أهلك . أخرجه الستة إلا النسائى .

هذه الأحاديث تكشف لنا مدى الرحمة التى أرسلها الله ، وتمثلت فى نبيه ومصطفاه وظهرت آثارها فى شرعه وهداه .

وأخيرا أضع أمام القارىء حديثا رائعا تبدو فيه رحمة المصطفى بارزة المعالم واضحة القسمات ، جلية السمات .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : دخل أعرابى المسجد فصلى ركعتين ثم قال : اللهم ارحمنى ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم فقال : لقد تحجرت واسعا ثم لم يلبث أن بال فى المسجد فأسرع الناس - إليه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين هريقوا عليه دلوا من ماء أو سجلا من ماء » رواه البخارى وفرقه فى موضعين : السجل : الدلو .

وفى رواية أخرى للبخارى « فزجره الناس » وفى رواية لمسلم « فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مه مه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتزرموه (٣) دعوه ، فتركوه حتى بال » وفى رواية لابن ماجه « فقال الأعرابى بعد أن فقه فقام إلى بأبى وأمى صلى الله عليه وسلم فلم يؤنب ولم يسب فقال : إن هذا المسجد لايبال فيه إنما بنى لذكر الله والصلاة » .

---

(١) العرق : بفتح العين والراء : الزنبيل .
(٢) اللابة هى الحرة وهى الأرض ذات الحجارة السود والمدينة لابتان .
(٣) لاتزرموه : لاتقطعوا عليه بوله .

روعة هذا الحديث لاتدانيها روعة إنه يكشف لنا السماحة التى أودعت فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم بأجلى معانيها ويبرز الرحمة التى تشبع بها فؤاده فى أبهى حللها وأبدع صورها ويرينا حكمة النبى صلى الله عليه وسلم فى معالجته للأخطاء .

أعرابى فيه جفوة البادية وسذاجتها أقبل على المسجد فصلى ثم دعا ربه لنفسه ولنبيه ولو وقف عند هذا الحد لكان دعاؤه مستساغا لكنه دعا على غيره ألا تمسهم رحمة الله ويخطىء هنا خطأ بينا ويستدعيه النبى صلى الله عليه وسلم مبينا له أن رحمة الله سبحانه وسعت كل شىء فما ينبغى أن يحجر واسعا .

ويقوم الرجل على الفور فيبول فى المسجد ، فينهره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصيحون فى وجهه ويبتسم النبى صلى الله عليه وسلم لهم ويأمرهم وينهاهم « لاتقطعوا على الرجل بولته ، دعوه حتى يفرغ احفظوا على الرجل صحته » .

فاذا فرغ الرجل لم يكلفه النبى صلى الله عليه وسلم بل كلف غيره بأن يطهر محل بوله لكنه دعاه وأرشده إلى الصواب فى أناة حتى جعله يود لو يفديه بأبيه وأمه لما أحس به من كرمه .

أن رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم من رحمة الله الذى أرسله وهل تقف رحمة الله عند بنى الإنسان لاتتعداهم ؟ لا أنها وسعت كل شىء ورحمة الرسول كذلك تشمل كل ذى روح وتغمر كل حى ، مصداقا لقوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

استمع إليه وهو يسكب هذا النصح الرشيد فى أذن أتباعه المؤمنين به :

بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه الحر فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا

الكلب من العطش مثل الذى كان منى فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له .

قالوا : يارسول الله إن لنا فى البهائم لأجرا فقال : فى كل كبد رطبة أجر . رواه مالك والشيخان وابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة إلا أنه قال : فشكر الله له فأدخله الجنة .

واستمع إليه وهو يلقى على أصحابه هذا الوعيد محذرا « عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعا فدخلت فيها النار قال الله : لاأنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض » أخرجه الشيخان وأحمد عن ابن عمر .

إن الجنة تتهيأ لاستقبال محسن تعطف على كلب وكذلك النار حجز فيها مكان لامرأة أساءت إلى هرة .

إنها عدالة الله ، وعدالته تحاسب على الصغير حتى الذرة (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ورحمة الله لايطمع فيها إلا أولئك الرحماء ، ومن لايرحم لايرحم ـ كما فى حديث رواه الشيخان وأحمد عن أبى هريرة .

مرة أخرى نصغى إلى النبى صلى الله عليـــه وسلم وهو يقدم لنا هذه الإرشادات .

عن سهل بن الحنظلية قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لصق ظهره ببطنه فقال : « اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة » رواه أبو داود .

وعن يعلى بن أمية قال : بينا نحن نسير ذات يوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نحن ببعير قال فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم سما برأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يايعلى انطلق إلى أهل هذا

البعير فاشتره منهم وإن لم يبيعوك فقل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوصيكم به قالوا : وايم الله لقد نضحنا عليه عشرين سنة وإن كنا لنريد أن ننحره بالغداة فأما إذا وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنا لانألوه خيرا ، رواه الطبرانى وإسناده حسن .

وعن سواد بن الربيع قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فسألته فأمر لى بذود ثم قال لى « إذا رحت إلى بيتك فرهم فليحسنوا أعمالهم ومرهم فليقلموا أظفارهم لايخدشوا بها ضروع مواشيهم إذا حلبوا » أخرجه أحمد .

وعن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضرب فى الوجه وعن الوشم فى الوجه » أخرجه مسلم .

وعن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لاتتخذوا شيئا فيه الروح غرضا » أخرجه مسلم .

وعن شداد بن أوس قال قال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » أخرجه الخمسة إلا البخارى عن شداد ابن أوس .

إن الوصايا والأعمال الرحيمة لاتصدر إلا من قلب رحيم ، والقلب الرحيم ما هو إلا من صنع الله الرحمن الرحيم .

صـــدقه

ومن أبرز صفاته وسماته التى كان يتحلى بها عليه الصلاة والسلام صفة الصدق فقد طبع عليه منذ نشأته وكان وجدانه ولسانه كلاهما ينضح بما ارتسم فى نقيبته .

لهذا تعذر على العرب أن يأخذوا عليه كذبة يعيرونه بها أو يتهمونه من أجلها .

حين صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا نادى بطون قريش وقال لهم « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا . نعم . ماجربنا عليك إلا صدقا » .

وكذلك قال ـ أبو سفيان لهرقل عندما سأله عن النبى صلى الله عليه وسلم فقال هرقل : سألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

هاتان الواقعتان أخرجهما البخارى عن ابن عباس .

وأخرج ابن إسحق والبيهقى عن الزهرى وابن جرير عن السدى والطبرانى فى الأوسط أن الأخنس بن شريق لقى أبا جهل يوم بدر فقال له ياأبا الحكم ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا تخبرنى عن محمد صادق أم كاذب فقال أبو جهل والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط . هذه شهادات من أعدائه بصدقه واعترافات منهم بفضله والفضل ماشهدت به الأعداء .

نعم لقد تحلى بالصدق ، وبقيت صفة الصدق تلازمه طول حياته وبعد بعثته .

نلمس هذا فى حديث أخرجه البخارى عن المغيرة بن شعبة قال : كسفت

الشمس على عهد رسول صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله » .

لم يشأ النبي صلى الله عليه وسلم أن يسايرهم فى زعمهم ويجاريهم فى وهمهم ، لينال هو وابنه قداسة على حساب هذا الزعم أو ليحتلا مكانة بين الناس فى ظلال هذا الوهم .

ولكنه أعلن الحقيقة فى وضوح متبرئا من الخداع والتضليل ، مذكرا للناس بالله ، داعياً إلى الاتصال بمن برأ الكون وسواه .

وهكذا ينتهز كل فرصة ويغتنم كل ظرف ليتابع رسالته فيربط الناس بربهم ويصلهم بخالقهم .

وتتجلى طبيعة النبى صلى الله عليه وسلم وقد تألق فى جوانبها نور الصدق فاهتدت به وهدت غيرها إليه تتجلى طبيعته هذه فى مجموعة الأحاديث التى رويت عنه ونقتبس منها :

عن عبادة بن الصامت أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة اصدقوا إذا حدثتم وأوفوا إذا وعدتم وأدوا إذا ائتمنتم واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، والفجور يهدى إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » أخرجه الشيخان .

وعن سفيان بن أسيد الحضرمى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول : كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له به كاذب . أخرجه أبو داود .

وعن عبدالله بن عامر رضى الله عنه قال : « دعتنى أمى يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد فى بيتنا فقالت : هاتعال أعطك فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأردت أن تعطيه ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمرا فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة» أخرجه أبو داود والبيهقى .

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب ويل له ، ويل له » أخرجه أبو دواد والترمذى وحسنه .

وحسبك أيها القارىء دليلا على صدقه هذه الآيات التى نزلت عليه تعاتبه فيما اتجه إليه وقد تلاها علينا كما تلا بقية الآيات ، فلم ينقص منها حرفا ولم يزد عليها حرفا فمن هذه الآيات : (ياأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم) (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) والحديث عن آيات العتاب تعرضنا له قبل فلا نطيل الحديث عنه .

حلمه وعفوه

كذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم حليما أبلغ مايكون الحلم ، صابرا أجمل مايكون الصبر ، عفوا أحسن مايكون العفو .

كان واسع الصدر مالكا لنفسه لايغضب إلا أن تنتهك حرمة الله والشواهد على ذلك كثيرة ، قال تعالى (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) .

وأخرج الشيخان عن عائشة قالت : ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله .

وروى البيهقى فى شعب الإيمان أن النبى صلى الله عليه وسلم لما كسرت رباعتيه وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شديداً وقالوا لو دعوت عليهم فقال : « إنى لم أبعث لعانا ولكنى بعثت داعياً ورحمة اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون » .

وأخرج البيهقى عن أنس رضى الله عنه قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه برد غليظ الحاشية فجبذه أعرابى بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد فى صفحة عاتقه ثم قال : يامحمد احمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ثم قال : ويقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى ؟ قال : لا قال : لم ؟ قال : لأنك لاتكافىء بالسيئة السيئة .

فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى آخر تمر .

وعن جابر بن عبد الله قال : أتى رجل رسول الله بالجعرانة منصرفه من حنين وفى ثوب بلال فضة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقبض منها يعطى الناس فقال : يامحمد أعدل .

قال : ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل .

فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعنى يارسول الله فأقتل هذا المنافق .

فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى ، أخرجه البخارى ومسلم واللفظ له .

وأخرج الطبرانى بسند صحيح عن أبى حميد الساعدى قال استسلف النبى صلى الله عليه وسلم من رجل تمر لون (١) فلما جاءه يتقاضاه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس عندنا اليوم من شىء فلو تأخرت عنا حتى يأتينا شىء فنقضيك .

فقال الرجل واغدراه فتذمر له عمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه ياعمر فإن لصاحب الحق مقالا انطلق إلى خولة بنت حكيم الأنصارية فالتمسوا عندها تمرا .

فانطلقوا فقالت : يارسول الله (٢) ماعندى إلا تمر ذخيرة ، وهو العجوة ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خذوا فاقضوا .

فلما قضوه — أقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : استوفيت ؟ قال نعم قد أوفيت وطبت .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن خيار عباد الله من هذه الأمة المطيبون مجمع الزوائد ج ٤ ص ١٤٠ ، وأخرج ابن سعد فى الطبقات ج ١ ص ٣٦١ عن الزهرى أن يهوديا قال : ما كان بقى شىء من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة إلا رأيته إلا الحلم وإنى أسلفته ثلاثين دينارا إلى أجل معلوم .

فتركته حتى إذا بقى من الأجل يوم أتيته فقلت : يامحمد اقض حقى فإنكم معاشر بنى عبد المطلب مطل .

---

(١) اللون : نوع من النخل .
(٢) هكذا فى المجمع ولعل الأصل (بلغوا رسول الله . . .) .

فقال عمر : يا يهودى الخبيث أما والله لولا مكانه لضربت الذى فيه عيناك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غفر الله لك يا أبا حفص نحن كنا إلى غير هذا منك أحوج إلى أن تكون أمرتنى بقضاء ما على وهو إلى أن تكون أعنته فى قضاء حقه أحوج .

قال : فلم يزده جهلى عليه إلا حلما قال : يايهودى إنما يحل حقك غدا .

ثم قال : يا أبا حفص إذهب به إلى الحائط الذى كان سأل أول يوم فإن رضيه فأعطه كذا وكذا صاعا وزده لما قلت له كذا وكذا صاعا فإن لم يرض فأعطه ذلك من حائط كذا وكذا .

فأتى بى الحائط فرضى تمره فأعطاه ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أمره من الزيادة .

قال فلما قبض اليهودى تمره قال أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ماحملنى على مارأيتنى صنعت ياعمر ؟ إلا أنى قد كنت رأيت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفته فى التوارة كلها إلا الحلم فاختبرت حلمه اليوم فوجدته على ما وصف فى التوارة وإنى أشهدك أن هذا التمر وشطر مالى فى فقراء المسلمين فقال عمر فقلت أو بعضهم — فقال أو بعضهم .

قال : وأسلم أهل بيت اليهودى كلهم إلا شيخا كان ابن مائة سنة فعسا على الكفر أى صلب وثبت عليه .

وأخرج أحمد والطبرانى بسند صحيح أنه صلى الله عليه وسلم جىء إليه برجل فقيل له هذا أراد أن يقتلك .

فقال له صلى الله عليه وسلم لن تراع لن تراع ولو أردت ذلك لم تسلط على .

وأخرج مسلم والترمذى وأبو داود والنسائى عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم .

وأخرج البخارى ومسلم والترمذى عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزاة — قال سفيان يرون أنها غزوة بنى المصطلق(١) .

فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال المهاجرى يالمهاجرين وقال الأنصارى يالأنصار .

فسمع ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : مابال دعوى الجاهلية ؟ .

قالوا رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار فقال النبى صلى الله عليه وسلم دعوها فانها منتنة .

فسمع ذلك عبد الله بن أبى فقال أوقد فعلوها والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن عزالأ منها الأذل .

فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال عمر يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم دعه لايتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه .

زاد الترمذى فقال ابنه عبد الله والله لاتنقلب حتى تقر أنك الذليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ففعل ، الدر المنثور ج ٦ ص ٢٢٥ وفتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٢٣٢ بخارى ج ٦ ص ١٩١ ومسلم ج ٤ ص ١٩٩٨ .

وفى عيون الأثر ج ٢ ص ٩٤ : بلغ عبد الله بن عبدالله بن أبى الذى كان من أمر أبيه فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن عبدالله أتى رسول الله صلى الله

---

(١) كسع الرجل : ضرب عجيزته ودبره بيد أو رجل أو غيرهما .

عليه وسلم فقال : يا رسول الله أنه قد بلغنى أنك تريدقتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه فإن كنت فاعلا فرنى فأنا أحمل لك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ماكان بها من رجل أبر بوالده منى إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نترفق به ونحسن صحبته مابقى معنا وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم كيف ترى ياعمر ؟ أما والله لوقتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته .

قال عمر قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

وفى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٦٦١ : عن عروة بن الزبير قال : فذكر أصحاب القليب ومصابهم .

فقال صفوان : والله إن فى العيش بعدهم خير قال له عمير : صدقت والله أما والله لولادين على ليس له عندى قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى قبلهم علة : ابنى أسير فى أيديهم .

قال : فاغتنمها صفوان وقال : على دينك أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم مابقوا ، لايسعنى شىء ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكتم شأنى وشأنك قال : أفعل . قال ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم ثم انطلق حتى قدم المدينة .

فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن

وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف فقال : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ماجاء إلا بشر وهو الذى حرش ، أفسد ، بيننا ، وحزرنا ، قدر عددنا تخمينا ، للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبى الله ، عمير ابن وهب قد جاء متوشحا سيفه . قال : فأدخله على .

قال : فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها . وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار : ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال : أرسله ياعمر ادن ياعمير .

فدنا ثم قال : أنعموا صباحا وكانت تحية الجاهلية بينهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة .

فقال : أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد .

قال : فما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه .

قال : فمابال السيف فى عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ؟ .

قال : أصدقنى ، ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك .

قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش . ثم قلت لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك .

قال عمير : أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذب بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما يتنزل عليك من الوحى وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق ثم شهد شهادة الحق .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقهوا أخاكم فى دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره ففعلوا .

ثم قال : يارسول الله إنى كنت جاهدا على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دين الله عزوجل وأنا أحب أن تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم وإلى الإسلام لعل الله يهديهم وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم .

قال فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلحق بمكة وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول : أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر .

وكان صفوان يسأل عن الركبان حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه فحلف ألا يكلمه أبدا ولا ينفعه بنفع أبدا .

ويروى الطبرانى بسند رجاله رجال الصحيح قصة إسلام أبى سفيان وهو الذى ظل طول حياته حربا على الإسلام ونبى الإسلام والمؤمنين بالإسلام فيذكر تعرف العباس على أبى سفيان وهو خارج ليلا يتجسس الأخبار للكفار .

فقال له العباس : ويحك يا أبا سفيان هـذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس واصباح قريش والله .

قال : فما الحيلة فداك أبى وأمى قال قلت : لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب معى هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك .

قال : فركب خلفى . . وحركت به فكلما مررت بنار من نيران المسلمين

قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ .

وقام إلى فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة قال : أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد .

ثم خرج يشتدنحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة الرجل البطىء .

فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عمر فقال : يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعنى فلأضرب عنقه .

فقلت : يارسول الله إنى أجرته ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لا والله لايناجيه الليلة رجل دونى .

قال : فلما أكثر عمر فى شأنه قلت مهلا ياعمر . أما والله أن لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ولكنك عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف .

فقال : مهلا يا عباس والله لإسلامك يوم أسلمت أحب إلى من إسلام أبى لو أسلم وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب به إلى رحلك ياعباس فإذا أصبحت فأتنى به فذهبت به إلى رحلى فبات عندى .

فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله ؟ .

قال : بأبى أنت وأمى ما أكرمك وأحلمك وأوصلك لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئا .

قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ .

قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه والله فإن فى النفس منها شيئا حتى الآن .

قال العباس : ويحك يا أبا سفيان أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن يضرب عنقك .

قال فشهد شهادة الحق وأسلم قلت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئا .

قال : نعم . من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن .

وفى سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤١٢ فى فتح مكة - عن ابن إسحق قال حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا معشر قريش ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وفى السيرة ص ٤١٣ قال ابن هشام : وحدثنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذن وأبو سفيان ابن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة .

فقال عتاب بن أسيد : لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه .

فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته .

فقال أبو سفيان : لاأقول شيئا لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى .

فخرج عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قد علمت الذى قلتم ثم ذكر ذلك لهم .

فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك .

وفيها ص ٤١٧ : وحدثني أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح فلما دنا منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يارسول الله .

قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لاشيء كنت أذكر الله .

قال : فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : استغفر الله ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه .

فكان فضالة يقول: والله مارفع يده عن صدري حتى مامن خلق الله شيء أحب إلي منه . وفي صحيح البخاري جـ ٥ ص ٢١٤ كتاب المغازي باب وفد بني حنيفة .

عن أبي هريرة قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد .

فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ماعندك ياثمامة ؟ فقال عندي خير ، يامحمد أن تقتلني[1] تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل منه ماشئت حتى كان الغد .

ثم قال له ماعندك ياثمامة ؟ قال : ماقلت لك . إن تنعم : تنعم على شاكر فتركه .

حتى كان بعد الغد فقال : ماعندك ياثمامة ؟ فقال : عندي ماقلت لك .

فقال : أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نجل[2] قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل

---

(١) أي إن تقتل من عليه دم مطلوب به وهو مستحق عليه فلا عيب عليك في قتله .

(٢) نجل : ماء ينز من الأرض .

المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله يامحمد والله ماكان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى والله ماكان من دين أبغض إلى من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلى والله ماكان من بلد أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلى وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟

فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت قال لا . ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى صلى الله عليه وسلم.

وفى السيرة ص ٤١٧ عن عروة بن الزبير قال خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن .

فقال عمير بن وهب : يانبى الله إن صفوان بن أمية سيد قومه وقد خرج هاربا منك ليقذف نفسه فى البحر فأمنه صلى الله عليه وسلم قال : هو آمن .

قال : يارسول الله فأعطنى آية يعرف بها أمانك فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمامته التى دخل فيها مكة .

فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب فى البحر فقال: ياصفوان فداك أبى وأمى الله الله فى نفسك أن تهلكها فهذا أمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جئتك به .

قال : ويحك أغرب عنى فلا تكلمنى قال أى صفوان : فداك أبى وأمى أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ، ابن عمك عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك .

قال : إنى أخافه على نفسى قال : هو أحلم من ذاك وأكرم .

فرجع معه حتى وقف به على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمنتنى قال صدق ، قال : فاجعلنى فيه بالخيار شهرين قال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر .

وأخرج الطبراني كما في مجمع الزوائد جـ ٩ صـ ٣٨٥ عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال :

عكرمة بن أبي جهل بن هشام ليس له عقب وكان خرج هارباً يوم الفتح حتى استأمنت له زوجته من النبي صلى الله عليه وسلم وهي أم حكيم بنت هشام أمنته ، أدركته باليمن فردته إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قام إليه فاعتنقه وقال مرحبا بالراكب المهاجر ، ونحوه في الموطأ بشرح الزرقاني جـ٣ صـ ٨ .

وأخرج الطبراني أيضاً كما في مجمع الزوائد جـ ٩ صـ ٣٩٢ بسنده إلى ابن إسحق قصة إسلام كعب بن زهير ، وروى ما نقل عنه من هجو النبي صلى الله عليه وسلم وكيف ضاقت عليه الأرض بما رحبت .

ثم قال : فلما لم يجد من شيء بدا قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر خوفه وإرجاف الوشاة به .

ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة — كما ذكر لي — فغدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى الصبح فصلى مع الناس ثم أشار له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقم إليه فاستأمنه .

فذكر لي أنه قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وضع يده في يده وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفه فقال : يارسول الله إن كعب بن زهير جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، فقال : يارسول الله أنا كعب ابن زهير .. فقال قصيدته التي قالها حين قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مما قال :

وقال كل صديق كنت آمله لاألهينك[1] إنى عنك مشغول
فقلت : خلوا سبيلى لا أبا لكم فكل ماقدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء[2] محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك[3] الذى أعطاك نافلة[4] ال قرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لاتأخذنى بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت فى الأقاويل
إن الرسول لنور يستضاء به مهند[5] من سيوف الله مسلول

وأخرج البيهقى ج ٤ ص ٨٥ عن جابر قال : قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم محارب وغطفان بنخل .

فرأوا من المسلمين غرة فجاء رجل منهم يقال له غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف وقال : من يمنعك منى ؟

قال : الله ، فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : من يمنعك منى ؟ فقال : كن خير آخذ .

قال : تشهد أن لا إله إلا الله قال : لا ، ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك :

فخلى سبيله فأتى أصحابه وقال جئتكم من عند خير الناس وهذه الرواية أخرجها الشيخان باختصار كما فى تيسير الوصول ج ٤ ص ٢١٨ .

---

(١) لاأشغلك عما أنت فيه من الخوف والفزع بأن أسهل عليك فاعمل لنفسك لا أغنى عنك شيئا . (٢) الآلة الحدباء : النعش .
(٣) هداك : زادك هدى ، أو هداك للصفح عنى .
(٤) النافلة : الزيادة والقرآن عطية زائدة على النبوة .
(٥) مهند : سيف مطبوع فى الهند وسيوف الهند قديما أحسن السيوف . مسلول : مخرج من غمده .

هذه الوقائع التى ذكرناها تشهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بسلامة القلب وصفاء النفس وسعة الصدر وشدة التحمل وحسن السياسة وأجتذاب القلوب ، بالحلم والعفو والإحسان إلى من أساءوا إليه تنفيذا لقول الله تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

وفاؤه

والوفاء خلق رفيع لا يتخلق به إلا من حسنت سيرته ، وصلحت سريرته ، ومن أحق من الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يتخلق به ؟

لقد كان وفيا بعهده ، صادقا فى وعده وسنضرب بعض الأمثلة التى تثبت ذلك وتؤكده .

أخرج مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢١٧٢ عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه .

قالت عائشة : يارسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر .

فقال : ياعائشة أفلا أكون عبدا شكورا .

ماأجمل هـذا الوفاء . إنه وفاء لله وأداء لحق النعمة ومن أولى به من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج مسلم جـ ٣ ص ١٧٨٧ عن حذيفة بن اليمان قال :

ما منعنى أن أشهد بدرا إلا أنى خرجت أنا وأبى : حسيل قال : فأخذنا كفار قريش . قالوا : إنكم تريدون محمـــدا ؟ فقلنا : مانريده . مانريد إلا المدينة .

فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه .

فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر فقال انصرفا ، نفى لهم بعدهم ، ونستعين الله عليهم .

درس أعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه يعلمهم أن الوفاء بالعهد لازم ولو كان مع عدو لا يؤمن بالإسلام ولا يأمن الإسلام جانبه .

وإذا كان الوفاء جميلا فى وقت السلم ، فما أجمله فى وقت الحرب إنه إعلان عن الوفاء المتأصل فى طبيعة الإسلام ونبى الإسلام عليه الصلاة والسلام .

ولعل من أروع مظاهر الوفاء بالعهد ماحدث فى صلح الحديبية .

روى البخارى فى باب الصلح مع المشركين جـ ٣ صـ ٢٤٢ عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال :

صالح النبى صلى الله عليه وسلم المشركين يوم الحديبية على ثلاثة أشياء :

على أن من أتاه من المشركين رده إليهم ، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم بها ثلاثة أيام ولا يدخلها إلا بجلبان[1] السلاح السيف والقوس ونحوه فجاء أبو جندل يحجل فى قيوده فرده إليهم .

قال ابن هشام جـ ٢ صـ ٣١٨ : وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا » .

وفى البخارى فى كتاب الشروط جـ ٣ صـ ٢٥٧ : ثم رجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم .

---

(١) أى أوعية السلاح ، شبه الجراب من الادم يوضع فيه السيف مغمودا .

فأرسلوا فى طلبه رجلين فقالوا العهد الذى جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين .

فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم .

فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إنى لأرى سيفك هذا يافلان جيدا فاستله الآخر .

فقال : أجل والله إنه لجيد لقد جربت به ثم جربت .

فقال أبو بصير أرنى أنظر إليـــه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة .

فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه لقد رأى هذا ذعرا .

فلما انتهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : قتل والله صاحبى وإنى لمقتول .

فجاء أبو بصـــير فقال : يانبى الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتنى إليهم ثم أنجانى الله منهم .

قال النبى صلى الله عليه وسلم ويل أمه[1] مسعر حرب لوكان له أحد ، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر .

قال وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبى بصير فجعل لايخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله مايسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم .

فأرسلت قريش إلى النبى تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن فأرسل إليهم .

---

(١) (ويل أمه) تعبير يقوله العرب إعجابا بالرجل الداهية ، (مسعر حرب) أى خبير بها ، ماهر فيها ، وقد أعجب به الرسول وتمنى أن يوجد أمثاله بجواره .

لقد حافظ النبي صلى الله عليه وسلم على عهده ، ووفى بشرطه ، وظهر فضل النبي صلى الله عليه وسلم وبعد نظره .

فجاءه الكفار يستغيثون به ، ويعدلون عن رأيهم إلى رأيه ، وقبل النبي صلى الله عليه وسلم طلبهم ليؤكد لهم أنه لايريد بهم سوءا ، ولايطمع فى أموالهم ، وكل ماريده أن يعبد الطريق أمام من يريد الدخول فى الإسلام ليعتنقه من يشاء وهو آمن كل الأمان .

فى سنن أبى داود جـ ٢ ص ٥٩٥ عن عبد الله بن أبى الحمساء قال : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت .

ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو فى مكانه فقال : يافتى لقد شققت على ، أنا ههنا منذ ثلاثة أنتظرك .

أية مشقة تبلغ هـــذه المشقة ؟ لقد تحمل الرسول مرارة الانتظار الطويل المسرف فى الطول حرصا على الوفاء ، واحتراما للوعد .

وفى الاستيعاب لأبى عمر جـ ٤ ص ١٨١٠ بسنده إلى عائشة . قالت :

جاءت عجوز إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا جثامة المزنية .

قال : بل أنت حسانة المزنية . كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت بخير بأبى أنت وأمى يا رسول الله .

فلما خرجت قلت يارسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟ قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان .

مقابلة طيبة ، وملاطفة جميلة ، وتودد محمود ، ووفاء من النبى صلى الله

عليه وسلم لصديقة زوجته التى ماتت أثار عليه زوجته التى تعاشره ، وماذلك بعجيب ممن شرف بالنبوة ، ونال فضل الرسالة .

أخرج أبوداود ج ٢ ص ٦٣ أن عمر بن السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا يوما فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه .

ثم أقبلت أمه فوضع لها نصف ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه .

ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه .

وفى سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٨٨ عن أبى إسحق بسنده أن وفد هوازن أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أسلموا فقالوا : يا رسول الله . إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء مالم يخف عليك فامتن علينا من الله عليك .

قال : وقام رجل من هوازن ثم أحد بنى سعد بن بكر يقال له زهير يكنى أباصرد فقال : يارسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك . ولو أنا (١) ملحنا للحارث بن أبى شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم — كما روى البخارى ج ٥ ص ١٩٥ — : معى من ترون وأحب الحديث إلى أصدقه فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبى وإما المال وقد كنت استأنيت بكم .

---

(١) ملحنا : أرضعنا .

وكان أنظرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف .

قال ابن إسحق ص ٤٨٩ : فقال يارسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا. بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا .

فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا .

فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به .

يقول البخارى فى روايته السابقة : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإن إخوانكم قد جاءونا تائبين وإنى قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مايفىء الله علينا فليفعل .

فقال الناس : قد طيبنا ذلك يارسول الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لاندرى من أذن منكم فى ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم .

فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا .

هكذا طيب النبى صلى الله عليـــه وسلم خاطرهم . ووفى للبن الذى رضعه منهم .

وهكذا طيب خواطر أصحابه ، فرد الأمر إليهم ، ولم يكتف بصيحات

الرضا التي تعالت منهم ، وصمم على أن يعرف حقيقة رأيهم ، وخبيئة نفوسهم ليسترضيهم جميعاً فلا يكون فيهم أحد في قلبه ضغن أو سخيمة .

وتأمل كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يحتال لإرضائهم ويتخير الأسلوب الذي يظفر بكشف ودهم .

إن ماذكرناه لأعظم شاهد على حنكة النبي صلى الله عليه وسلم ومهارته ووفائه ومروءته .

حسن معاشرته

ولا تسل عن حسن معاشرة النبي صلى الله عليه وسلم لكل من يلوذ به فقد بلغ في ذلك مدى لامتجاوز وراءه ولا مرتقى فوقه .

كان صلى الله عليه وسلم يؤنس أصحابه ويتألف قلوبهم ويتودد إليهم ، يلاطفهم إذا حضروا ، ويسأل عنهم إذا غابوا ، ويعودهم إذا مرضوا ، ويواسيهم إذا نكبوا ، ويعينهم إذا احتاجوا ، ولا يواجه أحدا منهم بما يكره .

وبهذا استطاع أن يمتلك قلوبهم ويأسر أفئدتهم ويستحوذ على نواصيهم حتى كان كل منهم على استعداد لأن يفديه بنفسه وأهله وماله .

قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولوكنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) .

في سنن الترمذي ج ١١ ص ٧٢ عن عدي بن حاتم قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد .

فقال القوم : هذا عدي بن حاتم وجئت بغير أمان ولا كتاب فلما دفعت إليه أخذ بيدي وقد كان قال قبل ذلك إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي .

قال فقام فلقيته امرأة وصبي معها فقالا : إن لنا إليك حاجة فقام معهما حتى قضى حاجتهما .

ثم أخذ بيدى حتى أتى بى داره . . . . قال : قلت فإنى جئت مسلما قال: فرأيت وجهه تبسط فرحا .

وعن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كأنى أنظر إليه يطوف خلفها يبكى ودموعه تسيل على لحيته .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعباس : يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لو راجعته قالت : يارسول الله تأمرنى ؟ قال : إنما أنا أشفع . قالت : لاحاجةلىفيه . أخرجه البخارى ج ٧ ص ٦٢ .

وأخرج الترمذى ج ١٣ ص ١١٩ عن عبد الله بن الحارث قال : مارأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أنس قال : ما التقم أحد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فينحى رأسه عنه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه .

وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ولم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدما ركبته بين يدى جليس له .

وفى سنن أبى دواد ج ٢ ص ٦٣٨ عن قيس بن سعد قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله .

قال : فرد سعد ردا خفيا ، قال قيس : قلت : ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ذره [1] يكثر علينا من السلام .

---

(١) ذره : اتركه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد سعد ردا خفيا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام عليكم ورحمة الله .

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعه سعد فقال : يارسول الله إنى كنت أستمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام .

قال : فانصرف معه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس [1] فاشتمل [2] بها .

ثم رفع رسول الله صلى الله عليـــه وسلم يديه وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة .

قال ثم أصاب رسول الله صلى الله عليـه وسـلم من الطعام فلما أراد الانصراف قرب له سعد حمارا قد وطأ عليه بقطيفة .

فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد : يا قيس اصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال قيس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اركب فأبيت ثم قال : إما أن تركب وإما أن تنصرف قال : فانصرفت .

وفى الشمائل للترمذى ص ٣٦٥ عن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل بوجهه وحديثه على أشرالقوم يتألفهم بذلك فكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أنى خير القوم .

قلت : يارسول الله أنا خير أوأبو بكر ؟ قال : أبو بكر فقلت : يارسول الله ، أنا خير أو عمر ؟ فقال : عمر فقلت : يارسول الله أنا خير أو عثمان ؟ فقال : عثمان .

فلما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فصدقنى فلوددت أنى لم أكن سألته .

---

(١) ورس : نبات كالسمسم يصبغ به .
(٢) اشتمل بها : تلفف بها .

وبما يدل على حسن عشرته لزوجاته ما رواه أنس رضى الله عنه قال : بلغ صفية أن حفصة قد قالت : إنها بنت يهودى فبكت .

فدخل عليها النبى صلى الله عليه وسلم وهى تبكى فقال : مايبكيك ؟ قالت قالت لى حفصة : أنت ابنة يهودى .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنك لابنة نبى وإن عمك لنبى وإنك لتحت نبى فبم تفخر عليك ؟ ثم قال : اتقى الله يا حفصة . أخرجه الترمذى وصححه النسائى .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت على غضبى .

قالت : فقلت : من أين تعرف ذلك ؟ فقال : أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين : لاورب محمد وإذا كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم .

قالت : قلت أجل ، والله يارسول الله ماأهجر إلا اسمك أخرجه البخارى .

وعن عائشة قالت : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على باب حجرتى والحبشة يلعبون فى المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسترنى بردائه أنظر إلى لعبهم .

وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق (١) والحراب فإما سألت النبى صلى الله عليه وسلم وإما قال : تشتهين تنظرين فقلت نعم .

فأقامنى وراءه خدى على خده وهو يقول : دونكم يابنى أرفدة (٢) حتى إذا مللت قال : حسبك ؟ قلت : نعم قال : فاذهبى — أخرجه البخارى .

---

(١) الدرق : جمع درقة مثل ثمرة : الترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب .

(٢) أرفدة : بفتح فسكون فكسر لقب للحبشة ، (دونكم) إغراء حذف المغرى به أى عليكم بهذا اللعب .

وعن عائشة قالت : سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته فلبثنا حتى إذا أرهقنى اللحم سابقنى فسبقنى فقال:هذه بتلك أخرجه أحمدأبو داود .

وعن أنس أنهم كانوا يوما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة رضى الله عنها .

ثم أتى بصحفة من بيت أم سلمة فوضعت بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ضعوا أيديكم .

فوضع نبى الله صلى الله عليه وسلم يده ووضعنا أيدينا فأكلنا وعائشة تصنع طعاما عجلته قد رأت الصحفة التى أتى بها .

فلما فرغت من طعامها جاءت به فوضعته ورفعت صفحة أم سلمة فكسرتها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلوا باسم الله غارت أمكن ثم أعطى صحفتها أم سلمة ، وقال : طعام مكان طعام وإناء مكان إناء ، أخرجه الطبرانى .

مزاحه

كان صلى الله عليه وسلم يداعب أصحابه ويمازحهم ولا يقول إلا الحق .

أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى لأمزح ولا أقول إلا حقا » قالوا : إنك تداعبنا يارسول الله ؟ قال : إنى لا أقول إلا حقا » .

ومن هنا أجاب سفيان الثورى حين سئل هل المزاح هجنة ؟ فقال : بل سنة لقوله عليه الصلاة والسلام « إنى لأمزح ولا أقول إلا الحق » ذكره ابن عساكر .

ويروى فى ذلك أحاديث وردت فى كتب السنة منها :

أخرج أحمد والترمذى فى الشمائل عن أنس بن مالك أن رجلا من أهل البادية كان اسمه زاهرا وكان يهدى إلى النبى صلى الله عليه وسلم هدية من البادية فيجهزه النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن زاهرا باديتنا ونحن حاضروه .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يحبه وكان رجلا دميما فأتاه النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره .

فقال : من هذا ؟ أرسلنى فالتفت فعرف النبى صلى الله عليه وسلم فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبى صلى الله عليه وسلم حين عرفه .

فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول : من يشترى هذا العبد ؟ فقال : يارسول الله : إذن والله تجدنى كاسدا فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لكن عند الله لست بكاسد أو قال أنت عند الله غال .

فى سنن أبى داود ج ٢ ص ٥٩٦ : عن أنس أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله : احملنى قال النبى صلى الله عليه وسلم : إنا حاملوك على ولد ناقة قال: وما أصنع بولد الناقة ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟

وفيه عن النعمان بن بشير قال : استأذن أبو بكر « رحمة الله عليه » على النبى صلى الله عليه وسلم فسمع صوت عائشة عالياً .

فلما دخل تناولها ليلطمها وقال : ألا أراك ترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يحجزه وخرج أبو بكر مغضبا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم حين خرج أبو بكر : كيف رأيتنى أنقذتك من الرجل ؟

قال فمكث أبو بكر أياما ثم استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فوجدهما قد اصطلحا فقال لهما : أدخلانى فى سلمكما كما أدخلتمانى فى حربكما فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قد فعلنا قد فعلنا .

وفيه عن عوف بن مالك الأشجعى قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك وهو فى قبة من أدم[1] فسلمت فرد وقال: أدخل . فقلت : أكلى يارسول الله ؟ قال : كلك . فدخلت ، قال عثمان بن أبى العاتكة : إنما قال « أدخل كلى » من صغر القبة .

وفيه عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : ياذا الأذنين - قال أحد رواة الحديث : يعنى يمازحه .

وفى الاستيعاب جـ ٤ صـ ١٥٢٦ لابن عبد البر بسنده عن أم سلمة أن أبابكر خرج تاجراً إلى بصرى ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة وكلاهما بدرى وكان سويبط على الزاد فجاءه نعيمان فقال : أطعمنى فقال : لاحتى يجيء أبو بكر .

وكان نعيمان رجلا مضحاكا مزاحا فقال : لأغيظنك فذهب إلى ناس جلبوا ظهراً فقال : ابتاعوا منى غلاما عربياً فارها وهو ذولسان ولعله يقول: أناحر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لاتفسدوا على غلامى فقالوا: بل نبتاعه منك بعشرة قلائص .

فأقبل بها يسوقها وأقبل بالقوم حتى عقلها ثم قال : دونكم هو هذا فجاء القوم ، فقالوا : قد اشتريناك فقال سويبط هو كاذب أنارجل حر قالوا : قد أخبرنا خبرك فطرحوا الحبل فى رقبته فذهبوا به .

وجاء أبو بكر فأخبر فذهب هو وأصحاب له فردوا القلائص وأخذوه فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من ذلك حولا .

وبالإسناد عن ربيعة بن عثمان صـ ١٥٢٧ قال : جاء أعرابى إلى النبى صلى

---

(١) أدم : مثل قمر بمعنى جلد .

الله عليه وسلم فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه فقال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لنعيمان بن عمرو الأنصارى وكان يقال له النعيمان لو نحرتها فأكلناها فإنا قد قرمنا (١) إلى اللحم ويغرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمنها .

قال : فنحرها النعيمان ثم خرج الأعرابى فرأى راحلته فصاح : واعقراه يامحمد فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فقال : من فعل هذا ؟ قالوا : النعيمان .

فاتبعه يسأل عنه فوجده فى دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى فى خندق وجعل عليه الجريد والسعف فأشار إليه رجل ورفع صوته يقول : مارأيته يارسول الله ، وأشار بأصبعه حيث هو .

فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تغير وجهه بالسعف الذى سقط عليه فقال له : ماحملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلوك على يارسول الله هم الذين أمرونى .

قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح وجهه ويضحك ، قال ثم غرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الزبير بن بكار أن رجلا يقال له نعيمان كان لايدخل المدينة طرفة إلا اشترى منها ثم جاء بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : هاأهديته لك .

فإذا جاء صاحبها يطالب نعيمان بثمنها أحضره إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال: أعط هذا ثمن متاعه فيقول : أولم تهده ؟ فيقول : إنه والله لم يكن عندى ثمنه ولقد أحببت أن تأكله ، فيضحك .

وفى الشمائل ص ٢٥٨ عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن كان

---

(١) القرم : شدة الشهوة إلى اللحم .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير يا أبا عمير مافعل النغير ؟

قال أبو عيسى : وفقه هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمازح وفيه أنه كنى غلاما صغيرا فقال له : يا أبا عمير ، وفيه أنه لا بأس أن يعطى الصبي الطير ليلعب به .

وإنما قال له النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا عمير ما فعل النغير لأنه كان له نغير « فرخ عصفور » يلعب به فمات فحزن الغلام عليه فمازحه النبي صلى الله عليه وسلم .

وفيه ص ٢٦٥ عن الحسن البصرى قال : أتت عجوز النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يدخلنى الجنة فقال : يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز .

قال : فولت تبكى فقال : أخبروها أنها لاتدخلها وهى عجوز إن الله تعالى يقول (إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا) .

وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على على وفاطمة وهما يضحكان فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم سكتا .

فبادرت فاطمة فقالت : بأبى أنت يارسول الله قال هذا : أنا أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك فقلت : بل أنا أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك .

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يابنية لك رقة الولد وعلى أعز على منك . مجمع الزوائد ج ٩ ص ٢٠٢ .

وأخرج أحمد عن عبد الله بن الحارث قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف عبد الله وعبيد الله وكثير بن العباس ويقول : من سبق إلى فله

كذا وكذا فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلزمهم ، مجمع الزوائد جـ ٩ ص ١٧ .

تلك طائفة من الأخبار المروية تشهد بما طبع عليه رسول الله صلى عليه وسلم من أخلاق عالية ، وشمائل عظيمة ، وصفات كريمة ، كانت مضرب الأمثال ، ولا عجب فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه .

عقله

لقد كان صلى الله عليه وسلم حصيف العقل ، واسع الفكر ، بعيد النظر ، ذكى الفؤاد سريع البديهة ، يعالج مايعترضه من مشكلات علاجا يوحى بحكمته الباهرة ودقته الماهرة وفطنته التى لاحد لها .

عن أبى هريرة أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ولد لى غلام أسود . فقال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم قال:ما ألوانها؟قال : حمر ، قال : هل فيها من أورق (١) ؟ قال : نعم ، قال : فأنى ذلك ؟ قال : لعله نزعه عرق قال : فلعل ابنك هذا نزعه . أخرجه البخارى .

لقد ارتاب هذا الأعرابى فى زوجته وتمكن الشك من قلبه وهو يراها تنجب ولدا أسود وليس فى الأب ولا فى أمه سواد ، وذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم يشكو ويقدم إليه شكاته ، ورأى النبى صلى الله عليه وسلم بحكمته أنه لابد من أن يضرب له مثلا يعين على دفع ريبته ، وإزالة شبهته ، واقتنع الرجل وعاد رضى النفس هادىء البال .

---

(١) أورق : أسمر ـ ما فى لونه بياض إلى سواد ، فسواده ليس بحالك لأنه يميل إلى الغبرة .

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يارسول الله ذهب أهل الدثور[1] بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم .

قال : أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون ؟ إن بكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن منكر صدقة وفى بضع[2] أحدكم صدقة .

قالوا : يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته يكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى حلال كان له أجر . أخرجه مسلم .

أرأيت كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم حصيف الفكر واسع العقل قوى الحجة ؟ أرأيت كيف آتاه الله مهارة فى كسب القلوب وجذب النفوس وامتلاك العقول؟ أرأيت كيف كان سريع البديهة بالغ الفطنة راجح الفكرة ؟

وعن أبى أمامة أن فتى من قريش أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا فأقبل القوم عليه وزجروه فقالوا : مه مه .

فقال : ادنه ، فدنا منه قريبا فقال : أتحبه لأمك ؟ قال : لا ، والله جعلنى الله فداك قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، قال : أتحبه لابنتك ؟ قال : لا والله يارسول الله جعلنى الله فداك قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم ، قال : أفتحبه لأختك ؟ قال : لا والله يارسول الله جعلنى الله فداك قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال : أتحبه لعمتك ؟ قال : لا والله يارسول الله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لعماتهم ، قال : أتحبه لخالتك قال : لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم .

---

(١) الدثور : جمع دثر مثل تمر وهو المال الكثير .
(٢) بضع : مباشرة الرجل زوجته .

قال فوضع يده عليه وقال : اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء . رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح كما فى مجمع الزوائد ج ١ ص ١٢٩ .

هذا موقف آخر عالج فيه الرسول مشكلة علاجا ناجحا بفضل صبره ، وسعة صدره وبعد نظره . هذا الفتى رغب فى الزنا وصارح النبى صلى الله عليه وسلم برغبته وهو بين أصحابه فنهروه لكنه لاطفه واستدعاه وناقشه بالحكمة وعرفه أنه «كما يدين يدان» ، عرفه أنه لاينبغى أن يعيش بشهوته يسيء إلى أعراض المجتمع الذى يحيا فيه بل يجب أن يحب للناس مايحبه لنفسه ويكره لهم ما يكرهه لها وطيب خاطر الرجل بدعوة صالحة حازت القبول عند الله فأصبح الرجل بعد ذلك لايحن إلى حرام ولايفكر فيه .

وفى صلح الحديبية رضى - صلى الله عليه وسلم - بهذا الشرط : من أسلم من قريش وذهب إلى محمد يرد إلى قريش ومن كفر من المسلمين وعاد إلى قريش لايرد .

وقال عمر : يا رسول الله : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى قال عمر : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذن ؟ قال : إنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولست أعصيه وهو ناصرى .

ولم يمر وقت طويل حتى ظهرت دلائل حكمة النبى صلى الله عليه وسلم فقد جاء الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم يناشدونه الله والرحم أن يقبل من أسلم منهم بعد أن كونوا فرقة فدائية لاتسمع عن عير لقريش ذاهبة إلى الشام إلا تعرض هؤلاء الفدائيون لها فقتلوا رجالها وأخذوا أموالها .

وانظر إليه فى فتح مكة وهو يأمر أصحابه بأن يوقد كل واحد منهم نارا حتى يثير منظرها الرهيب الرعب فى قلوب الكفار .

وانظر إليه أيضا وهو يأمر العباس بأن يقف مع أبى سفيان فى مكان

ضيق حتى يرى طول الجيش وهو يستعرضه ليفت فى عضده ويوهن من عزمه .

ثم انظر إليه وهو يستخدم عدوه بالأمس « أباسفيان » فى تثبيط أهل مكة فيرضى ميله إلى الفخر إذ يقول: « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

لقد استطاع بهذا أن يكسب قلب أبى سفيان وأن يفتح صدره وأن يتخذ منه نصيرا له فى فتح مكة دون حرب أو ضرب .

وكذلك استطاع أن يميز بين المسالمين والمحاربين فمن دخل داره وأرخى أستاره فهو مسالم آمن ما جعل الله لنا عليه سبيلا .

كمال جسمه

لا تكمل شخصية المرء إلا بكمال جسمه وعقله وخلقه وقد بلغ عليه الصلاة والسلام غاية الكمال فى كل هذا .

وحسبنا ما رواه على كرم الله وجهه قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطويل الممغط [١] ولا بالقصير المتردد [٢] وكان ربعة [٣] من القوم ولم يكن بالجعد [٤] القطط ولا بالسبط كان جعدا رجلا ولم يكن بالمطهم [٥] ولا بالمكلثم وكان فى وجهه تدوير أبيض مشرب [٦] أدعج [٧]

---

(١) المتناهى فى الطول . (٢) المتناهى فى القصر .

(٣) متوسط الطول .

(٤) الجعودة : الالتواء . السبوطة : الاسترسال . أى شعره وسط كما يفيده فى قوله كان جعدا رجلا .

(٥) المطهم المنتفخ الوجه ، المكلثم المدور ، ووجه النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن منتفخا ولا كامل الاستدارة . (٦) أى مختلط بحمرة .

(٧) الدعج شدة سواد السواد وبياض البياض مع سعة العين .

العينين أهدب [١] الأشفار جليل [٢] المشـــاش والكتد أجرد [٣] ذو مسربة [٤] شثن [٥] الكفين والقدمين إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صبب [٦] وإذا التفت التفت معا . بين كتفيه خاتم [٧] النبوة وهو خاتم النبيين أجود الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وألينهم [٨] عريكة وأكرمهم عشرة من رآه بديهة [٩] هابه ومن خالطه معرفة أحبه ويقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله .

وعن الحسن بن علي قال سألت خالي هند بن أبي هالة وكان وصافا عن حلية النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئا أتعلق به فقال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فخما مفخما [١٠] يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر أطول من المربوع وأقصر من المشذب [١١] عظيم الهامة [١٢] رجل الشعر [١٣] أن انفرقت عقيقته [١٤] فرقها وإلا فلا ، يجاوز شعره شحمة

---

(١) أي طويل شعر الأشفار والشفر حرف جفن العين الذي ينبت عليه الرمش .

(٢) جليل : عظيم . المشاش : رءوس العظام . الكتد : مجمع الكتفين .

(٣) أي لم يعم الشعر جميع بدنه .

(٤) له خيط من الشعر على بطنه بين الصدر والسرة .

(٥) غليظهما مع النعومة .

(٦) موضع منحدر .

(٧) قطعة لحم مثل بيضة الحمامة بين كتفيه .

(٨) طبيعة .

(٩) دون خلطة ومعرفة به .

(١٠) عظيما معظما .

(١١) المربوع من الربعة : وهو الوسط والمشذب : المفرط في الطول ، والنبي كان وسطا يميل قليلا إلى الطول .

(١٢) الرأس .

(١٣) في شعره تكسر قليل .

(١٤) شعر الرأس .

أذنيه إذاهو وفره أزهر اللون[١] واسع الجبين[٢] أزج[٣] الحواجب سوابغ[٤] فى غير قرن ، بينهما عرق يدره[٥] الغضب أقنى[٦] العرنين له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم[٧] كث[٨] اللحية سهل[٩] الخدين ضليع[١٠] الفم مفلج[١١] الأسنان دقيق المسربة ،كأن عنقه جيد[١٢] دمية فى صفاء الفضة معتدل الخلق بادن متماسك[١٣] سواء البطن[١٤] والصدر عريض الصدر — بعيد ما بين المنكبين — ضخم الكراديس[١٥] ، أنور المتجرد[١٦] موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط ، عارى الثديين والبطن مما سوى[١٧] ذلك أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر طويل[١٨] الزندين ، رحب[١٩] الراحة ، وشثن الكفين والقدمين، سائل[٢٠] الأطراف

---

(١) أبيض . (٢) المراد : الجبهة .

(٣) حواجبه بالخلقة طويلة دقيقة مستوية .

(٤) سوابغ كوامل فى غير قرن : من غير أن يلتقى الحاجبان .

(٥) يحركه .

(٦) قصبة أنفه دقيقة طويلة وأرنبته طويلة مع حدب فى وسطه .

(٧) الشمم : ارتفاع قصبة الأنف مع استواء أعلاها وعلو الأرنبة قليلا .

(٨) غزير شعرها . (٩) غير مرتفعهما .

(١٠) عظيم الفم وواسعه . (١١) منفرجها .

(١٢) أى عنقه كصورة من الشمع أو العاج ووجه الشبه : الاستواء والطول والاعتدال والكمال .

(١٣) سمين مع اعتدال السمنة ولحمه غير مسترخ .

(١٤) بطنه كصدره فى الارتفاع . (١٥) عظيم رءوس العظام .

(١٦) كل عضو لاشعر فيه أبيض . (١٧) ليس فيهما شعر غيره .

(١٨) الزند : من الذراع ما يلى الكف وهما زندان الكوع وهو طرف الزند الذى يلى الابهام والكرسوع طرف الزند الذى يلى الخنصر .

(١٩) كفه واسع وهو كريم فالسعة حسية ومعنوية .

(٢٠) طويل الأصابع من غير تكسر .

أوقال شائل الأطراف ، خمصان الأخمصين[١] مسيح [٢] القدمين ينبو عنهما الماء إذا زال زال [٣] قلعا ، يخطو تكفيا ويمشى هونا ذريع [٤] المشية إذا مشى ينحط من صبب وإذا التفت التفت جميعا خافض الطرف [٥] نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل[٦] نظره الملاحظة يسوق أصحابه ، ويبدر [٧] من لقى بالسلام . أخرجهما الترمذى فى الشمائل .

وصف حال النبى صلى الله عليه وسلم ومنطقه

عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : سألت خالى هند بن أبى هالة وكان وصافا فقلت : صف لى منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل [٨] الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لايتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى ، ويتكلم بجوامع [٩] الكلم ، كلامه

---

(١) أى وسط قدميه مرتفع عن الأرض .

(٢) أملسهما فلا تشقق فيهما .

(٣) يقلع رجليه بقوة فى المشى . (٤) واسع الخطوة .

(٥) يغض بصره . (٦) ينظر بلحاظ العين وهو طرفها مما يلى الصدغ .

(٧) يسبقه بالسلام .

(٨) المراد الاهتمام والتيقظ أو حزنه من شدة شفقته على أمته وملاحظته عاقبتها ، وخوفه من تقصيرها .

(٩) جوامع الكلم : الكلمات القليلة ذات المعانى الكثيرة مثل (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر مانهى الله عنه) أخرجه البخارى عن ابن عمر ، ومثل المسلمون تتكافأدماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم أخرجه أبوداود عن ابن عمرو ومثل « الناس معادن » أخرجه الشيخان عن =

فصل (١) لافضول ولاتقصير ، ليس بالجافى (٢) ولا بالمهين ، يعظم النعمة وإن دقت (٣) ، لايذم منها شيئا ، غير أنه لم يكن يذم ذواقا (٤) ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ماكان لها ، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولاينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها (٥) ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، وإذا غضب أعرض (٦) وأشاح وإذا فرح غض طرفه جل ضحكه التبسم يفتر (٧) عن مثل حب الغمام ، أخرجه الترمذى فى الشمائل صـ ٢٢٧ .

= أبى هريرة ، ومثل « الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما » أخرجه الطبرانى عن ابن مسعود ومثل « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة والتودد إلى الناس نصف العقل وحسن السؤال نصف العمل » أخرجه الطبرانى فى مكارم الأخلاق والبيهقى عن ابن عمر .

(١) مفصول جملة وفاصل بين الحق والباطل .
(٢) ليس غليظ الطبع ولا حقيرا .
(٣) وإن صغرت .
(٤) مايذاق أكلا أو شرابا .
(٥) أى غير حالها التى كانت عليها .
(٦) أعرض عما يقتضيه الغضب وأشاح وبالغ فى الإعراض عنه حلما وعفوا .
(٧) يكشف أثناء ضحكه عن شيء كالبرد بالتحريك فى الشكل واللون .

ختام

مما سبق يتبين أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول بحق ، فقد ادعى الرسالة وتضافرت الشواهد على صدقه ، فحاله وحال العرب أتباعه صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة وبعدها ، والخوارق التى صحبت دعواه كل هذا يؤكد صدق رسالته ، وثبوت نبوته وتمام عظمته .

لقد أعدته العناية الإلهية جسما وعقلا وروحا وخلقا وأمدته بما يعينه على حمل رسالة الخير والنور والهدى والسلام ، والحق والفضيلة إلى العالم فى عصره وإلى ما شاء الله (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) — (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) .

لقد اشتهر فى الأمثال « الإنسان ابن بيئته » وقد نشأ عليه الصلاة والسلام فى أرض قاحلة جاهلة وفى بيئة جاهلية ، ضالة وثنية بعيدة كل البعد عن الحضارة والمدنية ، فمن أين له العلم والهدى والتوحيد ؟ .

لقد خرج على البيئة وثار عليها ووجهها وجهة رشيدة سديدة حتى أصبحت بفضل رسالته مشرق النور ومصدر الهدى ، ومبعث التوحيد ، وموطن الحضارة والمدنية ومصدر العلم والعرفان .

وحسبه أن العالم حتى اليوم لا يزال يتفهم مبادئه فى إعجاب ويرنو إليها فى شوق ، ويشعر بمسيس الحاجة إليها لإنقاذه من الانحلال الذى أصابه ومن الدمار الذى يوشك أن يحل به .

لقد أتى — من عند الله — بتشريع وسط فى قضايا العصر ومشكلاته .

فى قضية المرأة له دور كبير فى إنصافها دون أن يتغافل عن ظروف الرجل وظروفها ودون عسف أو محاباة وقاعدته التى بنى عليها حكمه قوله تعالى (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) فقرر حقها

فى التعلم والتعليم ، وساوى بينها وبين الرجل فى التكاليف الشرعية ماعدا لوازم الأنوثة ، وأشركها معه فى الأعمال الاجتماعية التى يقوم عليها المجتمع مما يتناسب مع طبيعتها وسوى بينهما فى الجزاء على الأعمال وجعلها ذات مسئولية مستقلة فيما يتعلق بشئونها أمام الله .

قال تعالى : (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) .

وحرصا على كرامة المرأة وصيانة لسمعتها أوجب عليها أن تنأى بنفسها عن مواطن الريب والشكوك وتخفى مفاتنها وتبتعد عن كل مظاهر الإغراء حتى لا يسىء إليها مسىء أو يطمع فيها دنىء .

قال تعالى (يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) .

ومن أجل نقاوة عرض المرأة شرع حد القذف ثمانين جلدة لمن يجرح كرامتها كذبا وزورا .

قال تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) .

وفى قضية المال راعى غريزة التملك فلم يعارضها ، وراعى حقوق الجماعة فلم يجحدها ، فأباح الملكية الفردية فى حدود « لا ضرر ولا ضرار » موافقة للغريزة البشرية وأوجب فى المال حقوقا يحارب الحاكم مانعيها إنصافا للجماعة الإنسانية .

قال تعالى (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) أضاف المال إليهم ، وفرض الحق عليهم . وقال (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب

والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم) .

وفى محاربة الجهل يدعو إلى العلم بأوسع معانيه ويحض عليه ويرغب فيه ويقدم للناس كتابين كتاب القرآن وكتاب الأكوان ، ويطلب إليهم أن ينظروا فيهما ويتأملوا فى محتوياتهما ليقفوا على أسرار آيات الله التنزيلية والكونية فيؤمنوا به ويسجدوا لعظمته ، عظمته التى يشهد بها بليغ قوله ، وبديع فعله قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) وقال (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) .

لقد يسر الله القرآن للناس لعلهم يتذكرون قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ويسر كتاب الكون لهم لعلهم ينتفعون قال تعالى (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

قدم لهم كتاب الكون ويسر لهم طريق الانتفاع به وأرشدهم إلى أن مفتاح التسخير هو التفكير .

فوا عجبا للعرب ووا عجبا للمسلمين لقد خاطبهم المولى بهذا قبل أن يخاطب من عداهم لكنهم عموا وصموا ولو استجابوا دعوة الله فأعملوا سمعهم وبصرهم وفكرهم فى بدائع القرآن وروائع الأكوان لكانوا أسبق إلى كشف المخترعات الحديثة من الروس والأمريكان .

وفى الدعوة إلى حفظ الصحة ومحاربة المرض يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « سلوا الله العفو والعافية فإن أحدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية » أخرجه الترمذى عن أبى بكر ويقول « ياعباد الله تداووا » أخرجه الترمذى ، ويبين فضل القوة فيقول « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » أخرجه مسلم عن أبى هريرة . والقوة يحبها الله فى كل

مجال فى الحياة يحب أن يرى الله المؤمن قويا فى إيمانه وفى جسمه وفى خلقه وفى عقله وعلمه ، ولقد كانت القوة الجسمية مدعاة إلى إيمان ركانه فقد صارع النبى صلى الله عليه وسلم فصرعه فقال يا محمد : ما وضع جنبى أحد إلى الأرض وما أنت بالذى تصرعنى ثم أعلن إسلامه ، كما روى ذلك أبو داود فى المراسيل . كذلك كانت قوة النبى الخلقية سببا فى إيمان ثمامة واليهودى وقد مرت قصتهما ص ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، وكذلك كانت قوته العلمية سببا فى إيمان عبدالله بن سلام فقد أجابه النبى صلى الله عليه وسلم عن أسئلته فلم يسعه إلا أن يعلن الإسلام وقصته فى البخارى ج ٤ ص ١٦٠ ونصها « بلغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى أول أشراط الساعة ، وما أول طعام يأكله أهل الجنة ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه ومن أى شىء ينزع إلى أخواله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خبرنى بهن آنفا جبريل قال فقال عبد الله ذاك عدو اليهود من الملائكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الشبه فى الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها ، قال أشهد أنك رسول الله ثم قال يا رسول الله إن اليهود قوم بهت . إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتونى عندك فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه » .

وفى قضية الحكم عالجها علاجا يسعد الحاكم والمحكوم فدعا إلى الشورى توصلا إلى الصواب ، ومنعا للاستبداد وأوجب العدل ، ورغب فى الإحسان

والفضل ، ليشيع الحب والصفاء ، والسلام والإخاء ، ولتقوم روابط قوية بين الراعى والرعية .

قال تعالى (وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) وقال (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) .

وفى العلاقات بين المسلمين وغيرهم يحافظ الإسلام على مبدأ السلام فلا يحارب إلا من أعلن الحرب عليه أوكان خطرا موجهاً إليه .

قال تعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) وقال (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين) وقال (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) .

وفى إقامة مجتمع فاضل متماسك يقول تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان) ويقول (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ، ويقول (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

لقد جاء الإسلام بحل لكل مشكلة ، وجواب عن كل سؤال ، وفى كنوز السنة النبوية مايغنينا بحق عن كل التشاريع الأجنبية فى كل نواحى الحياة اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو سياسية أو دولية ، فيها مايغنينا عن القوانين الأوربية فى النواحى المدنية والجنائية والتجارية .

هذه الثروة التى ورثناها عنه ، وهذه الكنوز التى استفدناها منه ، من أين له بها وهو لم يتعلم فى مدرسة ولم يتردد على أستاذ ولم يطالع أى كتاب ؟ إن قيل: إنه تتلمذ على أستاذ فما اسمه؟ وإن قيل: إنه اقتبس من كتاب فما عنوانه؟ ومن مؤلفه ؟ وأين عثر عليه ؟ وكيف وصل إليه ؟ .

الحق — كما يشهد التاريخ العادل الصادق — أنه لا معلم له إلا الله ولا كتاب له إلا كتاب الله ، وكتاب الله الذى هداه قد أعجز ولا يزال يعجز العالم عن أن يأتوا بمثله لفظا ومعنى ، وسيلة وغاية ، علما وهدى ، قوة وأثرا .

وحسبه أنه جمع بين دفتيه مايحتاج إليه الخلائق فى دنياهم وأخراهم ، مصداقا لقوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) .

حسبه أنه يقرؤه العباقرة فى كل الأمصار والأعصار فيجتنون منه أطيب الثمار، يجدونه - مهما تقادم عليه الزمان - غضا طريا ، لا تبلى جدته ، ولا تضعف قوته ، ولا تتضاءل عظمته ولا تتقلص زهرته وثمرته .

هذا الكتاب الذى تلقاه من ربه ، وهذا المعلم الذى أمده من علمه ، كلاهما قد شهد برسالته ، وأثنى على شخصيته ولنتتبع حديث القرآن عنه .

قال القرآن فى بيان رسالته ووظيفته وغايته :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) .

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) .

(الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) .

(كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) .

(لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) .

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) .

(إنا أرسناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) .

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) .

(وما أرسلناك إلا كافة للناس) .

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وقال القرآن فى بيان ما يجب على الأمة نحوه :

(يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله) .

(إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) .

(يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) .

(يأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون) .

(يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) .

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) .

وقال القرآن فى بيان فضل طاعته :

(وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) .

(وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين) .

(ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) .

(ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) .

(ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار) .

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من

النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) .

(فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

(لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) .

وقال القرآن مهددا من لم يوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعصيه ويؤذيه :

(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين) .

(ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) .

(ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) .

(إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) .

(إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين) .

(إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعدلهم عذاباً مهيناً) .

(إن الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم يحلفون بالله لكم ليرضوكم

والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم) .

﴿ وبعـــد ﴾ :

فهذا هو محمد صلى الله عليه وسلم حامل رسالة الله ومبلغ دينه ، (رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) (رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

هذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع الله ذكره ، وخلد أثره ، وطيب نشره ، فليس فى حاجة إلى تزكية مخلوق بعد أن زكاه خالق الخلق وملك الملوك (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك) .

نسأل الله أن يزيدنا إيمانا به ، ويوفقنا لاتباعه ، ويهدى المسلمين جميعاً لنصرة دينه وتطبيق تعاليمه حتى تتم لهم السيادة وتتحقق لهم السعادة ويعلو قدرهم ويرتفع ذكرهم ، إنه سميع مجيب الدعاء ؟

محمود عبد الوهاب فايد
من علماء الأزهر

قصيدتان من نظم المؤلف

(ا) قصيدة (مطلع النور) وقد ألقيت فى حفل دينى أقامه معهد منوف الأزهرى الثانوى ونشرت فى الاعتصام س ١٩ ع ١٠ ص ٢٨ - ٣٤ .

(ب) قصيدة (فى ذكرى الإسراء والمعراج) وقد ألقيت فى حفل دينى أقامته الجمعية الشرعية ونشرت فى الاعتصام س ٣٠ ع ٣ ص ٦،٧،٨،٢٠ .

مطلع النور

بزغ السنا فانجابت الظلماء   وتألقت من نوره الغبراء
وتلألأت منه السماء وأشرقت   وبدت عليها بهجة وضياء
نور الهدى فى يوم مولده سرى   فى الكون فازدانت به الأرجاء
قل للنجوم إذا زهت وتطاولت   غضى فأحمد كوكب وضاء
بدر عليه من الرسالة رونق   وعلى محياه هدى وحياء
الله أكبر ما بدا متهللا   وبدت عليه هيبة وبهاء

《 حالة العرب قبل بعثة الرسول 》

جاء الرسول إلى الأنام وكلهم   شرك وداء المشركين عياء
شوس الطباع فلاترى من شأنهم   إلا الذى ذئرت له العقلاء
أو ما ترى عصم المودة جذمت   ووهت دعائمها وشيد عداء
وأدوا البنات فلا ضمير عندهم   أو رحمة فيهم ولا استحياء
أكلوا الحقوق وأسرفوا فى بغيهم   ومن الهوان تشكت الضعفاء
والخمر أفسدت العقول فهجنت   ماليس ينكر حسنه الحكماء
واستحسنت ماعابه أهل النهى   وكذاك تلعب بالنهى الصهباء

《 ثورة الرسول ودعوته 》

ثار الرسول عليهم متدرعاً   بالصبر ، والصبر الجميل وقاء
آذوه والإيذاء أمضى عزمه   هل بالرسول يؤثر الإيذاء
يدعو الإله يقول معتذراً لهم   اهد العداة فإنهم جهلاء
ومضى يرتل آية من ربه   قد قصرت عن مثلها البلغاء
فعيوا وقالوا شاعر حسداً له   فلأى شىء يعجز الشعراء
لابدع إن عجز الجميع فإنه   وحى من الله به الإعلاء

﴿ فضل الشريعة الإسلامية والحكم الإسلامى ﴾

وافى الرسول بشرعة قدسية ... ما شابها ظلم ولا ضراء
الناس كلهم سواء خيرهم ... أهل التقى والعلم لا الأمراء
والمسلمون بفضلها قد سادهم ... بعد العداوة ألفة وصفاء
الله ربهم وأحمد قدوة ... لهم وآيات الكتاب دواء
دين العدالة والطهارة والهدى ... لا كلفة فيه ولا غلواء
فتحوا به الدنيا وصاروا سادة ... رحماء ليس كمثلهم رحماء
شهد النصارى واليهود بفضلهم ... والفضل ماشهدت به الأعداء
أنظر إلى المختار قبل وفاته ... يرسى الأساس ليستقر بناء
ويقول من آذيتهم فليأخذوا[1] ... منى حقوقهم إذا ماشاءوا
كشف الرسول لنا عن استعداده ... ليقاد منه إن بدا إيذاء
وهو الذى قد ظل طول حياته ... يؤذى ويدعو للذين أساءوا
هو رحمة للعالمين فلا أذى ... منه ولا عنت ولا ضراء
أعظم به مثلا يرينا أننا ... والمصطفى عند القضاء سواء
أعظم به مثلا يصون حقوقنا ... طرا فلا يغتالها رؤساء
هذا هو الحكم النزيه فطالبوا ... بقيامه حتى يحل هناء

﴿ فى ظلال الإسلام قامت دولة للعرب ﴾

بعث الرسول بأمة أمية ... لاحاكمون بها ولا حكماء
ماعندهم جيش يصد عدوهم ... ولذاك يوم الفيل عز لقاء
فروا من الميدان وانسحبوا بلا ... حرب فقامت فتنة عمياء
قالوا : لهذا البيت رب قادر ... يحميه مما رامه الأعداء
فإذا برب البيت يصدر أمره ... للطائرات فيستحر بلاء

---

(١) إشارة إلى حديث « من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه ».

أَلقت قذائفها فنالت مقتلا | منهم وأصحاب الحمى شهداء
قد كان هذا حال أمة يعرب | لكنهم بعد الهدى سعداء
تركوا الهوى وتوحدوا فى دولة | قد نظمت ويديرها رؤساء
الذكر دستور وفيها حاكم | ولها جيوش قادها بسلاء
هزوا عروش الفرس والروم الألى
كانت لهم مدنيــة زهراء

﴿ بين حرب القوى وحرب النبى ﴾

الحرب بسعرها القوى وقد سرت | فى قلبه الأضغان والبغضاء
ويعيث فى الأرض الفساد إذا رأى | أعداءه خضعوا وهم أسراء
لكن رسول الله يغزو داعياً | للحق لا بغض ولا شحناء
يحمى شريعته ومن قد آمنوا | وجنود ربك كلهم نصراء
انظر إليه ببطن مكة قائلا | ماظنكم بى أيها الأعداء
قالوا كريم جاء وابن مكرم | فيقول فامضوا إنكم طلقاء

﴿ فلسطين وخيانات اليهود ﴾

أما فلسطين فإن له بها | بيتاً إليه ينتهى الإسراء
صلى به متبتلا ، من خلفه | رسل كرام كلهم أمناء
هيا انصروها جاهدين وأخرجوا | منها اليهود فإنهم جبناء
مهما تمادوا فى العناد وأوقدوا | نار الوغى فـآلها الإطفاء
هذا هو الوعد الصريح أتت به | آى الكتاب[1] وما بها إخفاء
النصر مكتوب لكم وعليهم | كتب العذاب ولن يطول بقاء
دع وعد بلفور وثق فى وعده | عما قريب يستقر جلاء

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى المائدة ٦٤ (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) .

﴿ تقدم العلم وتدهور الإنسانية ﴾

يامولد المختار أشرق بالهدى ... حتى يعم السلم والنعماء
يامولد المختار هذا الكون قد ... أضحى تهدده القوى الخرقاء
فقذائف ذرية وكواكب ... مصنوعة يغزى بهن فضاء
جحدوا الإله وحولوا آلاءه ... نقما بها للعالمين فناء
العلم نور للورى فتنافسوا ... مادام فيه سلامة وهناء
فإذا تحول للدمار وسار فى ... ركب الهوى والظلم فهو بلاء
ياويح قومى سخر المولى لهم ... مافى الورى لكنهم جهلاء
أسلافنا فهموا الكتاب فدققوا ... فى الكون حتى برز العلماء
فى الطب فى الأفلاك فى الجغرافيا ... فى الكيمياء فطاحل نبغاء
تركوا لنا فى كل فن ثروة ... من كدهم وأضاعها الأبناء
جدوا المسير وقد توقف سيرنا ... هل يرتجى للخاملين ثراء
ذهبوا بعلم ثم بؤنا بعدهم ... بالجهل وهو معرة وشقاء
الغرب سار بضوئنا حتى أتى ... بعجائب دهشت لها الحكماء
فخذوا من الغرب الجديد ولاتنوا ... فالكون يدرك سره الخبراء
لابأس بالتقليد فى فن وفى ... عمل يجد لنيله العظماء
أما المراقص والمهازل فهى لا ... تجدى وليس بها يقوم بناء

﴿ حماية الدين والوطن من الأخطار ﴾

ياقادة الإسلام جدوا وليكن ... لكم بأحمد أسوة حسناء
هل كان هذا الدين إلا دعوة ... فيها على جذم الشرور قضاء
هبوا لنصر الدين لاتتخاذلوا ... إن التخاذل فتنة وبلاء
ولتحرسوا الوطن العزيز بقوة ... خرساء يخشى بأسها الدخلاء
وخذوا بأسلحة الحياة فانه ... ما عاش يوماً أمة عزلاء
لاتأمنوا روسيا وأمريكا فما ... فى النار للظمآن يرجى ماء

سيروا على حذر ولا تتورطوا ... فالبعد عنهم جنة ووقاء
إنا نسالم من يسالمنا ومن ... عادى فنحن لمثله أعداء

﴿ الأزهر وموجة الإلحاد ﴾

يارب هذا الأزهر المعمور قد ... خارت قواه وأهله ضعفاء
تركوا الملاحدة الذين تبجحوا ... فتفاقم الإلحاد والإيذاء
الدين وهم والإله خرافة ... وكذاك أعلن صبية سفهاء
أبمثل ذا يا قوم ننصر ديننا ... ونقيه مما بيت الأعـــداء
عودوا إلى النهج القويم وصالحوا ... مولاكم كيما يتم صفاء
لاتنكروا التقصير واعترفوا به ... فبالاعتراف يكون ثم نجاء
ما أنتم إلا ســـلالة آدم ... ولقد حفظنا : كلهم[1] خطاء
والخير فيمن تاب من زلاته ... فينـــاله التوفيق والإطراء
يارب فاحم الأزهر المعمور من ... كيد العدا حتى يطول بقاء
وانهض به حتى يواصل سيره ... ويظل يخشى بأسه الخصماء

﴿ التزام الشريعة الإسلامية فى القضاء ﴾

ياأمة الإسلام سيرى واسلكى ... سنن النبى فإنها زهـــراء
فالله خص نبيه بشريعة ... فى طيها للعالمين رخاء
عضوا عليها بالنواجذ لاتنوا ... أو ما كفاكم ذلك الإبطاء
قولوا لمن حكموا بقول خواجة ... قد عششت فى قلبه الأهواء
عجباً لنا بالأمس قال الشافعى ... وسواه قولا ليس فيه خفاء
لاتتركوا قول الرسول لقولنا ... إن تفعلوا هذا فنحن براء
هو وحده المعصوم فاستمعوا له ... ودعوا سواه فكلنا خطاء

---

(١) إشارة إلى حديث «كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» .

والیوم من عجب نقول لكم دعوا أحكام مسیو إنها بتراء
لا تتركوا قول الإله لقوله هذا ضلال واضح وشقاء
لقد استقلت مصر واستغنت بما حازت ولما يستقل قضاء

﴿ مناجاة للرسول ﴾

ياخير خلق الله أنى يرتقى لمديحك الخطباء والشعراء
لكن مدحت لأننى بك هائم والحب يفعل مايرى ويشاء
إنى لأرجو أن أنال شفاعة يوم الحساب وأن يطيب لقاء
عذراً رسول الله إن قصرت فى تبيان أيد مالها إحصاء

فى ذكرى الإسراء والمعراج

جلال له من صولة الحق منبر ... ونور على الدنيا يشع ويبهر
وذكرى يفوح المسك من نسماتها ... وتحمل أعلام الهدى وتبشر
ويعلو بها الحق الصراح وينجلى ... بها عن حمى الإسلام زور ومنكر
نبى الهدى وافى الأنام بشرعة ... تعالج أدواء القلوب وتجبر
وتطلق أفكار الورى من عقالها ... وتبعثهم من نومهم وتحرر
وتعلن أن الناس تحت ظلالها ... سواء وأن الله لاغير أكبر
وليس نخار المرء فيها بجاهه ... ولكن بتقواه يسود ويفخر
هى الشرعة المثلى وحسبك أنها ... يؤيدها وحى من الله مسفر
كتاب أمد العالمين بحكمة ... وعلم به تسمو النفوس وتطهر
فناوأه من مال للشر طبعه ... وعانده مستكبر متجبر

* * *

تمادى حماة الشرك فى غلوائهم ... وآذوا رسول الله وهو يذكر
فضاقت عليه الأرض وهى رحيبة ... وبات حزينا قلبه يتفطر
فنادت سماء الله لاتأس إننى ... أحن إلى لقياك والشوق يغمر
إذا الأرض ضاقت بالرسول فحسبه ... مكان منيف فى السما متخير
تلقى الرسول دعوة يرتقى بها ... ويحظى بتكريم الإله ويظفر
فحلت لديه بعثة لاصطحابه ... من الملأ الأعلى رعته وتخفر
عجائب من آيات ربى عظيمة ... عقول الورى فى سرها تتحير
يراها رسول الله مشرقة له ... فيزداد إشراقا فؤاد مطهر
وتتسع الدنيا له بعد ضيقها ... ويسرى بجنح الليل لايتعثر

* * *

يطير براق بالرسول لمسجد ... به بركات الله تربو وتكثر

فصلى به المختار لله خاشعاً وقام على آلاء مولاه يشكر
ورافقه جبريل عند عروجه يفتح أبواب السما ويبشر
ترقى رسول الله فى درج العلا ونال مكانا فى ذرا الكون يبهر
أفاض عليه الله من نفحاته وأعطى له مايرتجيه ويؤثر
وعاد إلينا بالصلاة تحية تذكر بالمعراج من يتبصر
فقل للألى قد أنكروه رويدكم أمامكم آيات ربى فانظروا

* * *

إذا جحد المعراج بالأمس جاحد فليس يمارى اليوم فيه مفكر
أيعرج صاروخ إلى قمر السما توجهه منا عقول تدبر
وننكر أن يرقى إليها محمد بتدبير من للكائنات يسخر
أيقدر مخلوق ويعجز خالق تعاليت ياربى فإنك أقدر
أيا أمة الإسلام هذا رسولكم أتاكم بدين من يواليه ينصر
يشيد العلم الصحيح معاقلا ويكشف أسرار الوجود ويظهر
ويدعو إلى التفكير فى ملكوته ويفتح آفاق السماء لتنظروا
فمابال قومى قد تعاموا عن الهدى وملوا حياة العلم حتى تأخروا
لقد كشف الأعداء أسرار خلقه ونحن بهذا الكشف أولى وأجدر
أعدوا لهم ماتستطيعون من قوى ولا تركنوا للجهل فهو مدمر
فإن تك إسرائيل أمسى بلاؤها خطيرا فبلوى الجهل أدهى وأخطر
أيا أمة الإسلام هيا فعلموا شبابكم حتى تفوزوا وتظفروا

* * *

أيا أمة الإسلام إن بلادكم تقاسمها الأعدا وفيها تجبروا
فلسطين مسرى المصطفى غاب نجمها وحل بها جند اليهود وعسكروا
وفى المسجد الأقصى يميس عدونا ونحن نغنى فى ابتهاج ونزمر
ونفتح للرقص المثير معاهدا ونكشف سوآت الغوانى وننشر

فإن تذكروا الإسراء صاح نبيكم   أبا الرقص ياقومى نسود ونفخر
فإن تذكروا الإسراء صاح نبيكم   أبا لغانيات العاريات نحرر
فإن تذكروا الإسراء صاح نبيكم   ألا فاحذروا من كل لهو يخدر
فإن تذكروا الإسراء صاح نبيكم   عليكم بترك المنكرات فبكروا
فإن تذكروا الإسراء صاح نبيكم   أفيقوا وجدوا واستعدوا ودبروا
فإن تذكروا الإسراء صاح نبيكم   عليكم بنصر الله والله ينصر
فإن تذكروا الإسراء صاح نبيكم   عليكم بإجلاء اليهود فشمروا
يروع روحى أن تعيشوا أذلة   وأن تقبلوا سلب الحقوق وتصبروا
خذوا حذركم لاتغفلوا وتوكلوا   على الله فى عزم ولا تتقهقروا
أغيروا عليهم كى تقيموا احتفالكم   بتل أبيب فى مواكب تبهر
فما كان يرضى المصطفى غير حفلة   بداخل إسرائيل للقدس تثأر

* * *

أيا أمة الإسلام هيا فوحدوا   صفوفكم حتى تسودوا وتظفروا
أيا أمة الإسلام إنا بحاجة   إلى وحدة كبرى وجيش يجمر (١)
يعز به المولى مبادىء دينه   ويصمد للباغين لايتأخر
يهب إلى أرض العروبة زاحفاً   يخلصها من قيدها ويحرر
ويأتى فلسطينا بعزم وقوة   يطهرها من طغمة تتنمر
أيا أمة الإسلام إنا بحاجة   إلى عالم يرجو الإله ويحذر
يبلغ أحكام الشريعة ناصحا   لأمته فى قوة ويبصر
ويؤمن أن الله واهب رزقه   فيبسط منه مايشاء ويقدر
وإن كاده أعداؤه لم يضق بهم   وكان كخير الخلق يؤذى ويصبر
ويوقن أن النصر عقبى جهاده   ولكن له حد ووقت مقدر
سألت إلهى عونه لنرى غدا   صياصى صهيون تدك وتدحر
سألت إلهى أن يحقق غاية   بها السعد يدنو والأمانى تزهر

---

(١) تجمير الجيش : تجميعه على الثغور والحدود لصد الأعداء وتأديبهم .

دعاء وتضرع

من القرآن :

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين) .

(إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

(ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد) .

(ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) .

(اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب) .

(ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) .

(رب انصرنى على القوم المفسدين) .

(ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) .

(ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) .

(رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين) .

(حسبنا الله ونعم الوكيل) - (حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) (بسم الله ماشاء الله لاقوة إلا بالله) - (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) - (وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد) .

من السنة :

« اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إنى أعوذ بك من علم لاينفع ومن قلب لايخشع ومن نفس لاتشبع ومن دعوة لايستجاب لها » أخرجه مسلم والنسائى عن زيد بن أرقم .

« رب أعنى ولاتعن على ، وانصرنى ولا تنصر على ، وامكر لى ولاتمكر على ، واهدنى ويسر الهدى لى ، وانصرنى على من بغى على . رب اجعلنى لك ذكاراً ، لك شكارا ، لك رهاباً ، لك مطواعا ، لك مخبتا ، إليك أواها منيبا ، رب تقبل توبتى واغسل حوبتى وأجب دعوتى وثبت حجتى واهد قلبى وسدد لسانى واسلل سخيمة صدرى » أخرجه أبو داود والنسائى وابن ماجه والترمذى عن ابن عباس وقال حسن صحيح .

« اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرضنا وارض عنا » أخرجه الترمذى والحاكم عن عمر .

« اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » أخرجه الحاكم عن أبى هريرة .

« ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث » أخرجه الترمذى عن أنس .

« اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت » أخرجه أحمد وأبو داود عن أبى بكر .

« اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ماعلمت منه ومالم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ماعلمت منه ومالم أعلم اللهم إنى أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك وأعوذ بك من شر ماعاذ به عبدك ونبيك اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أوعمل وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لى خيرا » أخرجه ابن ماجه عن عائشة ج ٢ ص ١٢٦٤

« اللهم اقسم لنا من خشيتك مايحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ماتبلغنا به جنتك ومن اليقين ماتهون به علينا مصيبات الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لايرحمنا » أخرجه الترمذى ج ١٣ ص ٣٢ والحاكم عن ابن عمر .

« اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا » أخرجه أحمد عن أبى سعيد .

« اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك وأغننى بفضلك عمن سواك » أخرجه الحاكم والترمذى عن على .

« اللهم فارج الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أنت ترحمنى فارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك » أخرجه الحاكم عن عائشة .

« لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والعصمة من كل ذنب

والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم لاتدع لى ذنبا إلا غفرته ولا هما إلا فرجته ولا حاجة هى لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين ، أخرجه الترمذى عن عبد الله بن أبى أوفى .

« اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، أخرجه أحمد عن بسر بن أرطاة .

« اللهم انصر الإسلام والمسلمين واخذل الصهيونيين والمستعمرين والملحدين وكل من يؤذى الإسلام أو المسلمين آمين ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على رسولنا العظيم . وعلى سائر النبيين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين » .

تم الكتاب ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

أهم المراجع

١ القرآن الكريم .
٢ الدر المنثور للسيوطي .
٣ تفسير ابن كثير .
٤ فتح القدير للشوكاني .
٥ روح المعاني للألوسي .
٦ تفسير القرطبي .
٧ غرائب القرآن للنيسابوري .
٨ تفسير الطبري .
٩ تفسير المنار لرشيد رضا .
١٠ الاتقان للسيوطي .
١١ صحيح البخاري .
١٢ سنن أبي داود .
١٣ صحيح مسلم .
١٤ سنن الترمذي .
١٥ سنن النسائي .
١٦ سنن ابن ماجه .
١٧ موطأ مالك .
١٨ مسند أحمد .
١٩ سنن الدارمي .
٢٠ سنن الدارقطني .
٢١ مجمع الزوائد للهيثمي .
٢٢ طرح التثريب للعراقي .
٢٣ فيض القدير للمناوي .

٢٤ الفتح الكبير للنبهانى .
٢٥ فتح البارى للحافظ ابن حجر .
٢٦ إرشاد السارى للقسطلانى .
٢٧ عمدة القارى للعينى .
٢٨ المنهل العذب المورود للشيخ محمود السبكى .
٢٩ معالم السنن للخطابى .
٣٠ نيل الأوطار للشوكانى .
٣١ الترغيب والترهيب للمنذرى .
٣٢ تيسير الوصول لابن الديبع .
٣٣ المنتخب من السنة للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٣٤ الإصابة للحافظ .
٣٥ أسد الغابة لابن الأثير .
٣٦ الاستيعاب لابن عبد البر .
٣٧ الشمائل للترمذى .
٣٨ المواهب اللدنية للزرقانى .
٣٩ نسيم الرياض للخفاجى .
٤٠ شرح الشفا للقارى .
٤١ سيرة ابن هشام .
٤٢ الوفاء بأحوال المصطفى لابن الجوزى .
٤٣ عيون الأثر لابن سيد الناس .
٤٤ إنسان العيون للحلبى .
٤٥ السيرة النبوية لدحلان .
٤٦ البداية والنهاية لابن كثير .
٤٧ زاد المعاد لابن قيم الجوزية .
٤٨ المغازى للواقدى .

٤٩ طبقات ابن سعد .
٥٠ تهذيب الأسماء واللغات للنووى .
٥١ بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام .
٥٢ الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام .
٥٣ الأبطال لتوماس كارليل .
٥٤ الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر .
٥٥ نور اليقين للخضرى .
٥٦ نبذة من السيرة لمبشر الطرازى .
٥٧ عبقرية محمد للعقاد .
٥٨ المثل الكامل لجاد المولى .
٥٩ حياة محمد لهيكل .
٦٠ جواهر البحار للنبهانى .
٦١ لوامع الأنوار البهية للسفارينى .
٦٢ المسامرة للكمال بن أبى شريف .
٦٣ تقريب المرام للكردستانى .
٦٤ الشرح الجديد لجوهرة التوحيد للعدوى .
٦٥ شرح العقيدة الطحاوية .
٦٦ إحياء علوم الدين للغزالى .
٦٧ الكتاب المقدس .

الفهــــرس

صفحة الموضوع

صفحة — الموضوع

صفحة　　　الموضوع

صفحة الموضوع

صفحة الموضوع

صفحة الموضوع

تم الفهرس بحمد الله

تصويب

وقعت بعض أخطاء مطبعية قليلة يمكن للقارىء أن يدركها بفطنته ، منها :

صفحة	سطر		خطأ	صواب
٧	١٣		يوحد	يوجد
١٠	٢		لشى	لشىء
٢٥	١٨		وبجد	ويجد
٢٨	١٢		مواصلة	مواطن
٣٢	١٩		راجع	راجح
٦٦	٥		ناؤوا	ناوءوا
٧٥	٢١		تغلى	تقلى
٩٣	٤		لم ينبرى	لم ينبر
١١٣	٤		وألبو	وألبوا
١٣٨	٥	هامش	الداجين	الداجن
١٤٠	٢	هامش	فغشيا	مغشيا
١٥٠	١٢		فعلمنا	فعلمن
١٥٠	١٦		لاتخلوا	لاتخلو
١٨٦	٨		فقلنا	فقلت
٢٢٥	٥		ويشتمل	ويشمل
٢٣٠	١١		وتعيد	وتعبد